محمود شفيق

البحثُ عن الإسلام

و

لَوثةُ الفكرِ العربى

الجـــزء الأول

المكتب المصرى الحديث

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

شفيق، محمود .

البحث عن الاسلام ولوثة الفكر العربي / محمود شفيق . ـ القاهرة : المكتب المصري الحديث، ٢٠١٦ ؛

٢٠٠ص، ٢٤ سم

تدمك ٤ ٢٨ ٢٠٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الاسلام - حركات الإصلاح والتجديد

أ - العنوان

٢١٩

رقم الايداع ١٨٥٢ / ٢٠١٦ بتاريخ ٤/١/٢٠١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ
لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

آل عمران: ٨ـ٩

الطبعة الأولى ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة
كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات
الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدمًا

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
Email: may642003@gmail.com

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت : ٢٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية ت : ٤٨٤٦٦٠٢

إهـــــداء

إلى مهد الحضارة وفجر الإنسانية.

إلى أرض المحبة والرحمة.

إلى من فتحت ذراعيها واحتضنت...

وضم ثراها أشرف أناس.

إلى حب أهل البيت وحبى.

إلى كنانة الله فى أرضه..

وحصن الإسلام الحصين.

إلى قلب العروبة .. وقلبى.

إلى أم الدنيا .. وحضن الإنسانية.

إليك يا حبيبتى .. إليك يا مصر .

المؤلف

مقدمـــة

لم تكن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ بالحدث العابر فى حياتنا ، ولم تكن صدمة تنتهى أثارها عبر سنين معدودة ولا حتى بانتهاء الأجيال التى عاشتها وخاصة جيل الشباب وقتها والذين نشأوا فى عصر العزة والكرامة ، وشبوا على الانتصارات والانجازات ، فى عصر عبدالناصر ، وباختصار شديد فقد كان زلزالاً زلزلت له الأفئدة وانفطرت له كل قلوب المصريين وتمزق قلبى وودت لو أنى كنت الفدا.

وبرغم انخراطى فى الحركة الطلابية التى تفجرت بعد الهزيمة والتى كان نواتها أولئك النفر من طلبة الجامعات الذين هُرعوا إلى جامعاتهم بمجرد سماعهم بأول نبأ عن نشوب القتال بين العرب وإسرائيل بغية تشكيل جيوشاً شعبية تحمى وتؤازر ظهر الجيش المصرى المقتحم نحو القدس الشريف ، إلا أن هذا لم يشغلن عن البحث عن الإسلام ، فقد كنت مع الذين شكوا فى الإسلام الذى كان منتشراً وقتها ، واخذت أبحث عن حقيقه الإسلام بين طيات الكتب القديمة وبين دفتى الكتاب الكريم ، وبين مختلف التيارات الإسلامية وبين جماعات التصوف أيضاً، وكرهت كل عالم ينتمى للسلطة ولم أكن أطيق أن استمع إليه ، وكم سهرت على أعتاب أهل البيت حتى مطلع الفجر أبحث عن كلمة عند أحد الدراويش أو المجاذيب أهتدبها .

وظللت على هذا الحال اكثر من عشرة أعوام فى متاهة وضياع ، أبحث عن الإسلام فى كل طريق ، ولا أجده ،ولا أشعر بأنى مسلم وإن صليت وإن صمت وإن قرأت القرآن حتى كدت أن أجن أو أضل أو أقع فى الإلحاد والعياذ بالله ، لولا أن تداركتنى رحمة من ربى ، والحقيقة أنى ما عرفت حقيقة الإسلام إلا فى ركعتين فى جوف الليل ، فحمدت الله أن هدانى للإيمان وحقيقة الإسلام ، ثم حمدت الله أن ليس على مسئولية دينية أو سياسية ومازلت أحمدالله ، وإن كان المرء لايخلو من المسئولية الاجتماعية ، فرأيت أن أتزوج وأحقق سنة الله فى خلقه ، وأبدأ حياة

جديدة وأنسى كل ما مر بى خلال رحلة البحث عن الإسلام.

ورزقنى الله بولدين ، وما أن بلغا مبلغ الصبا وأخذا يعتادان المسجد لحفظ ما تيسر من القرآن وإذ بأحدهما ذات يوم ، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشر وكان فى السنة الخامسة الابتدائى ، جاءنى يحمل كتاب التربية الدينية المقرر دراسته ويسألنى عن معنى أولى الألباب ، فأجبته أن معناها فى مفردات الكلمات بالهامش بالكتاب الذى بين يديه ، والذى يبين أن معناها أولى العقول الناضجة ، فأخبرنى أنه قد قرأ هذا ويعلمه ، إلا أن لديه سؤالاً يشغله ، فيسأل عن أولئك الناس الذين صعدوا إلى القمر وداروا فى سفن الفضاء حول الكرة الأرضية وقالوا أين هو الله ، إننا لم نره ؟! فهل هم أغبياء ونحن أذكياء ، أم أن عقولهم لم تنضج بعد ؟! وأجبته بما يناسب سنه ، وإن كنت غير مقتنعاً بما قلت ، ويبدو أنه كان غير مقتنعاً هو أيضاً.

ومرت الأيام ، وجاءنى صغيرى هذا أيضاً ذات يوم قبل أن يذهب إلى المسجد لصلاة الفجر ، يبحث عن طاقية يضعها فوق رأسه عملاً بالسُنة كما أخبره الشيخ، ولم يكن لدى طاقيه ، فأخبرنى أن الشيخ قد نبه عليهم أن الذى يأتى إلى المسجد لابد أن يضع غطاء فوق رأسه حتى وإن كانت طرحة أمه ، وطلب منى أن يأخذ طرحة أمه ليضعها فوق رأسه فرفضت ، وطلبت منه أن يذهب إلى المسجد حتى أحضر له طاقية فى الغد ، واندهشت أمام هذا الموقف ، ولم أكن ارتبط بالصلاة فى المسجد فى هذا الوقت.

وفى الغد كنت أجلس فى حلقة الدرس وتحفيظ القرآن بالمسجد بين إبنى وأقرانه بعد أن استأذنت من الشيخ الذى طلب منه أن يضع فوق رأسه طرحة أمه تطبيقاً للسنة ، وأتعرف على ماجد على دين الله فى عصرنا وما يدور فى المساجد ، ولم أكتف بالتردد على مسجد واحد ، بل أخذت أتردد على ما حولى من المساجد فى أوقات الفرائض المختلفة ، حتى جاء شهر رمضان ، وفوجئت بالبدع والموضات

الصلاتية التى دخلت على المساجد فى صلاة التراويح والتى رفضها قلبى ، ولم أطق أن أصل وراء من يغش القرآن من المصحف أثناء الصلاة مهما كان مظهره أوهيئته أو مهما كان علمه.

وبالطبع كنت أتحدث مع من حولى وكل من ألتقى به حول تلك البدع والموضات الصلاتية التى انتشرت فى المساجد وبين الناس ، وكان ذلك منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، والحقيقة أننى كنت مشغولاً بهذه القضية من قبل ذلك بحوالى عشر سنين ، كما ذكرت بالتفصيل فى الكتاب(*) الذى خصصته لهذه القضية ، وخلال هذه المدة لم أسمع كلمة واحدة بالجواز فى هذه القضية تستحق الاستماع إليها ، ولم أقرأ كلمة واحدة مما أفتى به العلماء الأفاضل الذين أجازوا تلك البدع والموضات الصلاتية تستحق الوقوف عندها أو الإلتفات إليها ، وما هى إلا فتاو وحجج قائمة على التزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره مثل أسلوب حياتنا كلها ، وكلما مرت السنون ، كلما ازددت ثباتاً ويقيناً أن هذه البدع والموضات الصلاتية لاعلاقة لها بالسنة المطهرة وأن وراء ذلك أياد خفية وخبيثة تريد تخريب الصلاة والقضاء على حفظ كتاب الله فى صدور المؤمنين عبر الأجيال، وأن هذه القضية هى أخطر قضية فى تاريخ الإسلام .

ولما جمعت كتاباًحول هذه القضية وأردت نشرة ، كان لابد من عرضه على مجمع البحوث الإسلامية والحصول على الموافقة بالنشر وقد تم نشر الكتاب فى طبعته الأولى عام ٢٠٠٧ ، ثم أضفت إليه ماجد فى هذه القضية ، وتم نشر الطبعة الثانية عام ٢٠٠٩ ، ومع ذلك ، وحتى الأن لم يحرك المجمع الموقر ساكناً فى هذه القضية برغم قناعتهم بأهميتها وخطورتها ، بل وأخذت فى التردى حتى كادت تلك البدع والموضات الصلاتية التى لاعلاقة لها بالسُنة المطهرة أن تشمل كل الصلوات ، والله بصير بما يعملون ، وكذلك كان موقف الأزهر الشريف ، وأما دار الأفتاء

(*) انظر كتابنا : الصلاة بين السنة والتبديل . الناشر : المكتب المصرى الحديث.

ومفتيو الديار المصرية فهم فى طريقهم لإجازة غش القرآن أثناء الصلاة فى كل الصلوات سواء كانت فريضة أونافلة ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

ولما انتشر الكتاب بين الناس ، فوجئت أن الكثيرين من الناس يتساءلون عن الأسباب التى جعلتنى أخالف الكثيرين من العلماء الذين أجازوا غش القرآن أثناء الصلاة ، فشرعت فى تأليف هذا الكتاب الذى أبين فيه المنهج الفكرى الذى اتبعته فى بحث هذه القضية ، وأجيب فيه أيضاً عن سؤال صغيرى الذى تقدم عن العقل والذكاء وأولى الألباب والإيمان بالله ، وكيف لأولئك الذين صعدوا إلى القمر ولايؤمنون بالله ، وقد بلغ صغيرى هذا الآن مبلغ الشباب ، وبالقطع مازال هذا السؤال يشغله ومعه الكثيرين من أقرانه والكثيرين أيضاً من الناس ، وقد بدأت فى تأليف هذا الكتاب منذ حوالى سبع سنين ، وإن كان يحوى أفكاراً تدور داخلى منذ حوالى نصف قرن أو يزيد.

وكلما هممت بالانتهاء منه جدت أحداث جعلتنى أؤجل نشره وإعادة النظر فيه وإضافة رؤية للأحداث المتلاحقة التى مرت علينا سراعاً خلال الأعوام الأربعة الماضية منذ أحداث ٢٥ يناير ٢٠١١ وما تلاها إلى أحداث ٣٠ يونيو ٢٠١٣ وما بعده ، ومازالت الأحداث تتلاحق وتمر سراعاً ، ويلح داعى التغيير حتى أصبح حتماً مقضياً ، ولامفر ولاتقاعس ولاتهاون ، وإما أن نكون أو لانكون.

والتغيير فعل ، والفعل لابد أن يسبقه فكر ، وإذا تم فعل التغيير وفق منظومة الفكر التى أدت إلى الفساد والخراب فلن يكون تغييراً فلابد إذن من النظر فى المنظومة الفكرية التى نعيش بها والتى أدت إلى مانكره ونرفض وأردنا تغييره ، تلك المنظومة الفكرية التى تحولت إلى منظومة حياتية كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره ، وهذا ماعبرنا عنه باللوثة الفكرية التى أصابت الفكر العربى برمته وبكل فصائله ونخبته ومفكريه ومثقفيه، ولم ينجُ منها فصيل واحد ، ولم تقف هذه اللوثة عند حد ، وإنما أخذت تزداد

وتتفاقم حتى وصلت إلى الذروة بتحولها إلى لوثة دموية ، ومع ذلك فلابأس بالذروة ، ففى الإكتمال دلالة بداية النقصان والتراجع.

وليس ما نقدم هو مجرد رأى وحسب ، إنما هو قول قائماً على ثوابت الحق وموازينه ومعاييره فى ثوابتنا الحضارية وهو واحد لايتعدد وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وحتى لايكون ما نقدمه هو عرض لظواهر تلك اللوثة وأعراضها وإنما هو بحث عن أسبابها وجذورها والقضاء عليها والعودة إلى هويتنا المصرية والعربية والإسلامية كان لابد من النظر فيما مضى من تاريخنا عبر قرنين من الزمان على الأقل والنظر فيما تعرضنا له من الغزو الفكرى خلال تلك الفترة التى تخللتها حقبة الاحتلال للمنطقة العربية وتقسيمها إلى دول تتنازعها الأحقاد وعصبية الجاهلية . ومن خلال حوارى مع كثير من الشباب ، وجدت أن الغالبية العظمى من خريجى الجامعات لايعرفون شيئاً عن حركة التنوير التى قامت فى أوروبا ثم العلمانية والعولمة الحديثة وحركة الإستشراق ، وأثر كل ذلك على الفكر العربى، والحركات الواعية الأصيلة التى قامت للتصدى ومقاومة هذا الغزو الفكرى،مثل حركة الإحياء والتجديد على يد الشيخ الأفغانى والشيخ الإمام محمد عبده رحمهما الله ، فقد رأيت أن أعرض لنبذة عن كل باختصار ولمن يرد أن يزيد فليرجع إلى الكتب المتخصصة فى ذلك ، ولما وجدّت الكتاب قد أخذ يزداد حجمه ويتضخم رأيت أن أجعله فى جزءين ، حتى يسهل قراءته وحتى يكون وجبة سهلة الهضم، فالقراءة والعلم بصفة عامة ، مثله مثل الأكل لابد له من فترة زمنية للهضم بعد كل وجبة.

وما هى إلا خطوة متواضعة للبحث عن أسباب اللوثة الفكرية التى اصابت الفكر العربى المعاصر برمته وتصحيح منظومة الفكر النشاز التى نعيش بها من

أجل التغيير الحقيقى الذى يبتغيه فقراء هذه الأمة وأصحاب المصلحة الحقيقية فى الثورة وفى التغيير . وإن كنت قد أخطأت فمن نفسى ، وإن أصبت فمن الله ، وماتوفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب.

محمود حسين محمد شفيق

فجر القاهرة فى الثلاثاء ١٤ ربيع آخر ١٤٣٦هـ

الموافق ٣ فبراير ٢٠١٥م

***

الفصل الأول

فتوحاتٌ قاهريةٌ

الحمد لله الفتاح العليم ، الحمد لله الهادى إلى الصراط المستقيم ، الحمد لله كاشف الغُمم وسابغ النعم ، الحمد لله مُخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور، ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾[1] ، ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾[2] ، اللهم افتح علينا فتوح العارفين بحكمتك وانشر علينا رحمتك وذكرنا ما نسينا يا ذا الجلال والإكرام ، فسبحان فاطر السماوات والأرض ، خالق كل شئ ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الواحد القهار ، ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3] ، ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾[4] فسبحانه هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، ، وصلى الله على خير البرية المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد .. أيها القارئ الكريم ، فهذا هو المنهج الفطرى الذى اتبعناه فى تناول أخطر قضية فى تاريخ الإسلام ، ألا وهى قضية تبديل صلاة رسول الله ﷺ ، والتى حفظها المسلمون من التبديل والتغيير طوال أربعة عشر قرناً ، وقد تحولت فى عصرنا إلى بدع وموضات ، وتعددت طرق غش القرآن أثناء الصلاة، ومع ذلك فلم تأخذ هذه القضية حقها من الاهتمام والمعالجة ، بل كان التعامل معها بالتعتيم والإهمال ، وكأن غش القرآن أثناء الصلاة ، سواء كان هذا الغش بصرياً أو سمعياً ، أى سواء كان الذى يصلى ينظر فى المصحف اثناء الصلاة أويضع سماعات على أذنيه ويردد القرآن وراء المسجل الذى يسمونه بالإمام الإلكترونى هو من السنن الصحيحة والمتبعة فى الصلاة ، أو كأن الصلاة فى الإسلام هى من الحريات الشخصية التى لايجوز الخلاف حولها أو الإلتفات إليها.

---

(١) سورة الأنفال :١٩
(٢) سورة فاطر : ٢
(٣) سورة الزمر : ٤٦
(٤) سورة الرعد : ١٦

ولما وضعت كتاباً فى هذه القضية خالفت فيه العلماء الذين أجازوا تلك البدع والموضات الصلاتية ، وكان لابد من عرضه على مجمع البحوث الإسلامية والحصول على الموافقة قبل نشره ، وقد تم نشر طبعتين من كتابنا هذا المسمى : (الصلاة بين السنة والتبديل) بين عامى ٢٠٠٧ ، ٢٠٠٩ م إلا أن هذه القضية لم تأخذ حقها من الاهتمام ، بل أخذ أمرها يزداد سوءاً ، وتساءل الناس عن الأسباب أو المنهج الذى اتبعته فرفضت تلك البدع والموضات التى أجازها كثير من العلماء المرموقين ، كما أخذت الأحداث المحلية والعالمية وما يحيط بالإسلام فى عصرنا تتابع ، وتتضح مخططات تخريب الإسلام من داخله بأيد أهله ، فرأيت أن أخط هذا الكتاب الذى أوضح فيه المنهج الفكرى الإيمانى الذى اتبعته فى ذلك ، والذى سوف نتناول به بعض الأسس التى قامت عليها المنظومة الفكرية التى نعيش بها والتى تحولت إلى منظومة كريهه من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره ، وسوف نتناول من خلاله أيضاً اهم قضايانا وقضايا الإسلام المعاصر والتى يعانى منها المسلمون فى شتى أرجاء العالم ، وقد أثرت أن أسمى هذا المنهج الفكرى الإيمانى بالاسم الذى ينطق به أى منهج الفطرة.

***

منهج الفطرة

قال رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق عليه « الإسلام دين الفطرة» وقد وقفت كثيراً أمام هذا الحديث الذى اختزل فيه رسول الله ﷺ الإسلام كله فى كلمة واحدة وهى: الفطرة ، وكم عملت الفكر وأخذت بأدوات البحث عن معنى هذه الكلمة التى أختزلت واحتوت الإسلام كله ولا أغالى إن قلت : إن هذا البحث والعناء قد استمر سنوات طويلة يتردد فى ذاكرتى هذا الحديث الشريف إلا أنه لم يتضح لى معناه ويكتمل إلا بعد أن بلغت مبلغ الرجال ، وأخذ أطفالى يسالونى تلك الأسئلة الفطرية التى كانت تتردد فى خلدى فى فطرتى أو طفولتى، وهى بلاشك تدور فى خلد كل مولود يولد لابن آدم ، فيسأل عن الذى خلقه وخلق هؤلاء الناس جميعاً ، وخلق كل هذا الخلق من حوله ، وخلق هذا الكون، ثم يرى ويسمع أن الناس تموت فى كل يوم ، وربما يموت أحد أقرانه فى طفولته، فيوقن أنه سوف يموت هو الآخر ، فيتساءل ماذا بعد الموت ؟ وحينما تأتيه الإجابة ، يتساءل أيضاً عن الطريق المأمون فى هذه الحياة حتى ينجو مما بعد الموت ، ولاشك أن هذه الأسئلة لابد أن تدور فى خلد كل طفل يأتى إلى هذه الحياة ، وفى هذا يقول المصطفى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فيهوده أبواه أو ينصرانه أو يمجسانه». والملاحظ فى هذا الحديث الشريف أنه صلوات الله عليه لم يذكر الإسلام ، ولم يقل يسلمانه نظراً لأن المولود فى الفطرة ، أى فى الإسلام .

وهذه هى مجمل القضايا التى حيرت الإنسان عبر تاريخه ، وما بعث الله سبحانه رسله وأنبيائه عليهم أجمعين السلام ، إلا من أجل هذه القضايا لهداية الإنسان وإخراجه من حيرته ، وهى قضية السبب الأول وواجب الوجود ، وما هى العلة فى الخلق ، وماذا بعد الموت ، وما هو طريق النجاة فى هذه الحياة الدنيا ؟ ومازالت هذه القضايا هى سبب حيرة الإنسان فى الغرب وسر تعاسته وشقائه ، فبرغم كل ما وصل إليه الغرب من تقدم مادى وسبل الراحة والرفاهية، إلا انه لم يشعر بالسعادة المنشودة والمدينة الفاضلة (يوتوبيا) التى وعده بها

أنبياؤه أو فلاسفة التنوير والعلمانية والعولمة الحديثة ، وخاصة بعد أن انقطعت علاقته بالسماء التى كان يجد فيها عوناً وسلوى لتخفيف أحزانه وتهوين مصائبة فازداد الشعور باليأس بين الناس وانتشرت الأمراض النفسية والاكتئاب وازدادت معدلات الانتحار ، والهروب من الواقع بالخمر والمخدرات والأعمال الجنونية.

وهذه الأسئلة الفطرية لم يستطع الإنسان أن يهتدى بقدراته العقلية المادية المحدودة إلى إجابات شافية وجازمة تخرجه من حيرته عبر تاريخه ، حتى وإن كان بعض الفلاسفة عبر العصور قد اقتربوا من الحقيقة الكبرى بالاستدلال العقلى والبحث وراء الأسباب إلى ماوراء الطبيعة حتى سلموا أن السبب الأول هو خالق واحد عظيم قادر ومقتدر إلا أنهم قد وقفوا عند ذلك ، وهذا هو منتهى حدود العقل البشرى ،وقد أخبرنا القرآن الكريم بالمثل فى ذلك بأبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، إذ يقول سبحانه : ﴿ وكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً ومَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ (١) ، والفاطر هو الخالق سبحانه وهو المتكفل بما خلق وراعى خلقه وقائم على شئونهم ، وقد ورد التعبير القرآنى على ذلك ، على لسان أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، بعد أن رفض عبادة الأصنام الذى كان عليها قومه وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلا رَبَّ العَالَمِينَ * الَذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ * وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * والَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢)

---

(١) سورة الأنعام ٧٥:٧٩

(٢)سورة الشعراء : ٧٧:٨٢.

وهذه الآيات المباركات التى وردت على لسان أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام قد جمعت الأربع قضايا التى بُعث من أجلها الأنبياء ورسل الله عليهم السلام ، وهم قضية الخلق أو السبب الأول وواجب الوجود والعلة فى الخلق ، وطريق التوحيد وهو طريق النجاة لما بعد الموت . وبما أن إبراهيم هو أبو الأنبياء فالدين الإبراهيمى هو أبو الأديان ، وسوف نستعمل هذا التعبير أى الدين الإبراهيمى كثيراً فى كتابنا هذا ، وفى الفطرة أيضاً جاءت الآيات فى خطاب المولى عز وجل لخاتم الأنبياء ﷺ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1]، وقد جاء أيضاً على لسان أحد الرسل التابعين : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2] .

والإنسان مخلوق لايطمئن قلبه ولايهنأ له بالاً إلا إذا عاش فى طاعة خالقه سبحانه الذى آمن به وأشهده على ربوبيته منذ كان فى عالم الذر قبل ظهوره إلى هذه الحياة الفانية:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[3]

وفى انفصال الإنسان عن شهوده الأول للربوبية التى صارت إليه غيبية بعد أن انشأه الله نشأ آخر فى هذه الحياة الدنيا يظل فى حيرة ولايطمئن إلا إذا عاد إلى شهوده بالربوبية ووحدانية الخالق جل شأنه الذى ينشئه نشأة بعد نشأة كيفما يشاء ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴾[4]

وكيف للإنسان أن يتعرف على خالقه والعودة إليه وهو سبحانه غيب مطلق، وقد وهب الله الإنسان عقلاً بأدوات حسية محدودة يتعرف بها على كل ما هو مادى فى هذه الحياة الدنيا ، والذى لايمكن له بأدواته تلك أن يدرك الغيب ، فأرسل

(١) سورة الروم : ٣٠ (٢) سورة يس : ٢٢
(٣) سورة الأعراف : ١٧٢ (٤) الواقعة ٦٠ : ٦٢

الحق سبحانه رسلاً مبشرين ومنذرين بوحى إليهم برسالاته حتى يخرجوا قومهم من حيرتهم ويعيدوهم إلى شهودهم الأول بربوبية الخالق ووحدانيته ويجيبوا الإنسان على تلك الأسئلة الفطرية التى حيرته عن الخلق والسبب الأول وواجب الوجود ، وماذا بعد الموت والعلة فى الخلق وطريق النجاة فى هذه الحياة الدنيا، ويبلغوا قومهم منهاج الحياة الذى فرضه المولى عز وجل لعبادته حتى يتحقق الأمن والأمان للإنسان وللمجتمع الذى يعيش فيه وإعمار الأرض ويحقق العلة فى خلقه ، ويكون خليفه لله فى أرضه بطاعته واتباع منهجه ، فالعبادة بمفهومها الشامل هى الطاعة ، وأن تكون طاعة الله فوق كل طاعة ، وقد جعل الله سبحانه للإنسان منهاجاً للعبادة يناسب خليقته ، كما جعل لكل صنف من الخلق منهاج يناسب طبيعة خلقه ودور كل فى الحياة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وكل رسول كان يُبعث فى قومه بشريعة سماوية مؤقته تتفق جميعاً ولاتختلف على أمرين وهما فحوى رسالة السماء التى أبوتها الدين الإبراهيمى والذى يقوم على أمرين ، ألا وهما التوحيد والعمل الصالح ، حتى اكتمل نضج البشرية وأراد الله سبحانه وتعالى أن يرسل إليها رسالة شاملة لكل الناس وتتوحد فيها كل الأجناس والأعراف والألسن فاكتمل الدين وتمت نعمة الله على الناس ببعثة رسول الإسلام ﷺ الذى بُعث للناس كافة برسالة الرحمة للعالمين ، وكان خاتم النبيين ولانبى بعده ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُو يُحْيِي ويُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[2]، ﴿ ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[3]، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة : ٣٠
(٢) سورة الأعراف : ١٥٨
(٣) سورة الأنبياء : ١٠٧
(٤) سورة الأحزاب : ٤٠

القرآن الكريم ومنهج الفطرة

يقول عز من قائل سبحانه ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[1] ، إذن فالعلة من القرآن أن يتدبر الناس آياته ويتفكروا ويتفهموا، ولقد جاءت آيات القرآن واضحة وصريحة منذ بداياته ، فأعلن أن هذا الكتاب هو هدى فقط للمؤمنين الذين يؤمنون بالغيب والذين يلتزمون بطاعة أوامر الله، فالعقل فى منتهى إدراكه أن يدرك أنه صنعة وحاشا للصنعة أن تدرك الصانع ، فالكرسى الذى أجلس عليه لايدرك من الذى صنعه وكيف ومتى وكذلك كل صنعة ، وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾[2] ، وإذا كان القرآن يتعبد بتلاوته ، فإنه لابد من تدبر آياته ، فالتعبد بدون فهم وتدبر فهو عبادة الغافلين ، فلم ينزل القرآن لكى يكون كتاباً للمغنى والطرب والعبادة وحسب ، وقد جاءت من الأحاديث الشريفة ما يصف حال قوم يأتون بعد رسول الله ﷺ : « يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم» وقد سماهم شرار الخلق ، فأولئك الأشرار قد اتخذوا القرآن مغنى وطرباً ، وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالإثم ،واحتج بكلمة قالها فلان أو حلم رآه علان ، وهكذا اختلط على كثير من المسلمين أمر دينهم ،وإنما أُنزل القرآن لنتدبر آياته ونتفهمها ونعمل بها ونتعبد بها ، حتى أن القصص القرآنى والوقائع التى حدثت فى الأزمان الغابرة فهى للموعظة والعبرة ، وعلى سبيل المثال ، ففى نهاية قصة نبى الله يوسف عليه السلام وما حدث معه يقول جل شأنه ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾[3] ، فلنتدبر القرآن ولنتفهمه ولنعمل به ولنعبد الله بتلاوته : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[4] .

ومن يتدبر القرآن يجد أن كل آية قد جاءت به لخدمة إحدى قضايا الفطرة الأربع التى ذكرنا من قبل ، وهى قضية الخلق أو السبب الأول وواجب الوجود ،

---

(١) سورة ص: ٢٩ (٢) سورة الواقعة : ٥٨ : ٥٩

(٣) سورة يوسف : ١١١ (٤) سورة محمد : ٢٤

والعلة فى الخلق ، وقضية ما بعد الموت ،وقضية طريق النجاة فى هذه الحياة ومنهج الحياة الذى فرضه الله على عباده المؤمنين ،ولاتخرج آية واحدة عن خدمة إحدى هذه القضايا أو بعضها ، حتى أن الآيات التى تتحدث عن الإعجاز العلمى فى الخلق والتى وقف على أسرارها العلماء فى عصرنا بمعطيات العلم الحديث ، فقد وردت لخدمة قضية التوحيد والخالق سبحانه وواجب الوجود ، وسوف نستشهد فيما يلى ببعض آيات الكتاب الكريم فى كل قضية ، ولانستطيع حصر وذكر كل ما جاء فيه من الآيات ، وإلا أحصينا آيات الكتاب كله ، وهذا لايمكن أن يتأتى لكتاب فى حجم كتابنا هذا ، كما أننا نود أيضاً أن نتناول بالمنهج الفطرى بعض قضايا الإسلام المعاصرة ، وتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة وإلقاء الضوء على المنظومة الفكرية التى نعيش بها التى تحولت إلى منظومة حياتيه كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره.

أولاً : قضية الخلق : السبب الأول و واجب الوجود

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(١)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ومُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً والشَّمْسَ والْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ *وهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ومِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ويَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

(١) سورة البقرة : ٢٩. (٢) سورة الأنعام : ٩٥:٩٩

وجاءت سورة الإخلاص بالتوحيد والوحدانية وتعرف بصفات الخالق سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ * ولَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾[1].

ثانياً: العلة فى الخلق :

﴿ ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ومَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾[2]. فما خلق الله الخلق كله إلا لعبادته ، وقد جعل سبحانه لكل خلق عبادة تناسب خلقه ، وكل الخلق مسخر لعبادته إلا الجن والإنس الذى جعل لهما حق الاختيار بين الكفر والإيمان ، وإن كانوا أيضاً مسخرين لعبادته بإجراء النواميس الإلهية عليهم ، فمجرد قيام المخلوق أداء الدور الذى خلق له ومجرد أداء كل عضو فى أى مخلوق بوظيفته هى شهادة على وحدانية الخالق وطاعته الذى خلق كل شئ فأحسن خلقه ، إلا أننا نتحدث فقط عن المنهج الاختيارى الذى أمر به الإنسان لطاعته وعبادته والذى أوحى به إلى خاتم الأنبياء ﷺ وأمر أن يبلغه ويدعو إليه الناس كافة ، وكل ما خلق الله فهو راجع إليه وكل مسلم له سواء كان طائعاً أو عاصياً ، وسواء كان مسخراً أو مخيراً بين الكفر والإيمان ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ولَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[3].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيحَهُ واللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[4]

---

(١) سورة الإخلاص.
(٢) سورة الذاريات ٥٦:٥٨
(٣) سورة آل عمران : ٨٣
(٤) سورة النور : ٤١

ثالثاً :قضية مابعد الموت:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾(١).

﴿ ولَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾(٢)،﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٣) ، ﴿ الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ والْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ ﴾(٤)،﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* ومَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾(٥).

فكل ما بعد الموت فهو غيب ، والدين كله قائم على الإيمان بالغيب وقد أخبرنا القرآن الكريم أن بعد الموت حياة برزخية إلى يوم القيامة ، يوم يُبعث من فى القبور للنشور والوقوف بين يدى رب العالمين فى نشأة أخرى غيبية لانعلمها ، ويكون الحساب يوم يقيم الله الموازين القسط ليوم القيامة ، يوم الجزاء والحساب ، وإما خلود فى الجنة أو خلود فى النار كما أخبرنا كتاب الغيب ﴿ من يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ولِياً ولا نَصِيراً * ومَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ ولا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾(٦)﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أَلا إِنَّ وعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٧)

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٨)

(١) سورة آل عمران :١٨٥
(٢) سورة آل عمران :١٥٨
(٣) سورة البقرة : ٢٨
(٤) سورة الملك : ٢
(٥) سورة الزلزلة : ٧:٨
(٦) سورة النساء ١٢٣:١٢٤
(٧) سورة يونس : ٥٥:٥٦
(٨) سورة هود : ١٢٣

وفى بداية القرآن وفى أوائل سورة البقرة يتحدى القرآن الكريم الكافرين والذين كذبوا الرسول ﷺ ،كما هو شأنهم فى كل العصور ومع كل الرسل ﷺ، وكما هو حال الملحدين فى عصرنا أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن،ويحذرهم إن لم يستطيعوا أن يفعلوا أن يستجيبوا لله ورسوله وأن يتقوا النار التى أعدت للكافرين والمكذبين والغافلين ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ *فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ولَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ *وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]. وكذلك تكرر التحذير والوعيد فى كثير من الآيات .

وقد وردت آيات كثيرة تخبر أن الله غنى عن الناس وعن العالمين وأنه هو الغنى الحميد ، وأنه على كل شئ قدير ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ وكَانَ اللَّهُ غَنِياً حَمِيداً﴾[2]﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ويَأْتِ بِآخَرِينَ وكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾[3]

(١) سورة البقرة ٢٢:٢٤ (٢) سورة النساء : ١٣١

(٣) سورة النساء :١٣٣

رابعاً : قضية طريق النجـــاة:

وإذا كنا قد عرضنا للثلاث قضايا السابقة من القضايا التى حيرت الإنسان عبرتاريخه والتى مازال غير المؤمنين فى حيرة منها وهى قضية الخلق والسبب الأول ، ثم العلة فى الخلق ، وكذلك قضية مابعد الموت ، وعرضنا لتلك القضايا بشئ من الاختصار ، فإنا لانستطيع أن نعرض لهذه القضية ، أى قضية النجاة والطريق القويم فى هذه الحياة إلاببعض الاختصار أيضاً وقليل من البيان، فقد أرسل الله خاتم النبيين والمرسلين ﷺ للناس كافة بشيراً ونذيراً ،وجعل منه المثل الأعلى الذى يحتذى به ويتمثل به والأسوة الحسنة للمؤمنين من بعده ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾(١)، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(٢)، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾(٣)

وقد جعل المولى عز وجل الدين كله فى اتباع رسول الله ﷺ ، وهو الطريق الوحيد للتوحيد ، وفى اتباعه توحيد التوحيد ، ولاطريق لحب الله سوى اتباع رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤)، وقد أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة رسول الله ﷺ فى كثير من الآيات وجعل طاعة الرسول لازمة لطاعة الله ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٥)، وحتى أن سبحانه وتعالى قد جعل طاعة الرسول هى طاعة الله :

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾(٦)، ورفع لرسوله الكريم ﷺ ذكره فجعل اسمه ملازماً لكلمة والتوحيد ولفظ الجلالة إعلاناً عن الإسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله.

---

(١) سورة الأحزاب ٢١ (٢) سورة سبأ :٢٨
(٣) سورة الأعراف : ١٥٨ (٤) سورة آل عمران : ٣١
(٥) سورة النساء : ١٣ (٦) سورة النساء : ٧٩

الإعجاز الدعوى فى الإسلام

لم يحظ كتاب فى تاريخ البشرية بالحفظ والمحافظة عليه عبر العصور ودراسته وتحليله من مختلف جوانبه مثلما حظى القرآن الكريم ، فبرغم أن الحق سبحانه قد تعهد بحفظ كتابه الكريم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]، إلا أن رسوله الكريم صلاة الله وسلامه عليه قد اتبع سنة الله فى الخلق كما أمره ربه ، وأخذ بالأسباب ، فقد اهتم بتدوينه وكتابة كل آية تتنزل على قلبه الشريف وقت نزولها ، فيأمر كتبة الوحى بكتابتها بعد تلاوتها عليهم ، والذين كانوا يتبعونه مثل ظله ، ولم يجد المسلمون خزانة تناسب حفظ كتاب الله إلا صدورهم ، حتى كان يحفظه بكامله بعض من صحابته الأجلاء رضى الله عنهم ، ومنهم من كان يحفظ الكثير منه ، ولم يكن من صحابى إلا ويحفظ شيئاً من القرآن.

وبعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، بحوالى شهرين وقعت حرب الردة التى استشهد فيها كثير من حفظة القرآن وخاصة فى موقعة اليمامة أشار الفاروق عمر رضى الله عنه على خليفة رسول الله الصديق رضى الله عنه أن يجمع القرآن من سعف النخيل وجلود الإبل والغزال والأحجار الدقيقة البيضاء التى كانت فى حوذة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ومن صدور الحفظة خشية على ضياعه ، فرفض الصديق رضى الله عنه أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ،ولكن الفاروق رضى الله عنه ظل يكرر الأمر عليه ويُلح حتى استشار زيد بن ثابت رضى الله عنه وهو أحد كتبة الوحى فاستحسن الأمر ، فطلب منه أن يجمع القرآن ، فجمع حفاظه وأخرج إليهم المحفوظات التى كانت بحوذة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها التى كتبت على عهد رسول الله ﷺ ، وأمرهم بتدوينه ونشره بين الناس ، فقاموا بذلك على خير وجه.

---

(١) سورة الحجر : ٩

ثم مات أبو بكر بعد أن مكث فى الخلافة حوالى سنتين وقام بالأمر بعده عمر رضى الله عنهما ، ولبث يدبر شئون الدولة نحو إحدى عشر سنة ، فتح فى خلالها سوريا والعراق وبلاد فارس ومصر وجزءاً من شمال أفريقيا .

وانتشرت المصاحف المكتوبة على عهده وأكثر الناس من حفظ القرآن. فلما استشهد رضى الله عنه وأسندت الخلافة لعثمان بن عفان رضى الله عنه، وكان للمسلمين إذ ذاك إمبراطورية مترامية الأطراف ، ودخل فى الإسلام ملايين من الناس ، واحتاج المسلمون إلى المصاحف فكانوا يكتبونها بايديهم، ولاتخفى على أحد أخطاء النسخ ، فإن الناسخ مهما كان حريصاً على تحرى الأصل تبدر منه أخطاء لايفطن إليها ، ولاسيما فى عصر لم تضبط فيه قواعد الكتابة، فحدث فى قراءات الناس خبط ، ورفع الأمر إلى أمير المؤمنين ، فأمر القراء تحت رئاسة زيد بن ثابت ـ وهو الذى كان قد عهد إليه ابو بكر من قبل بجمع القرآن فى مصحف ـ بكتابة أربعة مصاحف ونشرها فى الأقطار الإسلامية، وأقر باتخاذها مرجعاً للضبط وإحراق ما عداها.

وكان لهذه الدقة الفائقة والعناية والرعاية المتناهية التى شمل المسلمون بها كتاب الله عبر العصور ما جعل الكثيرين من علماء الغرب فى عصرنا أن أشادوا على حفظ كتاب المسلمين من التبديل والتحريف عبر العصور سواء منهم من أسلم أو من بقى على دينه ، ونذكر على سبيل المثال الطبيب الفرنسى الدكتور موريس بوكاى(*) الذى شغله البحث عن حقيقة الأديان السماوية ، وأى كتاب منهم مازال محتفظاً بتنزيله ، ولم يتغير منه شيئاً وبعد رحلة بحث طويلة استمرت حوالى ربع قرن من الزمان تعلم خلالها عدة لغات وهى التى دونت بها الكتب السماوية ، مثل العبرية والأرامية والسومارية واليونانية والعربية، وفى نهاية المطاف فقد اقتنع بأن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى حفظ تنزيله،

(*) انظر كتاب : (القرآن والإنجيل والتوراة والعلم د. موريس بوكاى)

ولم يتغير منه حرف واحد عبر القرون ، كما وجد فيه ما يتفق مع معطيات العلم الحديث ، فجاء إلى الأزهر الشريف وأعلن إسلامه ، وصار داعية إسلامى فى قومه ، فى فرنسا.

ولم يقف المسلمون إزاء القرآن الكريم عند الاهتمام والعناية بتدوينه وضبط ألفاظه ونسخه ونشره فى الأمصار وحسب ، بل إمتد الأمر أيضاً إلى استخراج العلوم التى تنبع من القرآن والتى أخذت تتسع وتزداد تبلوراً وإيضاحاً عبر الزمن، فاعتنى بعض العلماء بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه التى قسموها أنصافاً وأرباعاً وعدد سجداته إلى غير ذلك من الآيات المتماثلة وحصر الكلمات المتشابهة ، من غير تعرض لمعانيه ، ولاتدبر لما أودع فيه وأولئك هم الذين سموا بالقراء.

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها ، وجميع ما يتعلق بالإعراب والنحو وقواعد اللغة ، حتى أن بعضهم أعرب مشكله ، وبعضهم أعربه كله ، كما اعتنى المفسرون بألفاظه وماتحمل من معان ، وأعمل كل منهم فكره ، وقال بما اقتضاه نظره ، وماتوصل إليه من معان . واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية ، فاستنبطوا منه ، وسموا هذا العلم أصول الدين . وأحكمت طائفة النظر وعملت الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام ، وسموا هذا بعلم الفقه . وتكلمت أيضاً طائفة فى التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهى والنسخ ، إلى غير ذلك من الأقيسة والاستقراء ، وسموا هذا بعلم أصول الفقه ، كما ركزت طائفة على دراسة ما فيه من قصص القرون السابقة ، والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا وقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص .

كما تنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ ، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والميعاد والحشر والحساب والعقاب والجنة والنار ، ونظر أخرون إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الرائعة فى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك وأقاموا علم المواقيت . كما أخذ قوم مما فى آيات المواريث من ذكر السهام ، واستنبطوا منها ذكر النصف والربع والسدس والثمن حساب الفرائض وأقاموا علمها.

كما نظر الكتاب والشعراء عبر العصور إلى ما فيه من جزالة اللفظ ، وبديع النظم وحسن السياق ،والإطناب والإيجاز ، وغير ذلك ، واستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع ، وقد كان للعرب فى بلاغة القرآن الإعجاز ، فقد نزل القرآن على نبى أمى فى قوم أميين لم يكن لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم وكانت فنون القول التى يتناولونها لا تجاوز ضروباً من الصفات والمفاخرة بالأنساب والقبلية والعصبية وفنون الحماسة وشدة البأس وقوة الشكيمة والعاطفة أيضاً ، فلما نزل القرآن بمعانيه الرائعة التى شملت شتى فنون الحياة ومختلف المعانى التى يهيج بعضها النظر ويشحذ بعضها الفكر ويبعث بعضها على الاستقصاء، ويأخذ بعضها إلى اليقين ، ولم يكن لهم عهد بذلك من قبل فى نظم اللغة وإعجاز البيان، فآمن منهم من آمن ، ومن ظل على الشرك لم يستطع أن ينكر حلاوة القرآن وطلاوته وإعجازه ، فقد كان للكتاب المنزل بدعوة للناس كافة أن يتنزل بإحدى اللغات الحية وأن يكون معجزاً للقوم الذى نزل فيهم والذى منهم وبهم سوف تنطلق الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[1]، ولقد بين القرآن الكريم ورسول الله ﷺ فى كثير من الآيات وفى أقوال النبى أن دعوة الإسلام هى دعوة للناس كافة وليس للعرب وحدهم ، وقد جاء الخطاب فى كثير من أى الذكر الحكيم : يا أيها الناس ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ**

(١) سورة إبراهيم : ٤

إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لا إِلَهَ إلا هُو يُحْيِي ويُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1]، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ومَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ومَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[2]، ونكتفى فى هذا الموضع أن نذكر أن خطبة حجة الوداع التى جمع فيها رسول الله ﷺ الإسلام كله فى خطابه الموجه إلى الناس جميعاً ، ولم يكن موجهاً إلى العرب وحدهم أو حتى يخص المؤمنين دون غيرهم ، إنما كان نداؤه : أيها الناس.

وخلاصة ما نرمى إليه فى هذا أن المسلمين قد أولوا إهتماماً عظيماً للحفاظ على القرآن الكريم وحفظه والعناية به والبحث فى إعجازه البيانى والبلاغى ، واستخرجوا من بيانه واعجازه وأقاموا عليها علوماً شتى ، وقصروا فى البحث عن الإعجاز الدعوى للدعوة الإسلامية وعلاميتها ، أو على أقل تقدير لم يعطوها حقها من الاهتمام الواجب ، والأكثر من ذلك أن المسلمين العرب قد ظلموا أنفسهم وظلموا دين الله حينما اعتبروه دين العرب وحبسوه فى اللغة العربية والتقاليد العربية والعادات والهيئة والزى العربى ، ومازالت هذه النظرة حتى يومنا هذا ، وبرغم ذلك كله فقد انتشر الإسلام فى شتى ربوع المعمورة حتى صار كثير من المسلمين من مختلف الجنسيات وغير الناطقين بالعربية يعرفون حقيقة الإسلام ويتمسكون بتعاليمه أكثر من الذين نصبوا من أنفسهم دعاة وهداة من المسلمين العرب ، وما علينا فيما يلى إلا أن نعرض للإعجاز الدعوى للإسلام وعالميته ، والذى لايمكن حصره فى موضع من كتاب ، وسوف نذكر ماشاء الله لنا ،وربما يشاء لغيرنا الأكثر والكثير.

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٨ (٢) سورة يونس : ١٠٨

أولاً : بساطة دعوة الإسلام :

برغم أن القرآن الكريم قد تنزل على قلب رسول الله ﷺ ونطق به لسانه الشريف باللغة العربية ، لغته ولغة قومه ، إلا أن دعوة الإسلام قد تعدت الألسن واللغات وجاءت بسيطة للغاية ويمكن إجابتها بأى لغة والتمسك بتعاليمه والعمل بها ، فدعوة الإسلام كلها قائمة على أمرين لاثالث لهما وهما :

١ ـ التوحيد ٢ ـ العمل الصالح .

وجوهر هذين الآمرين هو الإخلاص لرب العالمين : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾[1] ، وإذا كانت الصلاة هى أعلا دلائل التوحيد فى الإسلام ولاتقام إلا باللغة العربية ، فقد يسرها رسول الله ﷺ إلى أبعد الحدود ، حتى أن الذى أسلم ، ولايعرف من العربية غير التكبير ، فليرفع يديه ويكبر وراء الإمام ويفعل وراءه مثلما يفعل ، حتى يحفظ فاتحة الكتاب والتى تكفى للمبتدئ أو الذى لايحفظ شيئاً من القرآن وليس بجواره مسجد أو إمام يصلى وراءه أن يصلى بها فرائضه، ورب مصل يصلى بفاتحة الكتاب التى لايحفظ غيرها وأخلص فى صلاته ووقوفه بين يدى الله وركوعه وسجوده خير ممن يتظاهر بمظهر التمسك بالسنة ويصلى بطوال السور وصلاته رئاء وليس فيها إخلاص لرب العالمين.

ثم كان الأمر الثانى من دعوة الإسلام هو العمل الصالح ، وقد جاءت الآية بأعلى الأعمال الصالحة وهى الزكاة ، ولم يذكر غيرها ، فالزكاة هى أعلى الأعمال الصحالة ، ومن يفعل الأعلى فهو أمر سهل عليه أن يأتى ما هو أدنى، وقد جاءت الزكاة مرادفة وملازمة للصلاة فى أغلب الآيات التى وردت فى القرآن وجاء بها ذكر الصلاة ،ولاتوحيد بدون إخلاص ، ولاعمل صالح بدون

---

(١) سورة البينة : ٥

(٢) أنظر كتابنا : الصلاة بين السنة والتبديل ، ـ الناشر : المكتب المصرى الحديث .

إخلاص لرب العالمين ، ولاقيمة للتوحيد بغير العمل الصالح وليس للإخلاص لغة يقام بها ،وليس مقصوراً على العربية الفصحى ، إنما هو أمر ميسر لكل لسان وكل جنس ولون وكل بيئة وفى أى مكان.

ثانياً : الإسلام دعوة للناس كافة :

فقد بُعث رسول الله للناس كافة لتقويم إعوجاج الإنسان وإعادته على استقامته فى فطرته الأولى التى فطر الله الناس عليها ، وكان لابد من تقويم الإعوجاج المشترك بين الناس ، وقد بينا من قبل فى منهج الفطرة أن هذا الإعوجاج الذى يشمل الإنسان على اختلاف الأجناس والألوان واللغات يتمثل فى الأسئلة الفطرية التى يشترك فيها كل ابن آدم ، ولا يرتاح ولا يهدأ له بال ولا يجد معنى لحياته إلا إذا وجد لها إجابات مقنعة عليها ، والحقيقة أننا لم نجد تعبيراً عن دعوة الإسلام فى شموليته وعموميته وعالميته خيراً من كلمة جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه لملك الحبشة فى هجرة المسلمين الأولى إلى بلاد الحبشة فراراً من اضطهاد قومهم من الكفار فى مكة فى عهد الدعوة الإسلامية ، حينما سألهم النجاشي عن حال العرب ودعوة الإسلام ، فجاء على لسان جعفر رضى الله عنه :

« كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولاً منا نعرف صدقه وأمانته وعفافه ونسبه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولانشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقنا وأمنا به فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا

إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ،وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا وحالوا بيننا جئنا إلى دياركم».

وهكذا قد أجمل جعفر رضى الله عنه دعوة الإسلام كلها فى مقالته الشهيرة إلى ملك الحبشة وكما نرى ويرى كل ذى عقل أن تلك التعاليم التى ذكرها يمكن اتباعها والالتزام بها بأى لغة ، بل هى فى مجملها لاتحتاج للغة تقام بها، كما أنه يمكن لأى إنسان أو مجتمع أن يتبعها والالتزام بها مهما كان الجنس أو اللون أو البيئة ،وليس بذى شرط أن يكون بلسان عربى فصيح ، فالإسلام دعوة صالحة وسهلة وميسرة للناس كافة لتقويم إعوجاج الإنسان ومنهج حياتى شامل للعودة بالإنسان إلى فطرته الأولى التى فطره الله عليها حتى يقوم بالدور الذى خلقه الله ليقوم به ويحقق العلة فى خلقه ، فيكون خليفة فى أرض الله كما أراد له الخالق سبحانه ، والفطرة كما أجمع العلماء عبر العصور هى :

سلامة الطوية ونقاء السريرة ، أى لاعداوة ولاكراهية ولابغضاء ،ولاحقد ، ولاحسد ولاطمع ولاجشع ، إنما الرضا والقناعة والرحمة والتسامح والبهجة والسرور والبراءة كلها ، براءة الفطرة.

ثالثاً :الإسلام وعلاميته منذ بزوغ فجره :

وأثبت الإسلام عالميته منذ بزوغ فجره وإشراق أنواره فى جزيرة العرب أنه دين للناس كافة وفيه صلاح للإنسان مهما اختلف جنسه أولونه أو لسانه ،وأن رسول الإسلام قد أرسل من لدن حكيم حميد للناس كافة ، فقد أمن به كل من بلال الحبشى من قارة إفريقيا وسلمان الفارسى من قارة آسيا ، وصهيب الرومى من الروم إلى أوروبا ، وهى القارات الثلاث التى كانت معروفة فى هذا الوقت، وبالطبع تبعهم الكثيرون ، إلا أن هؤلاء الثلاثة كانوا من السابقين الأولين ، الذين اشتهروا فى التاريخ الإسلامى من جنسيات مختلفة غير العرب وبألسن غير عربية، وكان ثلاثتهم من أصحاب النبى ﷺ المقربين رضى الله عنهم وقد رفعهم

النبى صلوات الله وسلامه عليه إلى أعلى درجات القرب منه لإخلاصهم لدين الله ورسوله ، فجعلهم من أهل بيته ، كما جاء فى الأحاديث الشريفة : « سلمان منا أهل البيت» زكذلك جاء ذكر بلال وصهيب رضى الله عنهم.

ولم يكن صلوات الله وسلامه عليه يفرق بين عربى وغير عربى ، إنما التفاضل بين المسلمين بتقوى الله والتى لايعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ويُعلم بها رسوله ﷺ وقد أعلن هذا فى خطبة حجة الوداع : « لافضل لعربى على عجمى ، ولافضل لعجمى على عربى ، ولافضل لأبيض على أسود ، ولافضل لأسود على أبيض إلا بالتقوى».

وفى هذه الخطبة المباركة والتى جمع فيها صلوات الله وسلامه عليه تعاليم الإسلام وخاطب فيها الناس جميعاً بقوله : أيها الناس . وقد أعلن مبدأ الأخوة الإنسانية :

« ألا أيها الناس ، إن أباكم واحد ، ألا كلكم لآدم وآدم من تراب».

« أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا».

فليس الإسلام دين العرب وحدهم ، ولم يكن رسول الإسلام نبى العرب وحدهم ، إنما قد بُعث للناس كافة بشيراً ونذيراً بدين للإنسانية جمعاء ، وما كان صلوات الله وسلامه عليه ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1] وما كان يفعل إلا أن يبلغ الناس ما أُنزل إليه من ربه ويبين لهم أمر دينهم:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] ، فقد أخبر القرآن الكريم بأخوة بنى آدم جميعاً وأعلن مبدأ المساواة بين الناس جميعاً كما هو الحال فى الأسرة الواحدة بين أشقاء عن أم واحدة وأب واحد :

---

(١) سورة النجم :٤ (٢) سورة النحل : ٤٤

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] ، ولكى تسود المساواة بين بنى الإنسان جميعاً فى حقوق الأخوة الإنسانية بين الناس جميعاً لابد أن يكون العرف بينهم وهو مصدر القوانين أن لاتميز لإنسان على أخر إلا بتقوى الله ، والتى لايعلمها إلاهو سبحانه وتعالى ، وهذا ما فهمناه من كلمة تعارف التى جاءت مسبوقة بحرف العلة ، أى ليكون العرف بينكم وهو مصدر القوانين ، وقد جعل الله للعرف سُنة واجبة بنص القرآن ، وهذا ما سوف نعرض له فيما بعد ، مع شديد المعذرة للنحاة وأهل البلاغة .

وقد كان المسلمون فى عصر النبوة والرسالة ، ومنهم العرب أهل العربية والبلاغة يعرفون العلة فى القرآن فيتدبرون آياته ويعملون بها ويتبعونه ، ولم يتخذوه كتاباً للمغنى والطرب : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[2] ، ﴿ وهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[3] ، ﴿ ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورَحْمَةً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[4]، ومن الكتاب ومن رسول الله ﷺ وما بلغ عن ربه وبيَّن للناس عرف المسلمون حقوق الإنسان وأخوة الإنسانية والتزموا بها ، حتى أن القرآن الكريم قد تنزل بالثناء على عباد الله المؤمنين لإطعامهم الكفار : ﴿ ويُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً ويَتِيماً وأَسِيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً ولا شُكُوراً ﴾[5] .

فقد عرف المسلمون حقوق الإنسان والأخوة فى الإنسانية والرحمة بكل ما خلق الله قبل أن يتشدق بها الغرب بألف وأربعمائه سنة ، بينما كانت أوروبا تتخبط فى دياجير الظلام والجهالة والوحشية والهمجية فى عصورها الوسطى،

---

(١) سورة الحجرات : ١٣
(٢) سورة ص : ٢٩
(٣) سورة الأنعام : ١٥٥
(٤) سورة النحل : ٨٩
(٥) سورة الإنسان ٨:٩

فمن أحب الخالق أحب خلقه ، وقد كانت هذه أخلاقيات وسلوكياتهم فى عصر النبوة فى القرن السابع الميلادى ، فأين كانت أوروبا فى هذا الوقت ؟! وأين هم المسلمون فى عصرنا أو بالتحديد أولئك الذين نصبوا من أنفسهم أوصياء على دين الله ودعاة وهداة وأباحوا دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم وديارهم، أين هم من هذه الأخلاقيات الرفيعة لأتباع رسول الرحمة ﷺ والذى وصفه المولى عز وجل قائلاً: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[1] ، ولقد أجمل رسالته ﷺ فى قوله « **إنما بعُثت لأتمم مكارم الأخلاق** »[2].

وقبل أن نغادر هذا الموضع يحضرنى قصة الفارسى [3] ، الذى هجر أهله ووطنه بحثاً عن الدين الحق ، وكان أبن أحد الأمراء بإمبراطورية فارس ، وذهب إلى الشام فأخبره أحد الرهبان بظهور نبى آخر الزمان بجزيرة العرب ، وفى الطريق إلى المدينة المنورة تم أسره وبيع فى سوق الرقيق ، وبرغم ذلك فقد أصر على الوصول إلى المدينة ، وحينما التقى بالنبى ﷺ وتأكد من خاتم النبوة فى الظهر بين كتفيه أعلن إسلامه وأخلص لله ورسوله وصار من صحابته المقربين ، وبعد فتح بلاد فارس فى عصر الفاروق عمر رضى الله عنه ، ولاه أمير المؤمنين على أحد الأمصار ببلاد فارس ، فكان مثلاً للولى الزاهد المنكر لذاته لأعدل حاكم عرفته البشرية ، فلم يتخذ سلمان رضى الله عنه قصراً للحكم أو حتى بيتاً ، إنما قد أتخذ بيتاً متنقلاً مرتحلاً عبارة عن جمل فوقه هودج يرتحل به بين رعيته ويحط فى كل حى من أحياء ولايته عدة أيام يطلع فيها على شئون رعيته ويحل مشاكلهم ويقيم العدل بينهم ثم يرتحل إلى غيره ، فقد كان عامل الفاروق فاروقاً ، فلم ينشر عمر العدل وحده فى دولة الإسلام ، إنما قد نشره بعماله الذين أخلصوا لدين الله واقتضوا بالفاروق رضى الله عنهم .

---

(١) سورة القلم : ٤ (٢) متفق عليـــه

(٣) انظر كتاب الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى.

وهكذا كان الإسلام منذ بزوغ فجره ديناً للناس كافة ، وليس دين العرب وحدهم ، وكم من مؤمن غير عربى قد عرف حقيقة الإسلام وأخلص لله ودينه واتبع رسوله وأخلص للمسلمين أكثر من الكثيرين من المسلمين العرب وخاصة فى عصرنا الذى حبس فيه المسلمون العرب الإسلام فى اللغة العربية والزى العربى والهيئة والصورة العربية ، ولم يكن الإمام العادل هو عمر وحده، إنما كان عادلاً بعماله الذين اختارهم فكانوا على شاكلته وكانوا عوناً له وولاة عدل للحاكم العادل ، ولايمكن لحاكم أن يقيم العدل بين رعيته إلا إذا كان أهلاً للعدل ، ولايمكن له ولايتأتى إلا إذا كان عماله على شاكلته ، رضى الله عن سلمان الذى لم يعطه التاريخ حقه.

رابعاً : سُنةُ العـــرف :

ومن الأدب الربانى فى الإسلام أن جعل احترام الآخر ، سواء كان هذا الآخر فرداً أو جماعة أو المجتمع الذى يعيش فيه المسلم ، مهما كان معتقده سُنة واجبه ، أى تاركها عليه وزر ، وفاعلها ليس له أجر ، كما جاء بنص القرآن الكريم ﴿ **خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ** ﴾[1] ، والعرف هو كل ما تعارف عليه الناس فى أى مجتمع أو أى دولة وهو سيد قوانينها ومصدرها ، كما ذكرنا من قبل.

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام ، أن الإنسان فى أى مجتمع أو دولة فى العالم ، وفى تاريخه لم يتعارف على أمر يخالف شرع الله ، وحتى قبل بعثة النبى ﷺ ، وعلى سبيل المثال ، فلم نسمع أن الإنسان فى أى مكان عبر تاريخه قد تعارف على أن الكذب فضيلة أو الغش أو السرقة أو قول الزور أو الرشوة ، وغيره من الأخلاقيات المذمومة أنها من الفضائل ، وحتى الدول التى أباحت أموراً قد حرمها الشرع مثل الزنا أو الخمر وغيره قد أباحته من باب الحريات الشخصية، وليس عرفاً لديهم.

(١) سورة الأعراف : ١٩٩.

وباتباع هذه السُنة الشريفة ذهب المسلمون عبر العصور إلى بلاد الملحدين والكفار وعاشوا بينهم واتبعوا عرفهم واحترموا قوانينهم وقاموا معهم تحية لأعلامهم أو لسلامهم الوطنى كما يفعلون ، وعاملوهم بأخلاق الإسلام الكريمة وتأسوا بالرسول ﷺ ، فاحترمهم كل من عاشرهم وأحبهم ، ومنهم أيضاً من أراد الله له أن يهتدى فكانوا سبباً فى هداه ، دون أن يقصدوا ، ولم يكونوا دعاة ، إنما كانوا مسلمين بسطاء من أهل الفطرة ، عرفوا دينهم حق المعرفة وما يدعو إليه واتبعوا ما جاء بالكتاب وما أمر به نبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه(*).

ووضع الإسلام قواعد سامية للتعامل مع الآخر واحترام ذاته وحقوقه وخصوصياته فى منظومة سامية لم تعرف البشرية لها مثيل ، حتى أن المولى عز وجل قد نهى المؤمنين عن سب المشركين أو آلهتهم حتى لايسبوا الله ، ﴿ **ولا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(١) ، وما كان رسول الله ﷺ لعاناً ولا صخاباً ولا فحاشاً ، ونهى المسلمين عن السباب نهائياً ، وحتى أن الشيطان الذى هو سبب المصائب كلها قد نهى رسول الله ﷺ عن لعنه ، برغم من أن الله قد لعنه ، فالله الذي خلقه ، والله يفعل فى خلقه ما يشاء ، وما نحن إلا من خلقه أيضاً ، وعلينا أن نلتزم بحدود العبودية ، وهى طاعة المعبود فى كل أمر ، واجتناب كل ما نهى عنه الله ورسوله ﷺ: « **لاتسبوا الشيطان واستعيذوا بالله منه** » (٢) عملاً بقول الله سبحانه : ﴿ **وإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾(٣) ، فنحن لانعرف ، ربما يحضر الشيطان على اللعنة والسباب ، فما نحن إلا عبيد ، وعلينا أن نلتزم بحدود العبودية.

فقد جاء الإسلام بمنظومة أخلاقية رفيعة للتعامل مع الآخر ، حتى وإن كان الآخر هو الشيطان أو الحاكم الجائر ، فقد نهى رسول الله ﷺ عن سبه

(١) سورة الأنعام : ١٠٨
(٢) الجامع الصغير للإمام السيوطى.
(٣) سورة الأعراف : ٢٠٠
(*) انظر كتاب رجال ونساء أسلموا الناشر المكتب المصرى الحديث .

كما جاء فى الحديث الشريف « **لاتسبوا السلطان وادعوا له بالهداية يقربه الله منكم**»[1]، أما التصدى لجور الحكام وتقويمه فليس هذا موضعه ، وأما سب الآخر أخا الإسلام فهو فسوق كما جاء فى الحديث المتفق عليه : « **سباب المسلم فسوق وقتله كفر**»[1] ، فالإسلام منظومة آخلاقية رفيعة وعمل صالح فى ظلال التوحيد ليس من السهل الإرتقاء إليهما ، ورحم الله الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت الذى فتح لنا الطريق فى التعرف على سنة العُرف فى إحدى فتاويه بمجلة الأزهر باب فتاوى لها تاريخ.

خامساً : السُنة المطهرة :

وكما هو معلوم أن السُنة المطهرة هى المصدر الثانى للتشريع والهداية ، والحقيقة أننا لايمكن فصل السنة عن الكتاب فى الهداية ، إنما الهداية كلها فى اتباع رسول الله ﷺ الذى بين ما جاء بالكتاب وطريق التطبيق ، فمعنى السنة أنها الطريق أو الطريقة أوالوسيلة والحقيقة أن رسول الله ﷺ لم يسنن أمراً لايستطيع أن يفعله غير العرب ، إنما جاءت السنة الصحيحة كلها بأمور فى متناول أى مسلم أن يقيمها ويتبعها مهما كان لغته أو جنسه أو لونه ، وقد بينا من قبل فى سنة العرف أن الإسلام احترم أعراف المجتمعات الإنسانية برمتها، وحث المسلمين على احترامها وجعلها من السنن الواجبة التى نص عليها الكتاب.

فقد دعا الإسلام الناس كافة إلى القسط المشترك بين الإنسانية وهو الإخلاق والمعاملات فى فلك التوحيد التى نص عليها الكتاب وبينها رحمة الله للعالمين ﷺ ، وإذا أردنا أن نجمل سنة رسول الله ﷺ التى لايختلف عليها إثنان من المسلمين فى العالم : فهى الصدق والأمانة ، والنظافة والطهارة ،والإخلاص والوفاء ، والشجاعة بل الإقدام والنجدة والشهامة والمروءة والتضحية والفداء، والحياء والرضا والقناعة ، والحلم والكرم والجود والإيثار ،والرأفة والشفقة

(١) الجامع الصغير.

والعطف والحنان ، والرحمة ، ثم قيام ماتيسر من الليل بالنوافل وقراءة القرآن لمن تيسر له وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وهى أيضاً العفو والتسامح ، هى كل الأخلاق الكريمة.

وهذه جميعها أخلاقيات وسلوكيات يمكن لأى مسلم أن يقيمها فى أى مكان فى العالم مهما كان جنسه أو لونه أو لغته ، وأما إذا قال قائل أنك أجملت من سنة المصطفى ﷺ قيام ما يتيسر من الليل بالنوافل وقراءة القرآن وأن هذا لا يتأتى لغير الناطقين بالعربية ، فإنا نقول أن مناط الدين كله الإخلاص ، وهو لايطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى وهو القائل :﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلا مَا آتَاهَا﴾[1] .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قال فى الحديث القدسى الذى رواه المصطفى ﷺ عن رب العزة ! ما تقرب إلى عبد بشئ أحب إلى مما افترضته عليه ومازال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فليس المقصود بالنوافل هى نافلة الصلاة وحسب ، فقد جعل الله لكل فريضة فى الإسلام نافلتها ، ففريضة الشهادتين مرة واحدة فى العمر كله ، ونافلتها ذكر الله وقراءة القرآن وهو الذكر ايضاً ورأس الذكر كما وصفه الحق سبحانه وتعالى فى كثير من آياته :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصِيلاً ﴾[2] ، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[3] ،﴿ وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4] ، فالذى لايحفظ القرآن من المؤمنين ويريد أن يتقرب إلى الله بنافلة الشهادتين ولايجيد قراءة القرآن وربما أيضاً لايجيد القراءة والكتابة ، وربما لايكون من العرب ، فهو يردد كلمات بسيطة فى نفسه يتذكر بها الله ويذكره فتفيض عليه بالأنوار بقدر إخلاصه الذى لايعلمه ،ولايقدره غير الله سبحانه .

---

(١) سورة الطلاق : ٧
(٢) سورة الأحزاب : ٤١:٤٢
(٣) سورة يـــس : ١١
(٤) سورة النحـــل : ٤٤

وقد جعل الله سبحانه الفريضة سهلة ومحدودة وميسرة لأبعد الحدود بما يسره الله ورسوله ، وبحدود هذا اليسر لايجوز لأحد أن يتعداه وييسر كما يتراءى له ، إنما الوقوف عندما يسر الله ورسوله ﷺ ، ففرائض الصلاة خمساً فى اليوم بعدد الركعات المحدودة فى كل فريضة كما بينتها السنة المطهرة،وأما النافلة،وهو كل مازاد عن الفريضة ، فالطريق مفتوحاً لمن أراد تطوعاً . وكذلك فريضة الزكاة التى فرضت بنص القرآن وقد بينها وفصلتها السنة المطهرة ، ونافلتها الصدقات التى يتقرب بها العبد إلى الله وطريقها مفتوحا ، وغير محدد وكذلك الصيام الذى فريضته شهر رمضان ، ونافلته صيام التطوع الذى هو مفتوحاً طوال العام لمن أراد تطوعاً ، وكما بينت السنة المطهرة أيضاً ، فكلها نوافل يتقرب بها المؤمن إلى الله ، كل بقدر استطاعته وما يقدر على أدائه من تلك النوافل ، فمن المؤمنين من يقوم بواحدة منها ومنهم يقوم ببعضها ، ومنهم من يقوم بها كلها ، وحتى أن الحج الذى هو فريضة تكميلية للدين على المستطيع فقط ، فإن نافلته العمرة ، والحج بعد الفريضة التى هى فى العمر مرة واحدة ، فنوافل الدين متعددة ومتنوعة ، يستطيع كل مسلم أن يأتى منها ما يستطيع ، مهما كانت جنسيته أو لونه أو لغته ، وكل عمل يقوم به المؤمن لابد أن يخالطه الإخلاص ، وهو لايعلمه إلا الله ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**﴾[1] ، ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي**﴾[2] ، ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾[3]، ويقول النبى ﷺ « أخلص دينك يكفك العمل القليل »[4].

إذن فتقييم العمل مرتبط بالإخلاص الذى لايعلمه إلا الله سبحانه جل شأنه، وبرغم أن القرآن قد نزل باللغة العربية إلا أن الحق تعالى لم يجعل للعرب تميزاً بذلك فى الإسلام ، فقد جعل التقييم بالأعمال ولم تأت آية واحدة فى الكتاب

(١) سورة الزمر : ١١ (٢) سورة الزمر : ١٤
(٣) سورة الزمر : ٢ (٤) رواه مسلم.

تشير بأن القول له أجر إلا إذا صاحبه العمل ، وعلى سبيل المثال فيقول عز من قائل :﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُم تُوعَدُونَ﴾[1] ، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِّمِنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وعَمِلَ صَالِحًا وقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] .

فالإسلام توحيد واستقامة ، والاستقامة عمل ، وتلك أمور ميسورة لأى إنسان مهما كان لونه أو جنسه أو لغته ، فالإسلام دين للناس كافة الذى بُعث به خاتم النبيين ﷺ ، ولم يُبعث للعرب وحدهم ، وليس الإسلام دين العرب وحدهم ، حتى وإن كان القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب ، فلم يجعل الله سبحانه فى ذلك تميزاً للعرب ، وليس فيه استثناءات ، حتى أن رسول الله ﷺ كان يقول لابنته فاطمة رضى الله عنها : إعمل فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً . فكل سوف يحاسب أمام الله بما عمل ، فليس الإسلام دين طقوس وعبادات وحسب ، إنما دين التوحيد والعمل ، وليس للتوحيد وقت محدد ، إنما حركة حياة المؤمن كلها تدور فى فلك التوحيد وفق المنهاج الحياتى الذى بينه رسول الله ﷺ بما جاء به الكتاب الكريم.

وإنه ليحضرنى قول ماثور للفاروق عمر رضى الله عنه عن العرب إذ يقول : كنا قوم جاهلية فأعزنا الله بالإسلام . فقد أعز الله العرب بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وقد كانوا من قبله فى ضلال الجاهلية وظلماتها ، وكانوا يعيشون فى قبائل متناحرة ، يسيئون الجوار ويأكل قويهم ضعيفهم ، ويعبدون الأصنام والأوثان ، كما تقدم فى قول جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة والتى أجمل فيها دعوة الإسلام، فتحولوا فى سنوات قليلة بالمبعوث رحمة للعالمين إلى خير أمة أخرجت للناس ، وأعزهم الله بالإسلا م ، وأمرهم وكلفهم بنشر دين الله ، وليس فى هذا

---

(١) سورة فصلت ٣١ (٢) سورة فصلت : ٣٣.

التكليف تفضيل أو إعفاء من تكاليف الدين أوبعضها ، إنما هو تكليف قد يكون عليه أجر فى الدنيا ، وربما يكون الأجر فى الدنيا والآخرة ، وربما يكون الأجر فى الآخرة وحدها ، فكل يحاسب على عمله بقدر ما علم ، وبقدر إخلاصه الذى لايعلمه إلا الله سبحانه وتعالى حتى وإن كان حاملاً للقرآن ، وليس لأحد استثنى ، وفى هذا يقول المصطفى ﷺ : « **إن الذبانية لأسرع إلى جهنم بالفساق من حملة القرآن من عبدة الأوثان يشكون إلى ربهم فيقول : ليس من علم كمن لايعلم**»

ومعذرة لأهل العنعنة إن كنا لانذكر عنعنة هذا الحديث ، أو نذكر سنده ، فكم عنعن الشيطان ، حتى صارت الأحاديث المتداولة بين الناس ومن فوق المنابر وفى كتب العلماء المكذوب منها على رسول الله ﷺ أكثر من الصحيح ، وإنا نتعرف على صحيح حديث رسول الله ﷺ بما تقبله قلوبنا ، أما ما تنفر منه فإنا نرفضه مهما كانت عنعنته ومهما كان سنده ، وفى هذا يقول الصادق المصدوق صلوات الله عليه : « **إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه بعيد منكم فأنا ابعدكم منه**»[1].

ولم يفتح المسلمون الأوائل فى عصر الخلفاء الراشدين المهديين رضى الله عنهم أى بلد من البلدان التى فتحوها ، وفرضوا على أهلها زى معين أو هيئة خاصة ، سواء الذين دخلوا فى الإسلام أو الذين بقوا على دينهم ، إنما كانوا يحترمون عُرف كل مجتمع وعاداته وتقاليده ، ما لم تتعارض مع تعاليم السماء، فلم يُبعث رسول الله ﷺ لكى يتمم محاسن الهيئات والأزياء ، إنما قد بُعث لكى يتمم مكارم الأخلاق ، وسرعان ما كان الناس فى كل بلد يرحبون بدعوة

---

(١) رواه أحمد فى مسنده .

الإسلام ، ويدخلون فى دين الله أفواجاً ، وكثيراً ما كان يعتنق الإسلام أناس غير عرب ، ويُقبلون على تعلم القرآن وحفظه ويتفقهون فى دين الله ، ويتفوقون على المسلمين العرب فى كثير من أمور الدين ، وقد قدم الكثيرون من المسلمين غير العرب خدمات جليلة عبر العصور ، ونبغوا فى علوم الدنيا أيضاً التى هداهم إليها فتوحات القرآن الكريم ، ورفعوا من شأن الإسلام، وحتى يومنا هذا تجد كثيراً من المسلمين غير العرب يعرفون دينهم حق المعرفة ويتمسكون بتعاليمه ولايفرطون فيها ، وعلى سبيل المثال ، ربما تجد أحد المسلمين الفرنسيين قد بدا فى زى قومه ، وارتدى زيهم ـ الريدنجوت ووضع القبعة فوق رأسه ـ وحلق ذقنه ، ويعرف دينه ومتمسك بتعاليمه أكثر من الذين حبسوا الإسلام فى اللغة العربية والهيئة والزى العربى ونصبوا من أنفسهم أوصياء على دين الله ودعاة وهداة ، وهم فى الحقيقة جهلاء بدين الله ، فمثل هذا المسلم الفرنسى قد دخل الإسلام بعد بحث عن الحق ، وعن علم واقتناع بدين الله ، وأمثال أولئك المسلمين العرب الذين أخذوا الدين بالوراثة ولم يتعبوا فى البحث عن الحقيقة وورثوا الإسلام بما دخل عليه من بدع وموضات وخرافات وترهات وجهل عبر العصور.

سادساً : المسؤولية فى الإسلام:

ومن الإعجاز فى دعوة الإسلام ، أنه الدين الوحيد الذى ليس فيه كهانة مصداقاً لقول النبى ﷺ : « **لا كهانة فى الإسلام**» ، فقد جعل الحق سبحانه وتعالى مسؤولية إقامة الدين كله على عاتق الفرد المسلم ، ولا وساطة بين العبد وربه إلا باتباع رسول الله ﷺ ، كما بينا من قبل ، ولايمكن الاتصال بالله وطاعته إلا بطاعة النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وقد يسر الله ورسوله الدين إلى أبعد الحدود ، وحتى جعل الفرد المسلم يمكن أن يتبع تعاليم دينه كلها ويقيم شعائرة فى أى مكان فى العالم حتى وإن عاش فى بلد كافرة ، لاتؤمن بالله ، وبذلك فقد جعل الله سبحانه مسئولية إقامة دين الله مسئولية الفرد المؤمن الذى سوف

يحاسبه يوم القيامة بقدر ما عمل وما علم ، ﴿ كل امْرِيءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[1]، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[2]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَن ولَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن والِدِهِ شَيْئاً إنَّ وعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾[3]، ﴿ أَمْ حَسِبَ الَذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ ومَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ *وخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ ولِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[4]، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَباً وهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلا عَلَيْهَا ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[5].

فسبحان الله الملك الحق المبين الحكم العدل الذى لايعزب عن علمه مثقال حبة من خردل فى السماوات والأرض ، وهو بكل شئ عليم وإليه يرجع الأمر كله وهو القائل : ﴿ فَكَيْفَ إذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ووُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[6].

وأى الكتاب كثيرة التى تتحدث عن مسئولية الفرد المؤمن فى الالتزام بكل تعاليم الدين وإقامة شعائرة كلها وطاعة الله ورسوله ﷺ . والذى يعبر ذاكرتى الآن حديثه الشريف الذى حفظته منذ أن كان عمرى أربعة عشر عاماً، ومنذ هذا السن المبكر ومازال يعبر ذاكرتى فى الغالب كل يوم مرة واحدة على الأقل: «لايكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم».[1].

---

(١) سورة الطور : ٢
(٢) سورة المدثر : ٣٨
(٣) سورة لقمان : ٣٣
(٤) سورة الجاثية : ٢١:٢٢
(٥) سورة الأنعام : ١٦٤
(٦) سورة آل عمران : ٢٥

سابعاً : فريضة الفرائض الغائبـــة :

وقد يظن من يقرأ عنوان هذه الفقرة أننا سوف نتحدث عن الفريضة الغائبة أنه الجهاد المسلح فى سبيل الله ، ولكن الجهاد أنواع وأشكال ، وقد بدأ الجهاد فى الإسلام بجهاد الكلمة والدعوة إلى الله ، والذى بدأه رسول الله ﷺ فى قومه فى مكة طوال ثلاثة عشر عاماً يدعوهم إلى دين الله أكثر مما جاهد فى المدينة بالسيف بعد أن جاءه الإذن من الله بالقتال دفاعاً عن دين الله ومن أجل حمايته وحماية المؤمنين ، والذى لم يستمر أكثر من عشرة أعوام ، هى ما بقى له من العمر ، ثم انتقل إلى جوار ربه ، إذن ففترة جهاده بالكلمة فى قومه ودعوتهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام والأوثان وقد كانت أطول من فترة الجهاد المسلح ، ولولا أن قومه أخرجوه من بلده وأحب البلاد إلى الله وأحب البلاد إليه لما خرج ، ولما ترك الجهاد بالكلمة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

وباختصار فقد قامت دعوته ﷺ على أعلى فريضة فى الإسلام ، ألا وهى فريضة الصدق ، وهى فريضة الفرائض الغائبة ، وقد كان مؤهلاً لذلك صلوات الله وسلامه عليه من قبل أن يتنزل عليه الوحى ،ولولا أنه أشتهر بين قومه بالصادق الأمين ، لما صدقه أحد فى خبر السماء ، وقد قام الإسلام كله على فريضة الصدق والتى لايصلح الإيمان إلا بها ، وما كان صلوات الله وسلامه عليه يبغض شيئاً فى الدنيا أكثر من بغضه للكذب ، وقد فرض الله سبحانه الصدق على عباده المؤمنين ، وقد بين المصطفى ﷺ أن الكاذب غير مؤمن حتى ينضبط لسانه على الصدق وفى ذلك رواية مشهورة والتى سئل فيها رسول الله ﷺ عن المؤمن هل يزنى ؟ فقال بنعم ولما سئل : هل يسرق قال : نعم وهل يشرب الخمر ؟ قال ﷺ : نعم . ولم سئل : هل يكذب ؟ قا ل لا.

---

(١) رواه الترمذى .

وليس معنى هذا أن رسول الله ﷺ قد أجاز للمؤمن أن يسرق ويزنى وغير ذلك مما حرم الله بشرط ألا يكذب ، إنما هو قول من بعثه الله لكى يعلم الناس الكتاب والحكمة ويزكيهم ، فالمؤمن يعلم أن الله مطلع عليه فى كل وقت وفى كل مكان ولا يمكن الكذب عليه ، ويتعامل مع الله فى إخلاص دائم معه ، وهو يتمسك بالصدق الذى أمره رب العزة به وهو يتأسى برسوله الصادق الأمين، فلن يفعل ما حرم الله ، والذى نفهمه من قول الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ، والذى وصف المنافق بأن أول صفاته هى الكذب كما جاء فى الأحاديث الصحيحة ! « أية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان»[1] ، « **أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ! إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر**[2]».

وما كان رسول الله ﷺ ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، وهو تبيان لأيات الكتاب ، فالكذب مرض فى قلوب المنافقين : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾[3].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾[4] ، وقد جمع الحق سبحانه الدين كله فى آية من سورةالبقرة ، ثم فى نهاية الآية أخبر أن الذين يجمعون هذا الدين كله هم الصادقون وهم المتقون وفى بداية الآية نفى أن يكون البر أو الخير فى الصلاة وحسب ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ ولَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ والْمَلائِكَةِ والْكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفِي الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُوْلَئِكَ هُمُ**

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى
(٢) رواه البخارى ومسلم.
(٣) سورة البقرة : ١٠.
(٤) سورة التوبة : ١١٩.

﴿الْمُتَّقُونَ﴾[1]،فالصدق وتقوى الله متلازمان ، وحتى أن الحق سبحانه فى بعض آيات الكتاب استبدل الإيمان بالصدق،واستبدل النفاق والكفر بالكذب :﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[2].

فالذين لايؤمنون بآيات الله هم الكافرون ، أى هم الكاذبون .

وفى سورة الأحزاب يقول سبحانه وتعالى ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾[3].فالكفرعكس الإيمان الذى عبر عنه سبحانه بالصدق الذى هو عكسه أو مضاده الكذب ، إذن فالكاذبون كافرون . وجاء فى سورة الأحزاب أيضاً : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ويُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[4]، إذن فالكافرون والمنافقون هم الكذابون.

فالصدق أعلى فريضة فى الإسلام ، وهو فريضة الفرائض الغائبة فى عصرنا ، ولايفوتنا أن نشير فى هذا المقام أن الإسلام كان عادلاً فى دعوته للناس جميعاً، فالصدق والإخلاص اللذان هما جوهر دعوة الإسلام للناس كافة لايرتبطان بجنس أو لون أو لغة محددة حتى يقوم التوحيد والعمل الصالح ، إنما هما أمور ميسرة لكل من أستجاب لنداء الغيب وشهد بالوحدانية واتباع الرسول ﷺ ، وهذا من إعجاز الإعجاز فى دعوة التوحيد والعمل الصالح للناس كافة.

ثامناً :الطريق إلى الجنة:

لاشك أن كل مسلم يعبد الله يطمع أن يرضى عنه ويدخله جناته ، وإن كانت هناك طائفة من المؤمنين لايعبدون الله خوفاً من ناره أو حباً فى جنته ، ولايقنعون إلا بالنظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة ، وأولئك الذين جاء ذكرهم فى سورة الكهف وأشار إليهم القرآن الكريم فى مواضع أخر وأوصى بهم النبى

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ (٢) سورة النحل : ١٠٥

(٣) سورة الأحزاب : ٨ (٤) سورة الأحزاب : ٢٤

ﷺ وأوصى بهم المؤمنين إذ يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ** ﴾[1] ، وهم طائفة خاصة من المؤمنين ، ليس ها هنا أو فى هذا الكتاب موضع للحديث عنهم ، ونكتفى بهذه الإشارة ، ولنتناول القاعدة العريضة والغالبية العظمى من المؤمنين.

وباختصار شديد فقد بين رسول الله ﷺأن شروط دخول الجنة شرطان أساسيان ، وربما يكون هناك أشراط أخرى ، فهذا مبلغ علمنا وهذا ما أكده القرآن الكريم أيضاً ، والله أعلم.

١ـ التواضع :

إذ يقول ﷺ « **لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر** » ، وما كان رسول الله ﷺ ينطق عن الهوى ، إنما يبين للناس ما جاء فى الكتاب كما أمره ربه ، فقد أخبرت أيات الكتاب أن جهنم مثوى لكل متكبر﴿ **وَيَومَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾[2]، ﴿ **قِيلَ ادْخُلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾[3] ، وانظر وتدبر فى هذه الآية من سورة المائدة ، ومدى التواضع الذى أراده الحق سبحانه وتعالى أن يسود بين المؤمنين :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ** ﴾[4] فقد أراد الله لعباده المؤمنين التواضع بينهم الذى يصل إلى درجة الذل ، وليس الذل فى هذه الآية هو ذل الإنسان للإنسان ، إنما هو ذل الطاعة والعبودية لربِ العالمين ، وفى المقابل فقد أمرنا رسول الله ﷺأن نتكبر على كل متكبر كما جاء فى الحديث الشريف : « إذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم ففى ذلك إذلال لهم وصغار» ، ونكرر المعذرة لأهل العنعنة ، إن

(١) سورة الكهف : ٢٨ (٢) سورة الزمر : ٦٠
(٣) سورة الزمر : ٧٢ (٤) سورة المائدة : ٥٤

كنا لانذكر عنعنة هذا الحديث أو سنده ، فيكفى أنه فى اتفاق مع آيات الكتاب، فمبدأ المثلية قائم فى القرآن ﴿ وإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ (١) ﴿ إن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٢)

٢ـ الرحمـــة :

ومن الشروط التى بينها رسول الله ﷺ لدخول الجنة الرحمة كما جاء فى الحديث الشريف « لايدخل الجنة إلا رحيم»(٣) ، ويقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « أبعد الناس عن الله القلب القاسى»(٤) ، وما ذلك إلا تبياناً لما جاء بالكتاب المبين ، فحينما وصف الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بصفة جامعة شاملة بينهم، وصفهم بالرحمة : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(٥) ، ويقول عز من قائل عن رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ولَوْ كُنتَ فَظاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(٦)، والمؤمنون يتأسون برسولهم الكريم وهو الرحمة كلها ، وينهلوا من منهله صلوات الله وسلامه عليه حتى يردوا حوضه الشريف يوم القيامة ويشربوا منه فى الجنة ، وكأن الرحمة التى وصف الله بها المؤمنين كصفة جامعة شاملة هى أصل الصفات الحميدة كلها.

فهب أنك تعيش فى مجتمع ليس فيه تنافس ـ ولانقول صراعات بين أهله إلاالتواضع والرحمة ، فأى مجتمع يكون هذا المجتمع؟! ولاأقول مجتمع الملائكة، فلم أره ، إنما هو المجتمع الإنسانى فى اكتمال رقيه وتمام نضوجه، إنه مجتمع الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وقد بعث خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه لتقويم إعوجاج الإنسان وإعادته لفطرته التى فطره الله عليها، فلا عداوة ولابغضاء ، ولاكراهية ولاحسد ولاحقد ولاطمع ، وإنما عطف وتعاطف وتأزر وتكاتف وتواضع ورحمة ، وهو المجتمع الذى أقامه رسول الله ﷺ فى يثرب التى تشرفت وتنورت بقدومه إليها.

(١) سورة النحل : ١٢٥ (٢) سورة هود : ٣٨ (٣) الجامع الصغير للإمام السيوطى.
(٤) رواه مسلـــــم (٥) سورة الفتح : ٢٩ (٦) سورة آل عمران : ١٥٩

ولنا أن نتساءل ! هل التواضع والرحمة لايمكن أن يقيمها إلا القوم العرب فى البيئة العربية ، وباللغة الفصحى والبلاغة ، أم هى قيم إنسانية رفيعة وإن تعددت اللغات يمكن لأى قوم إقامتها بينهم فى أى بيئة مهما كان جنسهم أو لونهم أو لغتهم ، ثم أليس هذا من الإعجاز الدعوى للإسلام ورسالته الخالدة لبنى الإنسان كافة على مر الأزمان ،وفى كل مكان؟!

تاسعاً : الدين الإسلامى ومصادره :

ومن الإعجاز فى هذا الدين أنه برغم ما كتب عنه من كتب ومؤلفات ومجلدات عبر العصور ، إلا أن الكتب لم تستطع أن تحتويه كله ، ولن تستطيع، وذلك أن الدين الإسلامى شقين ، شق قد احتوته الكتب ، وهو الشق الشرعى أو الظاهر ، وطالما أنه علم فى كتاب ، أو علوم قد احتوتها كتب ، فهو أمر ميسر لأى دارس أن يدرسه ويستوعبه ويحصل فيه على أعلى الدرجات العلمية ويقوم بتدريسه أيضاً وإن كان ملحداً أو كافراً ،ولكنه لن يستطيع بذلك أن يقف على حقيقة الإسلام ، وذلك أن شق الدين الآخر لايتأتى إلا بالتذوق ، أى بالفعل والممارسة ،ولاتكتمل حقيقة الإسلام إلا باحتواء شقيه ، وشق الذوق والفعل والممارسة لايمكن الإحساس به ومعرفته والوقوف عليه إلا بالإيمان وطاعة الله ورسوله ، ولذلك قال رسول الله ﷺ: « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً».

فبرغم أن القرآن قد نزل باللغة العربية وكتب بها ، ويستطيع كل من يجيد اللغة العربية أن يقرأه ويعربه ، ويقف على ما فيه من البلاغة والحكم والعبر والأمثال وغيره من البيان والبديع ، إلا أنه يظل بحقيقته مغلق بمغاليق لاتنفتح إلا على القلوب التى آمنت بالغيب وانفتحت على الحقيقة الكبرى والتزمت بطاعة الله ورسوله ، وكلما ارتقت وتذوقت طعم الإيمان إنفتحت لها معارف غيبية لايمكن إدراكها بالعقل ، فقد نزل القرآن الكريم على قلب المصطفى ﷺ، ولم يتنزل على عقله ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ*** ﴾

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1] ، وحينما تنزل القرآن الكريم على قلب النبى ﷺ ، أدركه وقدره أصحاب اللسان العربى ، وأصحاب العقول والحكماء منهم وأهل البلاغة ، وأثنوا عليه ،حتى أن منهم من قال إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وأعلاه لمثمر .

فما أروعها من كلمة عقلانية نطق به اللسان العربى عن القرآن ومع ذلك فلم يؤمن صاحبها ولم يتبع الرسول ، ولم ينفتح قلبه على الإيمان بالغيب ويسلك سبيل المؤمنين ، فقد أغلق قلبه عن سلوك القرآن إليه وصدق الحق سبحانه إذ يقول : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾[2] ، ﴿ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[3]، فبرغم أن العرب كأهل الصحراء يتميزون بحدة السمع والبصر والذكاء إلا أن الله سبحانه قد استنكر هذا على الذين أنغلقت قلوبهم عن الاستجابه لنداء الغيب ، وبين فى كثير من الآيات أن اكتمال العقل فى القلب الذى يستجيب لنداء الغيب ، وهو العقل الطائع لخالقه جل شأنه ، وسوف نتناول فى فصل لاحق المفهوم العلمى والايمانى لكل من العقل والقلب بشئ من التفصيل ، وأما ها هنا فنكتفى بأن نذكر ما استنكره القرآن الكريم من سمع أولئك الغافلين والمتكبرين وأبصارهم وعقولهم ، بل وشبههم بالأنعام : ﴿ ولَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ والإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ولَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا ولَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾[4]،بل قد جعلهم أيضاً موتى فى قبورهم بعد أن رفضوا دعوة الترقى الإنسانى وتحقيق العلة فى خلق الإنسان بالاستجابة لنداء التوحيد والطاعة لرب العالمين وأثروا حيوانيتهم وما يأكلون ويرتعون ويتمتعون كالأنعام : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا ولَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾[5]، ﴿ ومَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ ولا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ومَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ ﴾[6]،وإنما هم أيضاً فى عداد الأموات.

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٢:١٩٤ (٢) الحجر : ١١: ١٣ (٣) سورة النحل : ٢٢
(٤) سورة الأعراف : ١٧٩. (٥) سورة النمل : ٨٠ (٦) سورة فاطـر : ٢٢

فقد نزل القرآن الكريم على قلب النبى ﷺ ، ومسلكه إلى القلوب المؤمنة التى رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وتذوقت طعم الإيمان بالطاعات واجتناب المعاصى ، فالذوق فعل وحس وممارسة ، ومما هو جدير بالذكر فى هذا الموضع ما حملته لنا السيرة النبوية : أن رسول الله ﷺ كان يجلس بين أصحابه فأتى إليهم بإناء فيه عسل ، وأشار إليه ، ثم سألهم : ما هذا ؟ فأجابوا جميعاً أنه عسل إلاعلى رضى الله عنه والذى حينما سأله الرسول ﷺولم يجب إلابعد أن غمس أصبعه فى الإناء وتذوق ما فيه، ثم قال : عسل فابتسم ﷺ ، وقال : من ذاق عرف: فلاتكتمل حقيقة الدين الإسلامى إلا بالتذوق الإيمانى ، وليس للاختبار ، فليس الله فى حاجة للإيمان به ، وليس دينه للاختبار فإن الله غنى عن العالمين ، وانظر كيف وصف استقبال قلوب المؤمنين للقرآن الكريم والذين انفتحت قلوبهم للإيمان بالغيب وما أثره وتأثيره عليهم إذا يقول سبحانه وتعالى ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾[1] ، ﴿ **إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾[2] ، فالقرآن خطاب للقلوب يتعدى العقول ويصل إلى القلوب التى انفتحت على الإيمان واستجابت لنداء الحق سبحانه ، واستقبلت آياته بالطاعات فكان أثره عليها ما حرمت منه تلك القلوب التى صمت عن الاستماع لآيات الله وإن سمعت الأذان ، ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ** ﴾[3] .

واطمئنان القلب أعلى مكسب يمكن أن يحققه الإنسان فى هذه الحياة الدنيا، فصاحب المال يخشى زوال ماله مهما كثر ، وهو يتعلق به ويعلم أنه إن لم يزل

---

(١) سورة الزمر : ٢٣ (٢) سورة الأنفال : ٢ (٣) سورة الرعد : ٢٢

ماله ، فهو زائل بالموت لا محالة ، وبذلك يكون قد زال ماله ، وكذلك صاحب الجاه والسلطان ، وصاحب الصحة ، فالكل يخشى زوال مالديه ، ولم يصل العلم إلى اختراع عقار أو دواء يجعل القلب يطمئن ، وإن كان كان قد توصل إلى أدوية مطمئنة ، فليس لها إلا تأثير وقتى محدود ، فالكل يعيش فى قلق وارتياب ، إلا المؤمنين فهم مطمئنو القلوب بذكر الله وما نزل من الحق ، وهم على يقين أن ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكْرَامِ﴾[1]، فإن لم يطمئن الإنسان بالله فلن يطمئن.

فالمؤمنون مطمئنون فرحون مستبشرون ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُم تُوعَدُونَ﴾[2]، وقد شفاهم الله من غل الصدور الذى ينتج عنه الحقد والحسد والطمع والكراهية والعداوة والبغضاء ، وغيره من الصفات الذميمة التى تكدر على المرء حياته وتنغص عليه معيشته ، وشفاهم الله وعفاهم من كل هذه الهموم وأمرهم بعد أن جاءتهم موعظة وبشرى من ربهم أن يفرحوا بهذا الفضل العظيم وبرحمته المسداه للعالمين فى رسوله الكريم ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وهُدًى ورَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[3] ، ﴿ ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ورَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ولا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَاراً﴾[4] ، ولا يشعر بالشفاء إلا من كان مريضاً، فكذلك هو الإيمان له معارف ذوقية تتفتح بالتذوق بالفعل والممارسة والتقرب إلى الله بالطاعات واجتناب المعاصى ، ولايمكن إدراكها بالعقل ، والعلم لايدركها ولايؤمن بها ، فالعلم لايؤمن إلا بما تدركه الحواس ، أما كل ما هو غيبى فلا يؤمن به ، فالعلم سلطان ، ولاسلطان على سلطان العلم إلا العلم ، أما المؤمنون الذين يؤمنون بالغيب فإنما تتفتح لهم معارف وعلوم

(١) سورة الرحمن ٢٦:٢٧ (٢) سورة فصلت : ٣٠
(٣) سورة يونس : ٥٧:٥٨ (٤) سورة الإسراء : ٨٢

ذوقية لايمكن لأصحاب العقول المادية والكافرين والغافلين إدراكها ، فهى لايمكن الوقوف عليها أو الوصول إليها إلا بالتذوق الإيمانى ، وكل بما شاء الله سبحانه له ، وأما الخسارة التى منى بها الكافرون، والغافلون فهى حرمانهم من الشفاء لما فى صدورهم ، ومن رحمة الله فى الآخرة.

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن نزع الغل يتم فى هذه الحياة الدنيا وليس فى الآخرة ، فالآخرة دار جزاء وحساب على ماتم من أعمال فى هذه الحياة الدنيا من عمل ، وكل محاسب بما عمل فى الدنيا : ﴿ كُلُّ امْرِيءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[1]، ﴿ والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ﴾[2] ، وأما الأنهار التى تجرى من تحت أولئك المؤمنين الصالحين التى تحدثت عنها الآية الكريمه فهى من العلوم الذوقية التى لايدركها إلا الذين ذاقوا طعم الإيمان وعرفوا حقيقة الإسلام ، وهى أمور لايمكن إدراكها إلا بالتذوق ، فقد جعل الحق سبحانه للمؤمنين حياة أخرى ينتقلون إليها فى هذه الحياة الدنيا، حياة إيمانية غير حياة الكافرين والغافلين الذين شبههم بالأنعام والدواب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[3] ، فالمؤمن بمجرد نطقه للشهادتين ثم الاستجابة لله ولرسوله ينتقل إلى حياة جديدة تجمع بين شقين ، الشق العقلانى أو التشريعى، والشق الذوقى أو الإيمانى وبذلك تكتمل حقيقة الدين الإسلامى الذى يجمع بين الشرعى والذوقى ، وتتفتح للمؤمن معارف وبصائر وأنوار خاصة بالتذوق وبالفعل والممارسة ، وكل بمدى صدقه وإخلاصه وما شاء الله سبحانه له :

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[4]، وقد سمى

(١) سورة الرعد : ٢١ (٢) سورة الأعراف : ٤٢:٤٣
(٣) سورة الأنفال : ٢٤ (٤) سورة الأنعام : ١٢٢

الحق القرآن الكريم وبما يحمل بصائر ، وهى بالطبع أمور خاصة بالمؤمنين غير البصر المادى الذى يتمتع به المؤمن والكافر سواء ، وتلك البصائر قد تعطى أيضاً لفاقدى البصر من المؤمنين الذين أنعم الله عليهم ولاعلاقة بينها وبين البصر المادى ، فهى بصائر الإيمان بالغيب ، والتى نتجت عن التذوق الإيمانى بالصدق والإخلاص : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[1] ، وقد وعد الحق سبحانه وتعالى عباده الذين اتقوا أن يجعل لهم فرقاناً يفرقون بين الحق والباطل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾[2] .

(١) سورة الأنعام : ١٠٤ (٢) سورة الأنفال : ٢٩

وللمؤمنين اعتقادات وكلمات نتيجة التذوق الإيمانى يعيشون بها وهى مما وعد الحق سبحانه وأخبر فى كتابه ، ومع ذلك فليس لها معنى علمى ، ولايمكن ان يعترف العلم بها مثل كلمة البركة التى يعيشون بها ويعتقدون فيها اعتقاداً راسخاً لايمكن أن يتزعزع مثلما يؤمنون بكل كلمة قد وردت فى الكتاب الكريم: ﴿ ولَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ﴾[1]، والمؤمنون يعرفون معنى البركة ويعيشون بها ويعرفون حلاوتها، حتى وإن كان ليس لها معنى علمى ، فالدين كله قائم على الإيمان بالغيب.

ومن الأمور التى يقف عندها العلم ويتساءل عما جاء فى أول سورة هود من وعد الله للمؤمنين بالمتاع الحسن فى الحياة الدنيا ، وربما يكون منهم من يعيش فى كوخ : ﴿ الـر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلا تَعْبُدُوا إلا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وبَشِيرٌ * وأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ويُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وإن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[2].

فما هو هذا المتاع الحسن الذى وعد الله به عباده المؤمنين ، فهل هو فى الفراش الوثير والمرأة أو الزوجة الحسناء ورغد العيش وكثرة المال أو الأرض والأملاك ، فلو أن هذا هو المقصود بالمتاع الحسن ، فإن الكفار لديهم الكثير منه ، والمؤمن تراه يعيش فى كوخ وربما يعيش فى قصر ، وكلاهما ينعم بالمتاع الحسن الذى وعد به الله عباده المؤمنين ، ولم يحرم الله الطيبات من الرزق، فلم يدعو الإسلام إلى اعتزال الدنيا ، والدعوة إلى مملكة السماء ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3].فما هى إلا أمور ذوقية يعرفها المؤمنون الذين استجابوا لربهم بالطاعات واجتنبوا

(١) سورة الأعراف : ٩٦ (٢) سورة هود : ١:٣

(٣) سورة الأعراف : ٣٢

المعاصى ، وتمتعوا بمتعة الرضا والقناعة بما قسمه الله لكل ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[1] ، وكم شغلتنى كثيراً هذه الآية ! ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى﴾[2] ، وكثيراً ما رأيت أحد الأغنياء قد تصدر المشيخة وأخذ ينصح أحد الفقراء أو البعض منهم ويردد هذه الآيه ، وكنت أتساءل فى نفسى كيف يكون الضنك هو الفقر الشديد والكفار يرتعون فى رغد العيش ، وهم أصحاب رءوس أموال فى كل أنحاء العالم وشركات وعقارات وأراضى ،وغيره من مختلف الأملاك ومتاع الحياة الدنيا وزينتها ، والحقيقة أننى لا أتذكر أنى قد رجعت إلى كتب التفاسير التى وضعها الأقدمون للقرآن الكريم ، ولكننى أكتفى بالمعنى اللغوى لكلمة ضنك التى أجمعت عليه معاجم اللغة العربية ، وما وردت من آيات تبين هذا المعنى، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وليس كتاب الله حكراً على طائفة من المؤمنين ، وليس وقفاً على عصور الأقدمين وعطائهم ، كما أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل للناس كتاباً ورسولاً ، ولم يرسل طلاسم لكى يحيرهم ويتوههم ، إلا أن هذا الكتاب طريق معرفته تختلف عن طريق دراسة أى كتاب آخر ، ومعرفته بالعلم وحده ليس بكاف للوقوف على حقائقه وأسراره ، إنما الطريق إلى فتحه لابدفيه من العلم والتذوق معاً ، وهو أمر لا يتأتى لغير المؤمنين ، وكل بقدر إيمانه وبقدر ما يفتح الله عليه.

فالمعنى اللغوى لكلمة ضنك هو الشعور بالضيق الشديد فى الصدر ، وهذا ما أكدته آيات الكتاب التى نذكر منها : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[3] ، وهذه أقصى عقوبة

---

(١) سورة الرعد : ٢٦ (٢) سورة طه : ١٢٤:١٢٧

(٣) سورة الأنعام : ١٢٥

وحرمان يقع على الكافرين والغافلين الذى وصفتهم الآية الكريمة بالعميان، أو كذلك جاء وصف الكافرين والغافلين الذين مع كل ما يعيشون فيه من متاع الدنيا يشعرون بضيق صدورهم ، ولا يطيقون أنفسهم ، ولا مانع لديهم من تدمير الآخرين حتى وإن كان فى ذلك تدمير أنفسهم :﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1] ، ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ويَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ والنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[2]، وأما المؤمنون فهم منشرحو الصدر بالإسلام ، وهم على نور من ربهم يضئ حياتهم كلها ، ويرون ببصائر إيمانهم هدى ورحمة ربهم : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وهُدًى ورَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3].

وقد وعد الله عباده المؤمنين أن يصلح بالهم ، ويحيوا حياة طيبة أمنة ، من أمن منهم وتبع إيمانه بالعمل الصالح : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ* والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[4]، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ولَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[5]، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[6]،

فما هى الحياة الطيبة الأمنة ؟ وكيف هو إصلاح البال ، فتلك كلها معارف ذوقية لايمكن تذوقها من خلال الكتب والعلم ، إنما هى ميسرة المذاق المعرفى لكل من أمن وصدق وأخلص دينه لله وعمل صالحاً ، وعاش فى فلك التوحيد، وهذا أيضاً من الإعجاز الدعوى للإسلام الذى يتأتى لكل من أمن وعمل صالحاً ، مهما كان لغته أو لونه أو جنسيته ، وليس مقصوراً على أهل

---

(١) سورة محمد : ٢٣:٢٤ (٢) سورة محمد : ١٢ (٣) سورة الجاثية : ٢٠
(٤) سورة محمد : ١:٢ (٥) سورة النحل : ٩٧ (٦) سورة الأنعام : ٨٢

العربية ، وكل مكلف بما علم وهو محاسب أيضاً بقدر ما علم ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلا وسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾[1] .

فالمؤمن يعيش مطمئن القلب ، مرتاح البال ، فى أمن داخلى مع نفسه ، لايخشى شيئاً إلا أن يغضب الله ، على يقين من قول الله عز وجل : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾[2] .وهو راضى وقانع بما قسمه الله له فى هذه الحياة الدنيا التى يتمتع بها متاعاً حسناً ويتذوقه ويشعر به كما وعد الله ويدور فى فلك التوحيد والعمل الصالح ، وهى الإنسانية فى أرقى معانيها ، ولانقول حياة سعيدة ، فمهما قيل عن سعادة الحياة الدنيا فهى ناقصة ، ومهما عاش الإنسان فى رغد العيش ، فلابد أن يكون فيها ما ينغص عيشه ، وأقل ما يتعرض له المرء أنه يضطر لقضاء حاجته ، وليس فى هذا سعادة ، وربما يشعر بمغص أو صداع ، أو غيره من الأمراض البسيطة حتى لو كان يلازمه طبيب أو مجموعة أطباء ، وقد وصف الخالق سبحانه ، وهو أعلم بخلقه بملازمة الشقاء للإنسان الذى خلقه فيه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[3] ، ولم يرد وصفه بالسعيد إلا فى سياق الحديث عن الآخرة ، والتى فيها السعادة الكاملة للمؤمنين : ﴿ فَأَمَّا الَذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ* وأَمَّا الَذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[4] ،

وخلاصة ما قدمنا أن الإسلام بإعجازه الدعوى قد تعدى اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، كتاب الإسلام ، وتعدى حواجز اللغات كلها ، والاجناس والألوان ، وجاء بسيطاً فى دعوته ميسراً لكل إنسان ، وقد بُعث رسول الله ﷺ وقد تنزل القرآن على قلبه ، وهو العامل المشترك بين الناس

(١)سورة البقرة : ٢٨٦ (٢) سورة التوبة : ٥١
(٣)سورة البلد : ٤ (٤) سورة هود ١٠٦ : ١٠٨

كافة ، وليس المقصود بالقلب هو المضغة التى فى صدر الإنسان بمالها وظيفة حياتية يشترك فيها مع سائر الحيوانات ، ولم يتنزل القرآن على عقل رسول الله ﷺ ، وسوف نتناول المفهوم اللغوى والإيمانى لكل من العقل والقلب فى فصل لاحق بمشيئة الله ، ولم تقف مصادر الدين الإسلامى على الكتب التى لم تستطع أن تحتوى الدين ككل أو حقيقته ، فهى لم تحتو إلا أحد شقى الدين وهو الشق الشرعى أو الظاهر ، وهو الإسلام ، وأما الشق الآخر وهو الإيمان فهو مرتبط بالذوق ، أى الفعل والحس والممارسة وهو ما لايمكن أن يعبر عنه بالكلام ، فبالتذوق تتفتح معارف قلبيه ، وبصائر ، ورحمات لاتدركها إلا القلوب المؤمنة التى مارست الإيمان وعرفته ، وقد بُعث رسول الله ﷺ لتقويم إعوجاج الفطرة الإنسانية وإعادة استقامتها على نشأتها الأولى فى أحسن تقويم: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إلا الَذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ *أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ**﴾[1] .

عاشراً : الفرقة الناجية :

قال رسول الله ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على إثنين وسبعين فرقة وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة»[2]، وهناك رواية بها إضافة على هذا النص : « لن تنجو منهم إلا واحدة قيل : ومن هى يارسول الله ، قال : ما عليه أنا واصحابى» وإن كنت لم أقف على الصيغة الصحيحة لهذا الحديث فالذى يهمنا هو البحث عما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فهل كان رسول الله ﷺ من فرقة أهل السنة أو أهل الشيعة أو المرجئة أو المعتزلة أو الخوارج وما خرج ونتج من فرق التى كانت نشأتها جميعاً نزعات سياسية ، كما هو معروف ، وحتى فرقة أهل السنة لايستطيع أحد

---

(١) سورة التين ٤ :٨

(٢) لأبى داود والنسائى والترمذى ولابن ماجه عن رواية أبى هريرة.

أن يدعى أن رسول الله ﷺوأصحابه رضى الله عنهم كانوا من فرقة أهل السنة، فلم يكن المسلمون قد تفرقوا بعد وصاروا فرقاً وأحزاباً[1]، وكانوا يعتبرون السنة مثل الفرض تماماً ، فالفرض والسنة صنوان متلازمان ، ولايمكن فصلهما عن بعضهما فلايمكن إقامة الفرض بدون اتباع السنة ، ولاسنة من غير فرض، حتى أن رسول الله ﷺ قال: « فرض الله فرائضاً وفرضت فرائضاً»[2] ففرض رسول الله ﷺ هو تبيان أداء الفريضة، وفى هذا يقول الحق سبحانه:﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [3]، ﴿ وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [4] .

ولسنا بصدد البحث فى تاريخ الفرق الإسلامية والمذاهب التى نشأت على نزعات سياسية ، فتفرقت بها الأمة الإسلامية إلى ثلاث وسبعين فرقة كما تنبأ النبى ﷺ، والتى تحول ما بقى منها من الفرق إلى فرق كثيرة فى عصرنا ، يصعب حصرها ، برغم انقراض الكثير من تلك الفرق ، فلاجدال أنه لم تكن فى عصر رسول الله ﷺفرق على الإطلاق فقد نهى القرآن الكريم المسلمين عن الفرقة والتفرق بنصوص واضحة وصريحة لاتحتمل التأويل ، وليس لها معنى غير ماهوظاهر وجلي عن نصها ﴿ ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [5] ، وليس فى الإسلام سوى طريقاً واحداً ، وهو فى اتباع رسول الله ﷺ ، ﴿ وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [6] ، ولم تأت آية واحدة فى كتاب الله تخبرنا أى فرقة إسلامية أحق أن نتبع وأنما وردت آيات كثيرة تنهى عن التفرق والتشرذم ، ويضيق المقام عن حصرها ، ونكتفى بذكر القليل منها ، حتى أن آيات قد جاءت بالنفى أن يكون رسول اللهﷺ من أى فرقة

---

(١) انظر كتاب الملل والنحل للشهر ستانى.

(٢) كشف الغمة عن جميع الأمة . للإمام الشعرانى.

(٣) سورة النســـاء : ٨٠ (٤) سورة النحل : ٤٤

(٥) سورة آل عمران : ١٠٥ (٦) سورة الأنعام : ١٥٣

إسلامية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1] .وهذه الآيات من سورة المؤمنون تؤكد الحقيقة التى أرادها رب العزة سبحانه للمسلمين ، وتخبر بالأمر الذى آل إليه حال المسلمين الذين لم يلبثوا كثيراً بعد انتقال رسول الله ﷺ، وتفرقوا أحزاباً وفرقاً تدعى كل فرقة أنها الفرقة الناجية من النار ، وأنها الوحيدة الحاملة لواء الإسلام ، برغم أن الحق سبحانه قد أخبر أن أمة الإسلام ، أمة واحدة ، ليس فيها تحزب أو تشرذم أو فرقة وفرق ؛ ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[2] .

إذن ، فلاجدوى من البحث فى الفرق الإسلامية ، وأيهم أحق . ولنرجع مباشرة إلى أمة رسول الله ﷺ ، وما كان عليه هو وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد حقق رسول الله ﷺ رسالته والغاية من بعثته الشريفة وقوم إعوجاج الفطرة الإنسانية فى أصحابة والأمة الإسلامية ، وعاد بهم إلى الفطرة السليمة ، وحق أمر الله سبحانه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِاللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[3] ، فقد ساد بين أمة رسول الله التواضع والرحمة ، والصدق والإخلاص لرب العالمين ، ولم يكن بينهم من يسعى لتحقيق مصالح من وراء الدين ، وقد قدمنا من قبل الآيات التى جاءت تخبر عن تواضع المسلمين بينهم والرحمة ، فقد كانت أمة رسول الله ﷺ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ونذكر هذه الآيات من سورة الحجر التى نزلت فى حب أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض : ﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٩ (٢) سورة المؤمنون : ٥٢:٥٣

(٣) سورة الروم : ٣٠:٣٢

بِسَلامٍ آمِنِينَ * ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ومَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[1].

فكما جاء فى أسباب نزول هذه الآيات من سورة الحجر ، أنها نزلت فى علي وأبى بكر رضى الله عنهما ، وفى رواية أخرى تذكر أنه كان معهما عمر رضى الله عنه ، وثالثة تقول : أنه كان معهم أيضاً عثمان رضى الله عنه ، وكانوا بالصحراء وفى ليلة من ليال الشتاء شعر أبو بكر رضى الله عنه بآلام الخاصرة ، أى مرض الكلى فما كان من على رضى الله عنه إلا أن وضع راحته فوق النار حتى تلتهب فيسرع إلى خاصرة أبى بكر فيضمخها ، أى يدلكها بالسخونة ، وظل يكرر هذا مراراً حتى هدأت آلام أبى بكر ، وكان أبو بكر من رهط بنى تيم وعلى من رهط بنى هاشم وعمر من بنى عدى ، وكان بينهم عداوة فى الجاهلية أى بين تلك البطون من قريش ، فلما آخا بينهم الإسلام نزع من صدورهم غل الجاهلية ، ونزلت تلك الآيات تبشرهم بالجنة التى بشرهم بها النبى ﷺ ، وكل منهم كان يرى مقعده فى الجنة[2].

ووردت آيات كثيرة تثنى على صدق المسلمين وإخلاصهم وحبهم لبعض وإيثار الغير على الأنا، نذكر منها ما نزل فى سورة الحشر وما تحمل من ثناء على الأنصار ، وإيثارهم لإخوانهم المهاجرين على أنفسهم ، كما جاء فى أسباب النزول فى مصادرها التى ذكرنا من قبل :﴿ والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ولا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[3]، وتتلاحق الآيات بالثناء على المؤمنين الذين نزع الله الغل من قلوبهم ، واستقاموا على الصراط المستقيم ، صراط العزيز الحميد الذى أراده الله لعباده ، وقد توارث الذين جاءوا من بعد هؤلاء ما كان عليه من قبلهم وظلوا

(١) سورة الحجر ٤٥:٤٨

(٢) انظر أسباب النزول للواحدى النيسابورى ، وكذلك أسباب النزول للإمام السيوطى.

(٣) سورة الحشر : ٩

على استقامة الفطرة التى قوم إعوجاجها رسول الله ﷺ وقد نزع الله الغل من قلوبهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] فالأمة الناجية ، ولاتقول فرقة ، هى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين والذين كانوا على الإسلام دين الفطرة ، وقد نزع الله الغل من قلوبهم ، فلا حسد ولاحقد بينهم ولاعداوة ولابغضاء ، ولاكراهية ولاطمع ولاجشع ، إنما الرضا والقناعة وإيثار الغير من المؤمنين ، يعيشون فى صدق وإخلاص فى فلك التوحيد والعمل الصالح ، ولم يكن يسعى أحدهم لتحقيق مصالح من وراء الدين ، إنما كانوا يعبدون الله مخلصين له الدين.

واستمر الخلفاء الراشدون من بعد رسول الله ﷺ على العهد صادقين ثابتين أوفياء وما بقى من صحابته الكرام ، وإن كان بعض الصحابة قد نكثوا العهد من بعده وارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة ، فحاربهم الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله ﷺ والذى ثبت على العهد وقضى على انقسام الدولة الإسلامية وأعاد إليها وحدتها ، وعادت الأمة الإسلامية ، أمة الفطرة إلى ما كانت عليه فى عهد رسول الله ﷺ ، ورضى الله عن أصحابه الكرام الذين لم يحنثوا بالعهد من بعده ، ولم تلعب بهم الأهواء ، ولم تغرهم الدنيا وزينتها.

ثم حدثت الفتنة الكبرى بعد استشهاد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان رضى الله عنه والانقسام الكبير فى الأمة الإسلامية ،والذى مازال يعانى منه المسلمون حتى يومنا هذا ، ولسنا بصدد البحث فى هذه القضايا العقيمة والتى قُتلت بحثاً عبر العصور ، ولا جدوى فى الحقيقة من بحثها ، فقد حسم القرآن الكريم قضايا الأولين والسلف بصفة عامة وذلك فى قوله فى سورة البقرة ، والذى تكرر مرتين فى ربع واحد من أرباع القرآن الكريم : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] ، ولكننا نبحث عن الفرقة الناجية من النار ، وما هى حقيقتها وصفاتها .

---

(١) سورة الحشر : ١٠ (٢) سورة البقرة ١٣٤ : ١٤١

ولنختصر القول ، ونتساءل : هل الإمام على رضى الله عنه كان من فرقة أهل السنة أو من فرقة الشيعه ، أو من فرقة الخوارج؟!

ولن تجد من يجيب على هذا السؤال بأن الإمام رضى الله عنه كان ينتمى لإحدى هذه الفرق ،حتى فرقة أهل السنة لم تكن قد ظهرت بعد ، ولم تظهر المذاهب الفرقية لأهل السنة إلا بعد إستشهاد الإمام بأكثر من مائة عام ، ولم يتبلور ويستقر فكر أهل السنة والجماعة إلا فى القرن الثالث الهجرى على يد الإمام أبى الحسن الأشعرى ، إذن فلأى فرقة كان ينتمى الإمام ؟! وهو غنى عن التعريف به ؟ ونكتفى هنا بذكر أنه أشتهر فى التاريخ الإسلامى بالإمام ، فإذا ذكر الإمام وحسب فى كتاب فالمقصود هو على رضى الله عنه.

ومن دعاء الإمام نتعرف على فرقته ، فقد كان دعاؤه رضى الله عنه : اللهم أتنى إيمان العوام . وليس المقصود بالعوام هم الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة، فلم يكن ذلك قد انتشر بعد ، إنما عوام المسلمين ، هم أهل الفطرة ، فلم يكن الأمام رضى الله عنه والذين اتبعوه ينتمون إلى إحدى الفرق الذين فرقوا دين الله وكانوا شيعاً ، إنما كان رأس أمة الفطرة الذين ثبتوا على العهد بعد انتقال رسول الله ﷺإلى الرفيق الأعلى ، ولم تلعب بهم الأهواء ولم تغرهم الدنيا وزينتها، إنما صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأخلصوا دينهم لله ، ولم يسعوا لتحقيق مصالح من وراء الدين ، وكانوا يتمتعون بالخلائل والشمائل التى بينا من قبل ، صفات أهل الفطرة.

وأهل الفطرة هؤلاء هم أمة الإسلام الحقيقية التى بقيت تتحدى العواصف التى هبت على الإسلام عبر الأزمان، تريد أن تقتلعه من جذوره بألاعيب الساسة والحكام وشياطين الإنس الذين تسربلوا بعباءة الأسلام ، وظلوا باقين يعيشون بحقيقة الإسلام ويحملون الخير والنور إلى بنى الإنسان فى كل أرجاء المعمورة ، وظل الإسلام ينتشر بهم ، برغم كل ما تعرض له عبر العصور من فتن وإحن ، وأهل الفطرة هؤلاء تجدهم فى عامل بسيط أو فلاح ، وربما يكون

أيضاً أستاذاً كبيراً فى الجامعة أو مستشاراً أو طبيباً أو ضابطاً ، سواء كان فى الشرطة أو الجيش أو فى أى مهنة ، فهم جميعاً يجمعهم الصدق والإخلاص لرب العالمين ، والرحمة والتواضع ، كما بينا ، ولاشك أيضاً أنه ربما يكون منهم عالماً كبيراً من حملة القرآن ، واحتفظ بسلامة فطرته ، ورفض أن يتحول إلى تاجر فى دين الله ، والتاريخ الإسلامى ملئ بالأمثلة من الأئمة الحق الذين تعرضوا للاضطهاد والسجن والتعذيب ،ورفضوا أن يبيعوا دينهم ، ويخضعوا لأهواء الساسة والحكام .

فما بُعث رسول الله ﷺإلا لتقويم إعوجاج الفطرة الإنسانية وإعادة إستقامتها على التوحيد والعمل الصالح القائمان على الصدق والإخلاص لرب العالمين ، وهذا من الإعجاز فى دعوة الإسلام الذى بُعث رسوله العربى ﷺ إلى الناس كافة ، والذى تعدى بدعوته الخالدة حواجز اللغات والأجناس والألوان ، فأبواب الجنة مفتوحة لكل مسلم صدق وأخلص لدينه ، وعاش فى فلك التوحيد والعمل الصالح فى أى مكان فى العالم مهما كان لغته أو جنسه أو لونه ، ولايفوتنا أن نشير إلى أننا سوف نتناول فى فصل لاحق بمشيئة الله المفهوم اللغوى لكلمة : أمة . وكذا أيضاً دلالتها الإيمانية فى القرآن الكريم.

وقبل أن ننهى هذا الفصل ، لابد من ذكر رأس أمة الفطرة بعد الإمام على رضى الله عنه والذى أهمله التاريخ الإسلامى ، ولم يعطه حقه من الإشادة والتوقير والاحترام ، ألا وهو خامس الخلفاء الراشدين الإمام الحسن بن على رضى الله عنهما سبط رسول الله ﷺ وحبه وعترته ، والذى اختارته أمة الفطرة، أى أمة الإسلام التى بقيت على العهد بعد رسول الله ﷺ ، ولم تلعب بهم الأهواء ولم تفتنهم الدنيا وزينتها ، واختاره أيضاً ما بقى من صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار بعد استشهاد الإمام على رضى الله عنهما ، فاختار الكل الإمام الحسن رضى الله عنه خليفة للمسلمين.

وجهز خامس الخلفاء الراشدين الإمام الحسن بن على رضى الله عنهما جيشاً جراراً ، وخرج على رأسه قاصداً الشام للقضاء على الفئة الباغية المتمردة التى قسمت الدولة الإسلامية وخرجت عن الحاكم الشرعى للبلاد وخدعت المسلمين بكتاب الله ، وأقامت دولة عربية لبنى أمية فى الشام تحت راية الإسلام ، والتقى فى الطريق بأبى يزيد معاوية بن أبي سفيان على رأس جيشه وعقدا اجتماعاً سوياً فى خيمة ، واتفقا سويا على ان يتنازل الإمام الحسن رضى الله عنه لأبى يزيد عن الخلافة مدى حياته حقناً لدماء المسلمين ، واعتزل الإمام الحسن رضى الله عنه الحكم ، ولم يمكث فى الخلافة أكثر من ستة أشهر ، وركل ملك الدنيا للطامعين فيها حقنا لدماء المسلمين ليظل المثل الأعلى لزهد الحاكم فى دولة الإسلام ، دين الفطرة والصدق والإخلاص لرب العالمين ، وتحققت به نبوءة جده ﷺ الذى كان كثيراً ما يشير إليه فى طفولته ويقول : إن ابنى هذا سوف يصلح به الله فئتين كبيرتين من المسلمين ، ومع ذلك فلم تسلم دولة الإسلام من ألاعيب الساسة الذين انتسبوا للإسلام ، واحقنت دماء المسلمين ، بل اخذت تراق وتستباح عبر العصور ، وحتى يومنا هذا من أجل إرضاء طمع الساسة وأصحاب الأهواء وشياطين الأنس ، ونعوذ بالله من شر الشياطين ونعوذ بك ربى أن يحضرون ، و ﷺ على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه وبقوا على العهد وصدقوا وأوفوا بعد انتقال الحبيب الأعظم إلى الرفيق الأعلى ﷺ .

وهكذا كان كل ما قدمنا هو نتاج تفصيل كلمة رسول الله ﷺ التى اختزل فيها الإسلام كله حينما قال : « الإسلام دين الفطرة»

وهكذا قد تجلت حكمته ﷺ ، وهو القائل ! « أوتيت مجامع الكلم وفواتحه وخواتمه»[1] وصدق الحق سبحانه وتعالى إذ يقول : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى

(١) الجامع الصغير للإمام السيواطى.

﴿الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[1] .

وهل بعد ذلك حكمة ؟! وهذا هو المنهج الفكرى الإيمانى الذى تناولنا به قضية غش القرآن أثناء الصلاة والتى خالفنا به كثيراً من العلماء الذين أجازوا وأباحوا الغش وسوف نتناول به بعض قضايانا وقضايا الإسلام المعاصرة ، والله المستعان.

***

(١) سورة آل عمران : ١٦٤

الفصل الثانى

موازيـــنٌ ومعـــاييرٌ

قاهريـــةٌ

قبل أن نعرض لبعض المفاهيم الأساسية التى قامت عليها منظومة الفكر الحديثة التى نعيش بها ، والتى تحولت إلى منظومة حياتية كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره ، لابد لنا أن نوضح الموازين والمعايير التى نحتكم إليها ونرجع ، كلما أردنا أن نقيم الموازين القسط، ولاسبيل إلى الوصول إلى الحقيقة وإحقاق الحق إلا بالتجرد الشامل من كل ما يتمسك به المرء حتى وإن كان نفسه أو والديه ، ولايأخذه الهوى ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[1] ، فلاسبيل للوصول للحق إلا بالتجرد الشامل والذى يبدأ بالتجرد من النفس ، كما بين الحق سبحانه وتعالى، فلامانع من أن يرى رجل فى مثل سنى الذى قارب السبعين أنه قد عاش عمره كله على تفكير خاطئ ومنظومة فكرية منتشرة باطلة : ﴿رَبَّنَا لاتُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[2]، فالخطأ هو خطأ قد رفعه الله سبحانه عن عباده ، طالما أنهم لايعرفون الصح ولانطيل، ففى هذه الموازين والمعايير ، نتبع نفس المنهاج الفكرى الإيمانى[3]، الذى جاء فيه: كل ما جاء بالقرآن الكريم وما ثبت صحته من رواية عن رسول اللهﷺ فنحن ملتزمون به ، و ما روى عن صحابته رضوان الله عليهم فلنا أن نأخذ أو نرفض، وأما التابعون فهم رجال ونحن رجال ، وهو منهاج سيدى الإمام أبى حامد الغزالى رحمه الله .

ونقر قول الإمام رحمه الله ، ونضيف : وأماتابعوا التابعين وتابعوهم فهم رجال ، ونحن أيضاً رجال ، فالمعصوم واحدﷺ ، وكل ماعداه فهو بشر يخطئ ويصيب ، فلا نقف على المنقول مهما كان قائله ونعطل العقول ، وهذا من الأسباب الرئيسية لمحنة الإسلام والمسلمين فى عصرنا ، حتى وإن كان القائل

---

(١) سورة النساء : ١٥٣ (٢) سورة البقرة : ٢٨٦

(٣) منهاج العابدين للإمام أبى حامد الغزالى.

هو الإمام أبو حامد الغزالى ذاته ، فنحن صراحة لانستطيع أن نجزم بأن كل ما نقل عنه أو نسب إليه هو صحيح قائله أو هو افتراء وزور وبهتان مما امتلأت به كتب التراث الإسلامى والتى يتعامل معها الغالبية العظمى من المسلمين وكأنها تنزيل من حكيم حميد ، والكل يستشهد بالمنقول وكأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعلى سبيل المثال فقد جاء فى كتاب العلم [1] فى مجلدات إحياء علوم الدين ـ فصل : العلم : والعلوم الشرعيه وهى المقصودة بالبيان ، والتى صنفها إلى علوم محمودة وعلوم مذمومة والتى قسمها إلى أربعة أجزاء، تناول كل جزء منها وبين حدوده المحدودة ، وقد جمعها تحت علم الفلسفة الذى قال عنها أنها ليست علماً برأسها ، بل هى أربعة أجزاء ، وتناول كل جزء منها ، وهى الهندسة والحساب ، ثم يأتى فى الجزء الثانى المنطق ، يليه الإلهيات ثم يختتم الجزء الأخير وهو الرابع والذى ننقل منه ماورد بالنص:

والرابع ، الطبيعيات ، وبعضها مخالف للشرع والدين والحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى يورد فى أقسام العلوم ، وبعضها بحث فى صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الأطباء ، إلا أن الطبيب ينظر فى بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ،وهم ينظرون فى جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك ، ولكن للطب فضل عليه وهو انه محتاج إليه ، وأما علومهم فى الطبيعيات فلاحاجة إليها ، ونكتفى بهذا القدر مما هو منقول عن الإمام أبى حامد الغزالى أو منسوب إليه ، ومن يرد أن يزداد فليرجع إلى الأحياء .

وفى هذا لصدد ، نذكر كلمة الإمام المجدد الشيخ محمد عبده رحمه الله والتى جاءت فى تفسيره للقرآن الكريم ، وبالتحديد فى قوله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة ، الأية ٢١ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن

(١) إحياء علوم الدين ـ الإمام أبو حامد الغزالى ـ الناشر : عالم المعرفة. ملوى . قدمه وعلق عليه محمد عبدالقادر عطا . المجلد الأول . كتاب العلم . ص ٦٦.

قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] ، وهذا ما قاله الإمام محمد عبده رحمه الله فى تفسير هذه الآية والذى ننقله بنصه إذ يقول : الوجه الثانى ـ وهو الراجح ـ أن الخطاب للناس كافة. وجه الاتصال بين الآيات على هذا ، أنه لما بيّن تعالى فى أصناف الناس هذا الصنف الذى احتقر أفراده نعم الله تعالى عليهم ، واستعظموها وأكبروها على من قبلهم ، فحرموا أنفسهم من أجل المزايا الإنسانية ، وأجلوا سلفهم حتى رفعوهم إلى مرتبة الربوبية ، وخاطب الناس عامة أن يعبدوه ملاحظين معنى الربوبية والخالقية التى تشملهم ومن قبلهم من السلف ، منتظمين جميعاً فى سلك العبودية للخالق تعالى شأنه وألا يكونوا كذلك الصنف الخاسر الكافور بنعم المشاعر والعقل وهداية الدين ، إذا لم يستعملوا عقولهم فى فهم ما أنزل عليهم ، بل اكتفوا بتقليد بعض رؤسائهم وعلمائهم ، زاعمين أنه لايقوى على فهم كتاب الله تعالى غيرهم ، وكأن الله تعالى أنزل كتبه وخاطب بها نفراً معدودين فى أوقات محدودة ، ولم يجعلها هداية عامة للأمة ، وإنما ألزم سائر الناس فى سائر الأوقات باتباع أولئك الرؤساء وأتباعهم وأتباع أتباعهم ،وهلم جرا ، ثم تركوا اتباعهم اتكالاً على شفاعتهم واكتفاءًا بالانتساب إليهم ، وزعماً أن الله أعطاهم ما لايعطى لأحد سواهم ، وإن عملوا فعل عملهم . تعالى الله من الظلم والمحاباه ، وهو ذو التي الرحمة لا تنتهى ، وذو الفضل العظيم.

ومازال الكلام لفضيلة الإمام الجليل رحمه الله إذ يضيف : هذا النداء الإلهى المشعر أن نسبة الناس الأولين إلى الله تعالى كنسبة الآخرين واحدة : هو الخالق وهم المخلوقون ، هو المستحق للعبادة وهم المأمورون بها أجمعون ـ حجة علينا وعلى جميع من استن بسنة ذلك الصنف من قبلنا ـ وأنا أخص طلاب علوم الدين بالذكر ، فينبغى للطالب أن يوجه نفسه إلى فهم القرآن ويحملها

---

(١) سورة البقرة : ٢١

على الاهتداء به ، فإذا هو فعل ذلك يظهر عليه آداب الإسلام التى أشار إليها الرسول ﷺ - بقوله أدبنى ربى فأحسن تأديبى .

وإنما كان أدبه القرآن ، ومن اشتغل بهذا حق الاشتغال ، وصل إلى معرفة أمراض المسلمين الحاضرة ، ومنابع البدع التى نشبت فيهم ، ومثارات الفتن التى فرقتهم ،ويعرف علاج ذلك ،وإن من ذاق حلاوة القرآن ، لاينظر فى كتاب ولايتلقى علماً إلا ما يفتح له باب الفهم فى القرآن أو ما يفتح له باب القرآن فيجده مرآته ، وما عدا ذلك فيبعد عنه ، والبعد عن القرآن هو عين البعد عن الله تعالى ، وذلك هو الضلال البعيد.

كل ما أمرنا به القرآن وأرشدنا إلى النظر فيه : فالاشتغال به اشتغال بالقرآن، فإذا قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم** ﴾[1] ، فذلك تنبيه وإرشاد إلى الاعتبار بما خلقنا من الحكم والأسرار ، وينبغى لنا البحث عنها ، كما قال فى آية آخرى : ﴿ **وفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾[2] ،

وإلى الاعتبار بتاريخ من قبلنا ، كما قال فى آيه أخرى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ** ﴾[3] ، وأمثال ذلك كثير ، ونكتفى بذلك القدر من كلام الإمام المجدد الشيخ محمد عبده رحمه الله ، ونفعنا الله بعلمه وهدانا .

فعقل الإنسان فى تطور مستمر ، وقدنهانا الحق سبحانه وتعالى فى كثير من أى الكتاب أن نقف عند فكر الأباء والأجداد وأن نعمل الفكر الموحد فى كل

---

(١)سورة البقرة : ٢١ (٢) سورة الذاريات : ٢٠:٢١

(٣) سورة الروم : ٤٢

شئ ، ولا نقف على المنقول ونعطل العقول ونقول ما نهى الله عنه : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾[1] ، فلننظر فيما أنزل الله إلينا من آيات مبينات بعقول متفتحه على كل ما فتح الله به على الإنسان من علوم فى عصرنا ولا نقف على فكر السلف إلا فى ثوابت الدين التى لاتتغير ولاتتبدل بتغير العصور ونتذكر قول الله عز وجل : ﴿ ولَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ومَثَلاً مِّنَ الَذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ومَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2] ، ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تعْقِلُونَ﴾[3] ،

بهذه الموازين والمعايير التى قدمنا والتى مرجعها الكتاب وماصحت روايته عن المعصوم ﷺ ، وكل كلام يُرد عليه إلا كلامه ، سوف نتناول بعض المفاهيم الأساسية التى قامت عليها المنظومة الفكرية الحديثة التى نعيش بها والتى تحولت إلى منظومة كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره.

أولاً : العقل ومرادفاته :

وقبل أن ننظر فى الكتاب الكريم عن المفهوم الإيمانى للعقل ومرادفاته لابد لنا أن نتعرف على المعنى اللغوى لكل كما أجمعت معاجم اللغة العربية .

١ـ العقل :

(عَقَلَ) ـ عقلاً : أدرك الأشياء على حقيقتها .والغلام : ميَّز وعن فلان : حَمَل عنه العاقلة ، وهى الدِّية . والشئ! أدركه على حقيقته . والبعير : ضمَّ رسغ يده إلى عَضُده وربطهما معاً بالعقال ليبقى باركاً.

---

(١) سورة الزخرف : ٢٢ (٢) سورة النور : ٣٤

(٣) سورة النور : ٦١

وهناك معانى أخرى ، لاتهمنا فى بحثنا هذا ، فلنختصر . فمما سبق وما أجمعت عليه معاجم اللغة العربية ، أن العقل ، أداة إدراك الأشياء على حقيقتها بأدواته أو حواسه الخمس ، وهم حاسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس. ثم بإدراكاته القائمة على هذه الحواس.

وبما أن الغيب على إطلاقه ليس بشئ مرئى أو مسموع أو ملموس أو ذو مذاق، فلايمكن إدراكه بأداة إدراك الأشياء أى العقل ، ولم تأت آية واحدة فى القرآن تثنى على العقل على إطلاقه ، إنما جاءت الآيات التى ذكر فيها العقل أو أحد مشتقات فعل عقل ، فى صيغة توبيخ واستنكار ، ونذكر على سبيل المثال ، وليس الحصر ، ما جاء فى قوله تعالى ﴿ **وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ ولَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[1] ، ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[2] ، ﴿ **قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ولا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[3] ، ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[4] ، أما إذا كان الحديث عن المؤمنين أو موجه إليهم وورد ذكر العقل فنرى الخطاب قد اختلف وأخذ صيغة رقيقة عما جاء فى سياق الحديث حول ذكر قول الكافرين والغافلين مثلما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[5]، وكذلك تأتى الآيات التى تخاطب المؤمنين وتبين لهم أحكام دينهم ثم يذكر فى عَجُزها العقل مسبوقاً بحرف العلة أو السببية ، ونذكر فى ذلك قوله سبحانه : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلا ثُمَّ**

---

(١) سورة الأنعام : ٣٢ (٢) سورة البقرة : ٧٣
(٣) سورة يونس : ١٦ (٤) سورة الفرقان : ٤٤
(٥) سورة يوسف : ٢

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُم ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُم مَن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُّسَمًّى ولَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾[1] ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقاً عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]، وحتى الآيات الكونية التى تخاطب عقل الإنسان ، وتلفت نظره وفكره إلى ما خلق الله ، لم يأت فيها ثناء على العقل، ونذكر فى ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3] فهى آيات تخاطب الإنسان الذى عمل فيها عقله عبر العصور ، ووضع لها الوسائل الذى يمكن له أن يستغل آيات الله فى الكون ويهيئها لاستثمارها لخيره وإسعاده فى الحياة الدنيا ووضع لها النظريات العلمية ، وعلوماً شتى ، مع تطور عقله المادى الذى هو أداة إدراك الأشياء ، وهو سميع ومتكلم وعاقل ، فقد نفى عنه المولى عز وجل كل هذه الصفات ، وشبهه بالدواب التى لاتسمع ولاتتكلم ولاتعقل ، فوصف الكافرين بشر الدواب ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[4].

ومما تقدم يتبين أنه لاخير فى العقل الذى هو أداة إدراك الأشياء ، الذى وهبه الله للإنسان وميزه به عن سائر المخلوقات والذى ساد به الكون ، ومع ذلك فلم يأت من المولى عز وجل ثناء عليه ، إنما الثناء قد أتى فى الكتاب على العقل الذى أعلن استسلامه وقصوره ومحدوديته عن إدراك الغيب فسمع واستجاب لنداء الحق سبحانه بعد أن أدرك أنه صنعة ، وحاشا للصنعة أن تدرك الصانع فترقى فى مدارك العقلانية وجمع بين إدراك الأشياء وارتقى فى السببية وآمن أن واجب الوجود غيب مطلق ولايمكن إدراكه بأداة إدراك الأشياء الحسية ، وعندئذ تعمل لطيفة غيبية فى القلب أو الصدر بها مدركات الغيب تأخذ فى

(٢) سورة فاطر : ٦٧ (٢) سورة البقرة : ٢٤١:٢٤٢
(٣) سورة الرعد : ٤ (٤) سورة الأنفال : ٢٢:٢٣

الترقى بالاستجابة لله ورسوله فيشعر المؤمن بأنه انتقل من حياة إلى حياة إيمانية غير حياته الأولى ، لا يتذوقها ولايتخيلها إلا من عاشها ، ويصير عقله لباً يترقى إلى النهى بالطاعات ولكل درجة لها بصيرتها غير بصر العقل المادى، ويظل المؤمن فى جهاد الترقى بآيات الله ويتخلص من صدأ قلبه وما ران عليه حتى يصير قلباً سليماً ينبض : الله .. الله، و يترقى منه الفؤاد حتى يذوب فى الفؤاد ﷺ ، وسوف نتناول هذه الكلمات بالتفصيل فيما هو آتى حول مرادفات العقل بعد الترقى الذى أتى عليه الثناء فى القرآن الكريم.

٢ـ اللُّبُّ :

وهو أحد مرادفات العقل اللغوية ، وقد أثنى الله سبحانه على أولى الألباب كما جاء ذكر ذلك فى كثير من أى الكتاب الكريم ، ولكننا قبل أن نذكر بعض هذه الآيات نجد أنه لزاماً علينا أن نعرض إلى معناه اللغوى ، ولو بشئ من الاختصار ، ومما أجمعت عليه معاجم اللغة العربية!

اللُّبُّ : من كل شئ : خالصه وخياره . ولبُّه . والجوز واللوز ونحوهما: ما فى جوفه . والعقل.

إذن فاللب هو خالص العقل وخياره ، أو ما فى جوف العقل دون قشره أو ما عليه من غشاوة وما هى إلا تشبيهات مادية لتقريب المعنى ، فثمرة اللوز أو الجوز قيمتها فيما داخلها من لب الثمرة ، وأما إذا كان ما بداخلها فاسداً ، فلا قيمة لها ، كذلك هو العقل فى فطرته الأولى ، وبما حوى بداخله من لب سليم وصحيح ، وهو العقل المطيع ، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ لجابر رضى الله عنه : أول ما خلق الله خلق العقل إذ قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال سبحانه فبعزتى وجلالى ما خلقت شيئاً أعز على منك[1].

---

(١) الجامع الصغير للإمام السيوطى.

وكما هو واضح من هذا الحديث الشريف أن الحق جل ثناؤه قد اثنى على العقل المطيع الذى استجاب لأمر الإقبال والإدبار . وليس العقل على إطلاقه الذى استسلم لعقال المادة وأسرها ، ولم يرتقى فى عالم الروح ، ولم يستمع ولم يستجب لنداء الغيب ، فاللب هو العقل الموحد أو المطيع الذى خاطبه الله بالتشريع والتكاليف والتوحيد واثنى عليه مثلما جاء فى قوله سبحانه و تعالى وفى كثير من الآيات ﴿ وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى واتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1]، ﴿ولَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]، وهم أيضاً الذين وصفهم الحق سبحانه بالراسخين فى العلم وهم الذين يذكرون الله وأهل الذكر والذين يؤمنون بآياته ويعلمونها : ﴿ ومَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللَّهُ والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ومَا يَذَّكَّرُ إلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[3]،

وانظر فى هذه الآية من سورة آل عمران والتى تشير إلى الدلائل المادية والعقلانية فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، مثلما جاء فى كثير من الآيات الكونية التى تتحدث عن الإعجاز فى الخلق ، وبديع صنع الله وإحكامه لعل أصحاب العقول المادية تستسلم عقولهم وتعلن عن عجزها عن إدراك الغيب ورب السماوات والأرض الخالق سبحانه وتعالى وواجب الوجود وراء ذلك الخلق الذى لايمكن إدراكه بمدركات العقل المادية ، ويستجيبوا لدعوة التوحيد وطاعه الله ورسوله ، ولم يأت ثناء على العقل الذى نظر فى هذه الآيات الكونية واكتشف العلوم الكونية ووضع أسساً لها ونظريات علمية فى مختلف علوم الكون ، ولم يتحرر من عقاله المادى ، وأسر المادية ، ووقف عند ظاهر الحياة الدنيا ، إنما جاء الثناء على الذين استسلمت عقولهم وعاشوا فى فلك التوحيد وهم يتفكرون أيضاً بعقولهم مثل غيرهم فى كل الآيات الكونية والمادية، والذين ترقت عقولهم بانفتاحها على التوحيد والطاعة ، فصارت

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ (٢) سورة البقرة : ١٧٩

(٣) سورة آل عمران : ٧

عقولهم ألباباً فبدأت رحلة فكرهم بالتوحيد وداروا فى فلك العبودية واختتمت بالتوحيد : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1]

فالعقل المادى الذى تحتويه الرأس ، وهو أداة إدراك الأشياء وله وظائفه مثل أى عضو من أعضاء الجسد ، وقد منحه الخالق سبحانه وتعالى لكل الناس، بلاتفرقه بين مؤمن وكافر ، ومطيع وعاص ، وهو أداة إدراك الأشياء ، وأما الغيب ، فلابد أن تكون له أداة إدراك أخرى غير أداة إدراك الأشياء ، وقد عبر عنها السلف بأنها لطيفة فى القلب أو الصدر ، لاتعمل إلا حينما يعلن العقل المادى عن استسلامه وعجزه عن إدراك الغيب وأنه صنعة مثله مثل أية صنعة تدركها حواسه ، ولايمكن للصنعة أن تدرك الصانع ، وأنه لابد أن وراء هذا الخلق خالق عظيم واحد أحد ، قادر مقتدر قد خلقه ، وهو ليس بشئ ، ولايمكن إدراكه بأداة إدراك الأشياء ،ولابد من الاستجابة له وطاعته ، وعندئذ تتفتح هذه اللطيفة وتعمل ولاتلغى عمل العقل ، وإنما يترقى الإنسان ويصير ذا لب يدرك المادة ويؤمن بالغيب ورب السماوات والأرض سبحانه وتعالى ، وما اللب إلا أول مدارج الترقى الإيمانى وهو مرادف لغوى للعقل وله دلائله الإيمانية من القرآن الكريم ومفهومه ، ويظل اللب يترقى فى معارج الإيمان.

٣ـ النهى :

وهو أحد المرادفات الإيمانية للعقل ، وقبل أن نبحث عن مفهومه الإيمانى فى الكتاب ، فلننظر أولاً إلى معناه اللغوى والذى أجمعت عليه معاجم اللغة العربية.

(نهىَ) عن الشئ ـ نهياً : زَجَر . ويقال : نهى الله عن كذا : حرمُه .

---

(٤) سورة آل عمران : ١٩١

(النّهيُّ) : ضد الأمُور .يقال : هو نَهُوٌّ عن المنكر ، أمُورٌ بالمعروف .

(النَّهيُ) : طلب الامتناع عن الشئ.

(النُّهِيَ) : العقل . (ج) نُهىً.

(تَنَاهى) : الشئ : بلغ نهايته .

(المْنتَهى) : الغاية والنهاية .

(الناهون) : الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله.

(النَّاهون) : يقال رجل ناهيك من رجُل : كافيك أن تطلب غيره .

(انْتَهىَ) الشئ : بلغ نهايته .

والذى نستخلصه من تلك المعان التى أجمعت عليها المعاجم ، أن النُّهىَ هو ارتقاء العقل الإيمانى الذى بلغ الغاية والنهاية ، فهو ارتقاء اللب الذى هو أول درجات العقل الإيمانى ، وتلك المرادفات للعقل خاصة بالعقل المؤمن فقط ، ولم تأت مرادافات للعقل غير المؤمن فى الكتاب ، بل أن الله سبحانه قد نفى عن الكافرين والغافلين العقل كلية ، كما بينا من قبل.

وبرغم ما جاء من ثناء الله سبحانه على أولى الألباب ، وتفكرهم فى الخلق وبديع صنع الله ومحكم آياته المحصور بين ذكر الله ، والعودة والانابة إلى الله ، إلا أنه سبحانه لم يحملهم مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلكل فى الإسلام درجة إيمانية ومقام معلوم ، ولكل درجة إيمانية دورها فى الحياة ومسئوليتها ، ولم يكلف الحق سبحانه كل مسلم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل جعل من بين المسلمين أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولم يترك هذه الأمة خاضعة لاختيار الساسة والحكام وأهل الحظوة عندهم ، أولأهل الأهواء والمصالح ، إنما يختار سبحانه جل شأنه هذه الأمة الأمرة بالمعروف والناهية عن المنكر من بين أمة الإسلام الكبيرة فى كل عصر وبسابق أمره ، وبسره المكنون بين الكاف والنون

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1] ، وحينما ورد ذكر هذه الأمة فى الكتاب لم يبين الحق سبحانه سبيل تشكيلها ، وكيفيته إنما أخبر بأن هذه الأمة الخيرية من أمة الإسلام الأمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، إنما هى أمة مكونة ومختارة من المولى عز وجل بأمر التكوين الإلهى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]، فليست رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى فرض على كل مسلم ، إنما هى مثلها مثل فلاحة الأرض ، فهل على كل مسلم أن يتعلم فلاحة الأرض ويمارسها ؟! فما البال والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى فلاحة فى أرض الأنسان ، أى نفسه.

وقد بين الحق سبحانه طريق هذه الأمة المفلحة فى ارض الإنسان وسبيله ، وذلك فى عدة آيات متتاليات فى سورة طه ، لابد من ذكرها كاملة ، إذ يقول جل شأنه مخاطباً نبيه موسى عليه السلام : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ولا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ والسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وتَوَلَّى * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي ولا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ [3].

وهكذا قد جاءت الآيات البينات التى أخبرت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأهله وسبيله الذى بينه المولى سبحانه وتعالى ، فأخبرت عن رسولا الله

---

(١) سورة يس : ٨٢ (٢) سورة آل عمران : ١٠٤

(٣) سورة طه : ٤٢:٥٤

موسى وهارون عليهما السلام وإرسالهما إلى فرعون بأمر من ربهم يأمرانه بالمعروف وينهيانه عن المنكر ، فلا يعذب بنى اسرائيل ويرسلهم ، وقد بين سبحانه طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك فى قوله جلت حكمته : (فقولا له قولا ليناً) ، وتتوالى الآيات تبياناً لطريق الحق والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وخلاصه القول فى هذا ، أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو فرض كفاية ، وليس بفرض عين على كل مسلم ، إنما أمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من بين أمة الإسلام ، إنما هى أمة قد تكونت ، وتتكون فى كل عصر بالأمر الإلهى التكوينى كن ، ولم يترك المولى عز وجل تكوين هذه الأمة أو اختيارها لأهواء الساسة وحكام المسلمين ، وأصحاب المصالح ، ولم يجعلها أيضاً وفقاً على إحدى الفرق الإسلامية أو الأحزاب والجماعات.

وعلى السادة علماء المسلمين الأجلاء أن يراجعوا فقه الحسبة ـ كما يسمونه ـ أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فالذى وضع هذا الفقه منذ أكثر من الف سنة هم بشر يخطئ ويصيب ولم يكونوا أنبياء ، ولم يكن أحدهم معصوماً من الخطأ ، فمن الفقه الذى وضعوه ما يناسب عصرهم ، وربما لايناسب عصرنا . خاصة ونحن فى عصر قد صارت فيه المجتمعات الإسلامية مخترقة من قبل أعداء الإسلام ، وليس هذا وحسب ، إنما أصبحت بيوت المسلمين مخترقة أيضاً عن طريق أجهزة الاتصال الحديثة ، مثل شاشات التليفزيون وغيره ، ولايستطيع أحد أن ينكر أن فى استطاعة أعداء الإسلام أن يكونوا جماعات داخل المجتمعات الإسلامية وينفقوا عليها ببذخ تحت شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويكون الهدف المستور وراء ذلك هو تخريب الإسلام من داخله، ونشر الكراهية بين المسلمين ، وتنفيرهم من دينهم ، وردة

شباب المسلمين ، وتحويلهم إلى الإلحاد ، وليس على جهلاء المسلمين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكم رأينا فى الأعوام الماضية جماعات يطرقون أبواب المسلمين يدعونهم للإسلام وتقوى الله والصلاة ، وكم ذهبت إلى المساجد الذين ينزلون بها ويدعون الناس إلى صلاة العشاء بها لأنهم سوف يقولون كلاماً طيباً بعد صلاة العشاء ، وكأنما يدعونهم إلى حفل عشاء، ورأيت أن أحدهم يؤم الناس فى صلاة العشاء ، وما أن يسلم التسليمتين حتى يقف مسرعاً ويلتفت إلى المصلين ويحدثهم عن الصلاة ويدعوهم للصلاة ، بينما يكون مازال البعض منهم فى صلاته ، سواء كان قد فاتته ركعة أو ركعتين ، أو يقيم سنة العشاء بعد أن صلى الفريضة ، وتراهم يحفظون كم آية يرددونها أو ربما بعض الكلمات من الآيات ، ولما تكرر طرقهم بابى ودعوتهم لى للإسلام وتقوى الله والصلاة واطلعت على جهلهم ، وذهبت إلى المسجد للوقوف على ما يقولون ، وأيقنت أنهم جماعة من الجهلاء والمخربين فى دين الله ، فأخذت أصدهم مراراً، ولكنهم لم يتراجعوا عن طرق بابى فذهبت إليهم فى المسجد أكثر من مرة وواجهتم بجهلهم على الملأ ، وكان الأمر يسيراً ، فهم يضعون كتاب رياض الصالحين فى كل مسجد ينزلون به ويعتبرونه مرجعيتهم ، وبهذا الكتاب القيم فى السنة فصل تحت عنوان كراهة الحديث فى المسجد بعد صلاة العشاء ، ومع ذلك فلم ينتهوا ، وظلت فى عناء مع جهلهم حتى ابتعدوا عن طرق بابى ودعوتى للإسلام ، وهكذا قد اتخذا لجهلاء من أنفسهم أوصياء على دين الله ودعاة وهداة ورقباء على المؤمنين فى بيوتهم ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ولاسبيل أسرع وأسهل للقضاء على مسيرة الحق من أن يتصدرها الجهلاء ، وهذا هو السبب الأول والرئيسى لما تعانى منه الأمة الإسلامية فى عصرنا : أن الجهلاء قد تصدروا مسيرة الإسلام.

٤ـ القلبُ:

والقلب هو أحد المرادفات اللغوية للعقل ، إلا أن له مفهوماً إيمانياً ، وهو ليس المقصود به تلك المضغة العضلية فى صدر الإنسان بمالها من وظائف حيوية ، والتى يحويها صدر كل إنسان ، لافرق فى ذلك بين مؤمن وكافر ، بل ويحويها أيضاً صدر كل حيوان وكل طير ، إنما القلب فى القرآن هو مرادف إيمانى للعقل المطيع وهو درجة من درجات الترقى الإيمانى للعقل المطيع الذى بدأ باللب كما بينا وترقى إلى النهى ، ثم القلب ، ولننظر أولاً فى معناه اللغوى.

القَلْبُ : عضو عَضلِّى أجوف يستقبل الدَّم من الأوردة ويدفعه إلى الشرايين وقد يعبر بالقلب عن العقل ، و(قلْبُ كُلِّ شئ) : وسطه ولُبَّهُ ومحْضُه.

إذن فالقلب هو أحد مرادفات العقل ، وقد ورد ذكر القلب كثيراً فى آى الكتاب بأنه أداة اكتمال الإدراك الذى يجمع بين إدراك الأشياء وأسبابها وسلم بما وراء الأسباب ، فانفتح على السبب الأول . وواجب الوجود ، وأمن بخالق الوجود ، واستجاب لدعوة الحق فأطاع الله ورسوله ،وترقى بالطاعات وتقرب إلى الله وترقى فى مدارج القرب وسما فى درجات العقل المطيع حتى وصل إلى درجة القلب الإيمانى ، وكما جاء المعنى الغوى أن : (قلب كل شئ) : وسطه ولبه ومحضه ، وقد تطهر دم المؤمن من الشيطان وبرئ وهو الذى يجرى من ابن آدم جريان الدم من الجسد ، كما جاء فى الحديث الشريف ، وقد جعل الله القلب أعلى درجات الإدراك الإيمانى ، به يسمع المؤمن ويبصر ويدرك ، وهو موضع اكتمال الإدراك الذى نفاه الله عن الكافرين والغافلين مثلما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

(١) سورة الحج : ٤٦

ومما هو واضح من هذه الآية ومن الآيات التى وردت فى الكتاب الكريم وقد ورد فيها ذكر العقل الذى هو مكانه الرأس وقد تحول فى حالة الإيمان . وتحولت وظائفه من سمع وبصر وإدراك إلى القلب الذى موضعه الصدر ، أو كأن القلب بما يضخه من دم إلى العقل الذى هو فى الرأس وإلى سائر أعضاء الجسد ، قد تطهر بعد الإيمان والترقى من دنس الشيطان وكدورات النفس فصار هو المهيمن على العقل وسائر أعضاء الجسم بما يضخه من دم نقى تم تطهيره فى القلب المؤمن ، وما هو الا هدى رسول الله ﷺ إذ يقول : (**كل مولود يولد لابن آدم يمسه الشيطان فيصرخ إلا مريم وابنها**)[1]. وبهديه ﷺ ، نستطيع أن نقول بلغة العصر، فمس الشيطان لمولود ابن آدم بمثابة الشفرة التى يزوده بها حتى يكون له اتصال به، ولم يترك الحق سبحانه ابن آدم لعبة للشيطان، بل زوده من قبل بالشفرة الإيمانية التى يستقبل بها نداء الغيب ودعوة الحق ، والتى عبر عنها السلف بأنها لطيفة فى القلب غير حسية لاتعمل إلا بعد استسلام العقل المادى الذى هو أداة إدراك الأشياء وقصوره عن إدراك خالقه ، فما هو إلا صنعة ووراء كل صنعة صانع ، وحاشا للصنعة أن تدرك الصانع ، وعندئذ يؤمن بأن وراء هذا الخلق خالق عظيم قادر مقتدر واحد أحد.

وكما أن القلب أيضاً يعبر عنه بمناط الشعور سواء كان حبا أو كراهية وسواء أيضاً كان فرحاً أو حزناً ، وقد يُعبر عن ذلك بما فى الصدر ، أى بمركز الشعور ، وقد وحد الله وألف بين قلوب المؤمنين على اختلاف عقولهم ، لما جمعوا فى قلوبهم من توحيد ، فقد ألف الله بين قلوبهم:﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[2]، وفى المقابل يخبرنا المولى عز وجل عن قلوب الكافرين والمشركين ونذكر فى ذلك ما جاء فى سورة الحشر : ﴿ **لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ**

---

(١) رواه الترمذى . (٢) سورة الأنفال : ٦٣

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ * لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إلا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾(١).

إذن فالقلب المؤمن فى القرآن هو أحد مرادفات العقل المطيع ، وهو درجة من درجات الترقى الإيمانى ، وقد انجلى ماران عليه من صدأ وصقلت مرآته القلبية وانجلى أيضاً سمع قلبه وصار فى أعلى الدرجات الإيمانية ، فالقلب هو مركز تنزل الفيوضات الإلهية واستقبال الأنوار والوحى أيضاً ، فعلى قلب رسول الله ﷺ قد تنزل القرآن الكريم ، ولم يتنزل على عقله : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُواً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وقلب رسول الله ﷺ كان مرآه صافية مهيأ لاستقبال الوحى من قبل الرسالة ومن قبل أن يتنزل عليه القرآن الكريم : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٣).

والقلب هو موضع نظر الحق سبحانه وتعالى من عباده كما جاء فى الحديث القدسى الذى رواه المصطفى ﷺ عن رب العزة.

«**إن الله لاينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

وكما جاء فى الحديث الشريف المتفق عليه : «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ مانوى**» والنية محلها القلب وللقلب درجات منها القلب المنيب ، أى الراجع إلى الله : ﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾(٤).

---

(١) سورة الحشر ١٣:١٤ (٢) سورة البقرة : ٩٧

(٣) سورة الشعراء : ١٩٢:١٩٥ (٤) سورة ق ٣١:٣٣

ثم القلب السليم وهو قلب الأنبياء والصديقيين والصالحين ، وهو دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام وبه لاقى ربه : ﴿ **ولا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾[1] ، وبعد أن ذكر الحق سبحانه نبيه نوحاً عليه السلام جاء ذكر أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال سبحانه : ﴿ **وَإِنَّ مِنْ شِيْعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ* إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقلبٍ سَلِيمٍ** ﴾[2] ، ولم يبق للعقل الطائع من ترق فى مدارج الإيمان سوى درجة خاصة برسول الله ﷺ.

٥ـ الفؤاد :

ولننظر فى المعنى اللغوى فى معاجم اللغة العربية للفؤاد ثم نبحث عن مفهومها الإيمانى فى الكتاب ، وما ورد عنها أو بشأنها فى السنة المطهرة ، فكما جاء فى معاجم اللغة : (فُئِدَ) : أصابه داء فى فؤاده . فهو مفؤد!

الفؤاد : القلْبُ . وفى القرآن الكريم: (مَاكَذَبَ الفؤاد ما رأى.

إذن فالفؤاد هو القلب ، وقد جاء أيضاً أنه سويداء القلب أو خلاصته ،وبما أن القلب المؤمن هو عقل مطيع أو هو أحد مرادفات العقل ، وهو أداة إدراك الغيب واستقبال نداءه وطاعة أوامره ، فإن الفؤاد هو المنتهى ، وهو الذى رأى رسول الله ﷺ به ربه عند سدرة المنتهى : ﴿**مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * ولَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى*عِندَ سِدْرَةِ المُنتَهَى** ﴾[3] ، ولما سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها : كيف رأى الرسول ﷺ ربه فى رحلة المعراج ، قالت: رأه بالفؤاد . وقد سماه ربه سبحانه الفؤاد ، كما وردت أسماء أخرى لرسول الله ﷺ سماه ربه سبحانه بها ، مثل المزمل ، والمدثر ، وطه ، ويس ، كما جاء بالقرآن الكريم.

---

(١) سورة الشعراء ٨٧:٨٩ (٢) سورة الصافات ٨٣:٨٤

(٣) سورة النجم : ١١: ١٤

وقد زُين سقف الروضة النبوية الشريفة بأسماء رسول الله ﷺ والتى وردت فى القرآن الكريم ، والتى استنبطها العلماء من آيات الكتاب ، وهم مائة وإثنان إسماً منهم الفؤاد وقد ورد ذكر الفؤاد فى الكتاب للناس جميعاً كمرادف للقلب مثلما جاء فى سورة الملك : ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾[1] ولما سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن ليل رسول الله ﷺ ، كيف كان يقضيه ، قالت : كان يقوم حتى تتورم قدماه، وأقول له لمَ النصب يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فكان يقول: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً.

فقد كان الفؤاد ﷺ ، عبداً شكوراً ، ولم يأت وصف فى القرآن الكريم لأفئدة المؤمنين ، ففؤاد المؤمنين واحد ، وكل فؤاد مستمد من الفؤاد الشكور صلوات الله وسلامه عليه ، ولقد أخبرنا الحق سبحانه فى كثير من أى الكتاب أن الشكر هو الإيمان كما ورد فى كثير من الآيات إذ يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً** ﴾[2] ، ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي ولا تَكْفُرُونِ** ﴾[3] والآيات التى جاءت فى الشكر كثيرة ، وكلها تشير أن الشكر هو الإيمان.

فقد توحدت أفئدة المؤمنين وذابت فى الفؤاد الشكور ﷺ .

ولم تختلف وتتنازع أهواء أفئدتهم ، فكان هواهم جميعاً تبعاً لما جاء به الفؤاد ، وفى هذا يقول الصادق المصدوق صلوات الله ﷺ: « **لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[4] وفى حديث آخر يقول « **لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه**[5] ، وفى هذا أيضاً يقول القرآن الكريم:

﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾[6].

---

(١) سورة الملك : ٢٣ (٢) سورة الإنسان : ٣
(٣) سورة البقرة : ١٥٢ (٤) الجامع الصغير
(٥) الجامع الصغير (٦) سورة الأحزاب : ٦

وأما أفئدة الكافرين والغافلين، فهكذا قد جاء وصفها فى القرآن الكريم : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ*مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[1] ،

وأفئدتهم هواء ، أى لاثقل لها ولاوزن ، تنجذب إلى أسفل إلى الأرض كما ينجذب الهواء ، ولاترتقى ولاترتفع ، مذبذبة مترددة متشتتة ، لاوجهة لها، وفى سورة الأحقاف جاء ذكر أفئدة الكافرين والغافلين أيضاً إذ يقول سبحانه : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ولا أَبْصَارُهُمْ ولا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾[2] ، وأما المؤمنون فهم كما بينا قد تجردوا من الهوى ، وأصبحت وجهتهم واحدة تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ ، وفى سورة الكهف يقول سبحانه﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[3] ،فالمؤمنون فى جهاد مع أهوائهم حتى تخلوا قلوبهم من كل هوى ،ويذوب فؤاد كل فى الفؤاد صلوات الله وسلامه عليه ، فهو مجمع أفئدة المؤمنين .

***

(١)سورة إبراهيم : ٤٢:٤٣ (٢) سورة الأحقاف : ٢٦

(٣) سورة الكهف : ٢٨

البصر والبصيرة

وكما أن البصر هو أداة من أدوات إدراك العقل الذى هو إداة إدراك الأشياء، فقد جعل الحق سبحانه البصيرة للمؤمنين أداة إدراك الأشياء وما بعد الأشياء، أى إدراك الطبيعة بأداة إدراكها البصر واحتوائها فيما وراء الطبيعة بمدركات العقل الإيمانى الذى يؤمن بالغيب ، وهذه المدركة خاصة بالمؤمنين ، وقد نفى الحق سبحانه وتعالى عن غير المؤمنين أن يكون لهم بصيرة ، بل يبصرون ويسمعون بأدواتهم الحسية وحسب ونفى عنهم البصر والسمع بل والعقل أيضاً، وكأن سمعهم وإبصارهم وإدراكهم أواهم ، ولاتكتمل حقيقة السمع والإبصار والعقل إلا بالإيمان بالغيب : ﴿ مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى والأَصَمِّ والْبَصِيرِ والسَّمِيعِ﴾[1]، ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾[2]، ويعيشون فى الحياة الدنيا به، إلا أن ذلك محدوداً بالأشياء الحسية ، ووقفوا عند إدراكات الصنعة المحدودة ، ولم يسلموا بأن وراءهم ووراء هذا الكون العظيم صانع ، خالق قادر مقتدر خلق من عدم ، أما المؤمنون فقد كانت رؤيتهم وسمعهم مختلفة فقد اكتمل سمعهم فاستجابوا لنداء الحق سبحانه وأبصروا بالبصيرة وعين الحقيقة، وكانوا يرون فى رسول الله ﷺ الحقيقة التى حُجبت عن الكفار والغافلين وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :﴿وتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾[3] ، ﴿ومَا يَسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ﴾[4] ، ﴿ ومَا يَسْتَوِي الأعْمَى والبَصِيرُ والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ولا المُسِيءُ قَلِيلا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾[5] ، وقد سمى الحق سبحانه وتعالى القرآن الكريم بالبصائر وبه يبصر الحق المؤمنون وهو النور أيضاً الذى يبصرون به الحقيقة ، وقد سماه أيضاً نوراً وسمى رسوله الكريم نوراً ، فالمؤمنون يرون الحقيقة ببصيرة النور،

---

(١) سورة هود : ٢٤ (٢) سورة هود : ٢٠.

(٣) سورة الأعراف : ١٩٨ (٤) سورة فاطر : ١٩

(٥) سورة غافر : ٥٨

بالقرآن وبرسول الله ﷺ : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾[1] ، ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] ، فلابصائر للكافرين والغافلين، ولايتصف بها غير المؤمن ولايقال عنه إنه بصير، وإن كانت اللغة تجيز ذلك إلا أنها تحدد المعنى بأنه بصير بالشئ أى علم به ، وبه تبصر ورآه ، كما لايتصف غير المؤمن بأنه لبيب، فاللبيب مشتق من اللب ، واللب هو درجة عقلية راقية لاتتأتى لغير المؤمنين ، كما بينا من قبل ، وقد تجلى الحق سبحانه على عباده الطائعين ببعض أسماء صفاته ، مثل المؤمن والشكور والسميع والبصير ، وهم كلهم من أسماء الله الحسنى ، فسبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[3] ، ﴿ واللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[4] ، وقد جاء فى الحديث القدسى الذى رواه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه : « ومازال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى به يسمع وبصره الذى به يبصر» ونكتفى بهذا إشارة لكل من ألقى السمع وهو شهيد، وكل لبيب بالإشارة يفهم ، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين وعلى الله وصحبه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

وخلاصة ما قدمنا فى العقل ومرادفاته ، أن العقل هو أداة إدراك الأشياء ، وبما أن الغيب ليس بشئ ، فلايمكن إدراكه بأداة إدراك الأشياء إنما أداة إدراك الغيب لابد أن تكون أداة إدراك غيبية ، وهى لطيفة فى القلب أو الصدر ، وهذه اللطيفة يمكن التعبير عنها بلغة العصر فنقول إنها شفرة ، لاتعمل إلاحينما يستسلم العقل المادى ويعلن عن قصوره عن إدراك الغيب ويؤمن برب العالمين، ويستجيب لطاعته ، وعندئذ تعمل هذه الشفرة ويترقى العقل المطيع

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٤ (٢) سورة الأعراف : ٢٠٣

(٣) سورة الشورى : ١١ (٤) سورة البقرة : ٩٦

إلى أن يصير لباً فنهى فقلباً ، ففؤاد قد ذاب فى فؤاد المؤمنين ، فى الفؤاد ﷺ والذى هو مجمع أفئدة المؤمنين ، وهذه المرادفات الإيمانية للعقل لا تنطبق إلا على المؤمنين الذين استجابوا لدعوة الله ورسوله فانتقلوا إلى حياة جديدة، أى حياة الإيمان والطاعة.

ولعل بما قدمت أكون قد أجبت على سؤال صغيرى وهو فى فطرته مثلما يراود أهل الفطرة من أقرانه ، والذين بلغوا الآن مثلما بلغ مبلغ الشباب وهم يعيشون فى متاهة وضياع بين الحديث والقديم ، والاصالة والتجديد ، والهدم والتبديد ، ويحملهم جيل الأباء مسئولية ماهم فيه من متاهة وضياع ، وهم من ذلك براء ، وهذا ما سوف نتناوله فى فصول قادمة بمشيئة الله ، وأتذكر ما سألنى صغيرى منذ اكثر من خمسة عشر عاماً ، إذا كان الله يعرف بالعقل ، فكيف أن الناس الذين صعدوا إلى القمر وداروا بمراكب الفضاء حول الكرة الأرضية ، قالوا أين هو الله أننا لم نره؟! فهل لاعقل لهم !! ونضيف أيضاً ، وقد صنعوا الأجهزة الحديثة التى تطير لها العقول مثل جهاز التليفزيون ، والهاتف المحمول، والكمبيوتر وشبكة الاتصالات العالمية (الانترنت) والأقمار الصناعية التى تدور فى أفلاك حول الكرة الأرضية ، ونرى منهم علماء فى الذرة والاتصالات والهندسة الوراثية وأحدث علوم العصر ، ومع ذلك يعبدون الإله بقرة أو البقرة المقدسة ، أو أصنام من حجر لاتفيد ولاتضر.

فلو كان ربنا عرفوه بالعقل ، كما يقول القول الشائع فى المنظومة الفكرية الحديثة التى نعيش بها ، والتى تحولت إلى منظومة حياتية كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره ، لترك الخالق سبحانه الإنسان وعقله حتى يعرفه ، ولما بعث رسلاً وأنبياء عبر العصور لكى يعرفوا الناس بربهم ، ويبينوا المنهج الذى أرتضاه لعبادته . وإنه لأمر جد مهم أن يعرف المؤمن كيف عرف الله ، فيلتزم فى دعوته لله التى أمر بها بحدود

عبوديته ، ولاينسى أنه عبد لله ، والكل عبيده ويلتزم حدوده ، فلايضع نفسه فى دور الربوبية أو النبوة ، فلايعترض حتى على الكافرين ، فتلك مشيئة الله ، والاعتراض على كفرهم اعتراض على مشيئة الله ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾[2] ،وقد جاءت الايات لتبين حدود العبودية التى التزم بها رسول الله ﷺ، وذلك كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي ﴾[3] ، كما أخبره المولى أن الهداية بمشئية الله وحده، ولايستطيع الرسول أن يهدى أحداً ، وإن كان من أحبابه أو عشيرته : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[4] ، ﴿ وقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن ومَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[5] ، كما بين المولى عز وجل لرسوله الكريم طريق الدعوة إلى الله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[6] ، والحكمة كما اجمع علماء الأمة ، وكما بينا من قبل هى السنة المطهرة والحكمة هى قول وعمل كما هو حال السنة، ولم ينتشر الإسلام بالسيف كما يقول أعداء الإسلام ، ولم ينتشر أيضاً بالقرآن ، إنما انتشر الإسلام وقام بأخلاق رسول الله ﷺ ، والذى وصفته السيدة عائشة رضى عنها: كان خلقه القرآن وكان قرآناً يمشى على الأرض ، وقد وصفه الحق سبحانه فقال: ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[7] ، ﴿ ولَوْ كُنتَ فَظاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[8]،

وفى هذا يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ملخصاً بعثته الشريفة: «إنما بعثت لأتتم مكارم الأخلاق» ، وانظر إلى الأخلاق فى رقيها وسموها ،

---

(١) سورة يونس : ٩٩ (٢) سورة البقرة : ٢٥٦ (٣) سورة البقرة : ٢٧٢
(٤) سورة القصص : ٥٦ (٥) سورة الكهف : ٢٩ (٦) سورة النحل : ١٢٥
(٧) سورة القلم : ٤ (٨) سورة آل عمران : ١٥٩

الذى ليس بعدها رقى ، وليس لمثيلها سمو وذلك فيما أمر به جل ثناؤه فى تعامله مع المشركين والدعوة إلى الله : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

وصار المسلمون على هدى رسول الله ﷺ ، وانتشر فى كل ارجاء المعمورة، وأينما حلوا كانوا يعيشون بين الناس ويتعاملون معهم بالأخلاق الكريمة ، فكان الناس يحترمونهم ويحبونهم ويدخلون فى الإسلام دين الأخلاق الكريمة والرحمة والإنسانية والسمو والرقى.

---

(١) سورة التوبة : ٦

العلم والنور والفكر
وأهل الذكر

وبعد أن تناولنا مفهوم العقل ومرادفاته فى اللغة والكتاب ، وهو أساس الأسس التى قامت عليها منظومة الفكر الحديث التى نعيش بها ، والتى تحولت إلى منظومة حياتية كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره ، وقبل أن نبحث عن الأسباب التى أدت إلى هذه اللوثة الفكرية التى شملت الفكر العربى فى عصرنا والتى أدت إلى فقدان الهوية العربية والشخصية القومية والإسلامية ، وتحول الإسلام إلى متاهة ، ونشأت أجيال ضائعة راقصة بين الشرق والغرب والقديم والحديث ، والأصالة والتجديد، والهدم والتبديد ، حتى بلغ جيل شبابنا المنتهى فى الضياع والتخبط فى الظلمات، ونسقط عليه اللوم ، وكأنه هو المسؤول عن تربيته ، ولامسؤولية على جيل الأباء ، والحق نقول : أننا إذا كنا نبحث عن الحق وإحقاقه ، فلابد أن نأخذ بالموازيين القسط التى بينها المولى عز وجل فى كتابه الكريم لإحقاق الحق ، ونتبع الطريق الذى بينه الله سبحانه فى ذلك ، وهو التجرد الكامل من الذات والأبوين ، وليس بعد ذلك تجرد ، ولايبقى هوى ، فلا ننحو باللائمة على فرد أو جماعة أو حتى على جيل برمته ، وإذا وجدنا أعذاراً لأى ، فلابد أن نعلنها ونبينها ، فالغاية هى إحقاق الحق ، والوصول إلى جذور الأسباب التى أدت بنا إلى ما نحن فيه من لوثة فكرية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾[1] ، وفى ذلك أيضاً يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩١ (٢) سورة المائدة : ٨

وقبل أن نبحث عن أسباب وجذور اللوثة الفكرية التى عمت كل فصائل المجتمع ، وليست الفصائل الدينية وحسب ، إنما كل الفصائل التى تهتم بالشأن الاجتماعى ، سواء كانت فصائل سياسية بكل توجهاتها ، أو مايسمى بالنخبه فى الفكر والأدب والإعلام وغيره من ابداعات العقل ، فلابد لنا أن نتناول ايضاً بقية الأسس التى قامت عليها المنظومة النشاز للوثة الفكرية التى نعيش بها ، مثل العلم والنور والفكر وأهل الذكر.

أولاً : العلم والعلماء :

وكما بينا من قبل أن العقل أداة إدراك الأشياء ، وعن طريق العقل الذى ميز به الله الإنسان عن سائر المخلوقات ، فقد فطر على فحص الأشياء والوقوف على صفاتها وخواصها ومعرفة النافع منها والضار عن طريق مدركات الأشياء أو أدوات العقل من حواس الإنسان الخمس ، وهذه المنة التى من بها الخالق سبحانه على الإنسان وفضله على كثير مما خلق هى ممنوحة لكل إنسان ، وإن اختلفت القدرات العقلية أو ما يطلق عليه الذكاء من إنسان لآخر ، وبهذه الأداة اى العقل أخذ الإنسان يتعلم ويفحص كل ما تقع عليه حواسه ، ويورث ما علم لأبنائه فيضيفون ويزيدون ويصححون جيل بعد جيل ، وهذه كلها علوم مكتسبة ، فكل ما حوته الكتب وما يتعلم من خلال الكتب فهو علم مكتسب ، وهو أمر متاح لكل إنسان ، لاارتباط بينه وبين الكفر أو الإيمان ، حتى وإن كانت علوم الشريعة الإسلامية ذاتها ، فهى متاحة لأى إنسان كى يتعلمها ، وربما يتفوق فيها الملحد عن المؤمن ، فأمرها كأمر العلم المكتسب كله تخضع لدرجة ذكاء الدارس واجتهاده.

وكما بينا أيضاً أن للعقل مرادفات إيمانية خاصة بالمؤمنين وحسب ، وبهذه المرادفات التى انفتحت على الإيمان بالغيب واستجابت لدعوة الله ورسوله تتفتح لها علوم لايمكن إدراكها إلا بالإيمان بالغيب ، والإلتزام بالطاعات ، واجتناب المعاصى ، والتقرب إلى الله بالنوافل ، والله يمن ويتفضل على من يشاء من عباده،

ويهب لمن يشاء من العلوم الوهبية ، كما أطلق عليها السلف الصالح ، وكما ذكرنا من قبل أن الإسلام ليس علوم تُقرأ وتُدرس ، وحسب ، وأمره متاح لأى إنسان أن يتعلمه ويعلمه حتى وإن كان ملحداً ، إنما الدين الإسلامى هو علم مكتسب وذوق ، أى فعل وممارسة ، وما تأتى به العلوم الوهبية أو الذوقية ، ومهما كتب عن هذه العلوم الذوقية ، فلايمكن تحصيلها إلا بالذوق ،ولاتكتمل حقيقة الإسلام إلا بالعلم والذوق معاً.

وإذا نظرنا فى آى الكتاب التى ورد بها لفظ علم أو أحد مشتقاته ، فلن نجد آية واحدة تثنى على العلم على إطلاقه وأهله ، إنما قد جاء الثناء على الموحدين منهم والذين ينظرون فى كل شئ حولهم ويدرسون علوم الكون ويتأملون ويعيشون فى فلك التوحيد ، وإذا وردت آية تحث الإنسان على النظر فى أى علم من العلوم الكونية وتلفت نظره إلى دقة صنعة الخلق وإحكامه ، فما ذلك كله إلا من أجل الوصول إلى التوحيد والتسليم بواجب الوجود الخالق الواحد الأحد بديع السماوات والأرض سبحانه الذى أحسن كل شئ خلقه ، وأما أهل العلوم الدنيوية غير الموحدين فلم يأت ثناء عليهم ، بل جاءت الآيات تستنكر عقولهم وعلومهم التى لم تصل بهم إلى التوحيد وحتى أن الله قد شبههم بالأنعام بل هم أضل وقد نفى عنهم العقل والعلم معاً ، ولانستطيع أن نحصر كل الآيات التى وردت فى هذا لضيق الموضع ونكتفى بذكر هذه الآيات :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيحَهُ واللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(١) ، ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً ﴾(٢) ، ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ ولا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣)

(١) سورة النور : ٤١ (٢) سورةمريم : ٦٥
(٣) سورةهود : ٤٩

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المتكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالمَينَ * وَلتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾(١)

وانظر فى هذه الآيات الكونية من سورة يونس والتى تلفت نظر الإنسان إلى بديع صنع الله وإحكام نواميس الطبيعة لكى يستسلم عقله ويعلن عجزه عن إدراك ما وراء الطبيعة ويقر بالعبودية لرب العالمين ويلتزم بالطاعات : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والْقَمَرَ نُوراً وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ومَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ورَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بِهَا والَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾(٢). وهكذا قد جاءت الآيات بتصريح لا التباس فيه بأنها تذكرة للغافلين الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ونسوا ما بعد الموت ، وبتذكرة بالخالق سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفرد الصمد ، وحث على العمل الصالح ، وبشرى للمؤمنين الموحدين الذين يعملون الصالحات بما ينتظرهم من جزاء فى الآخرة وما بعد الموت ، ونذير ووعيد للغافلين والكافرين بالنار فى الآخرة والعذاب الشديد بعد الموت ، أولئك الذين نظروا فى هذه الايات الكونية وتعلموا لدنياهم وحسب ، ولم يؤمنوا بالله ولم يعملوا لما بعد الموت.

فالحركة العلمية فى اطراد مستمر وتتطور وتصحيح منذ الخليقة ، ولم يكن الإنسان فى حاجة إلى من يذكره بأهمية العلم ودراسة وفحص وتأمل كل ما يقع عليه بصره وحواسه فى هذا الكون والبحث فى اسراره ، إنما هو فى حاجة دوماً إلى من يذكره بما هو غافل عنه ، وهكذا قد جاءت الآيات العلمية فى القرآن والتى لم يقف العلم على اسرار الكثير منها إلا فى عصرنا بتطور العلم المذهل وبمعطياته

---

(١) سورة ص ٨٦:٨٨ (٢) سورة يونس : ٥:٩

الحديثة حتى تأخذ بيد إنسان العصر إلى التوحيد وتعرفه بواجب الوجود الذى عجزت عقله آياته فى الكون والتى لاتنتهى مهما تقدم العلم ومهما ارتقى العقل المادى للإنسان ومدرك الأشياء .

وإذا كان رسول الله ﷺ قال فى الحديث المتفق عليه : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» فليس المقصود بالعلم هو مطلق العلوم ، وإلا لما استطاع أن يحققه أى مسلم منذ بعثة النبى ﷺ إلى أن تقوم الساعة ، إنما قد جاء العلم مقيداً بالفريضة ، وكلمة فريضة فى الإسلام الملتزم بها طائع وتاركها عاصى ، وإذا كان المقصود بالعلم فى هذا الحديث الشريف هو العلم على إطلاقه والذى هو أساسه تعلم القراءة والكتابة ، فمعنى ذلك أن الذين عاشوا على الأمية بالأبجدية منذ عصر النبى ﷺ حتى يومنا هذا هم عصاة ، وكيف يكون هذا ، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة من أصحاب الرسول ﷺ إلا القليل النادر وقد عاشوا وماتوا على أمية أبجدية القراءة والكتابة رضى الله عنهم أجمعين ، وفوق ذلك كله فقد كان رسول الله ﷺ أمى أى لايجيد القراءة والكتابة.

ومع ذلك فقد فرض رسول الله ﷺ طلب العلم الذى تقام به الفريضة على كل مسلم ، ولم يفرض الله ورسوله أمراً فى الدين إلا إذا كان فى مقدرة كل إنسان أن يأتيه ، مهما اختلفت العقول وتباينت قدرات الإنسان الذهنية والنفسية والصحية ، فالعلم الذى تقام به الفرائض سواء كانت العبادات أوالحلال والحرام والأخلاق والمعاملات والحدود يمكن تعلمها عن طريق السمع فى المساجد من المشايخ ، وهو العلم الذى فرضه النبى صلوات الله وسلامه عليه طلبه على كل مسلم ، وتاركه عاصى لما يترتب عليه من جهل بالفريضة والتى هى تاركها عاصى ، ولايمكن القيام بها مع الجهل بها.

فلم يجعل رسول الله ﷺ طلب علم الفيزياء والكيمياء والفلك والتاريخ والجغرافيا وغيره من العلوم فريضة على كل مسلم ، إنما صدر أمر رسول الله

ﷺ مقيد بالفريضة ، وإذا قيد الله ورسوله أمراً فلا يحق لأحد إطلاقه ، ولم يُبعث النبى صلوات اله وسلامه عليه داعياً للعلم ، ولم يكن هذا دور رسل الله وأنبيائه عليهم السلام ، ولم يكن الإنسان يوماً فى حاجة إلى من يدعوه للعلم وقد خلق وفطر على التعليم والبحث والاستقصاء ، إنما هو فى حاجة إلى من يذكره بما هو غافل عنه ، ولم يُبعث النبى للقضاء على أمية الأبجدية أو الجهل بالقراءة والكتابة ، إنما قد بعث للقضاء على جهل الجاهلية ، والدعوة إلى توحيد الله ، وترك عبادة الأصنام والأوثان والقضاء على أخلاق الجاهلية الرذيلة ، وإتمام مكارم الأخلاق ، كما بينا من قبل ، وكما جاء فى كلمة جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه لملك الحبشة والتى لخص فيها الرسالة الخالدة والتى فحواها التوحيد ومحو الأمية الأخلاقية.

وإذا كان الرسول ﷺ قد اشترط فى إطلاق أسرى بدر أن يطلق سراح كل من يعلم القراءة والكتابة منهم عشرة من المسلمين فليس معنى ذلك أن الإسلام دعوة لمحو الأمية الأبجدية ودعوة للعلم ، كما يردد المرجفون فى المدينة وخدام الفكر الغربى الذين انحرفوا بدعوة الإسلام وصوروها على أنها دعوة للعلم وحسب ، فقد كان الشرط الذى اشترطه النبى ﷺ لإطلاق أسير بدر هو تعليم المسلمين الموحدين الذين تعلموا منه علم الفريضة أن يتعلموا أمراً مفيداً فى الحياة الدنيا ، ولايستطيع أحد أن ينكر أهمية تعلم القراءة والكتابة وأى علم يقوم عليهما ،وليس فى معنى كلامنا أننا ندعو لأمية الأبجدية ، إنما هو النظر والفحص بعين الحق والحقيقة فى منظومة الفكر الحديث التى نعيش بها والتى تحولت إلى منظومة حياتية كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره وفى الغزوة العلمانية التى قامت بتزوير الوعى بالدين وتزييفه وحولته إلى علم كسائر العلوم حتى فقد كتاب الله قدسيته ، وبما أن الغش قد صار سنة العملية التعليمية المصرية ، فقد صار الغش من المصاحف وتمزيق أوراق القرآن الكريم وعملها برشام والغش منها أثناء الامتحانات

التحريرية للقرآن الكريم فى المعاهد الأزهرية وكليات جامعة الأزهر هو أمر يكاد أن يكون من أعراف العملية التعليمية مثلما هو منتشر فى سائر العلوم أثناء الامتحانات فى مختلف مراحل التعليم ، ثم يتخرج الداعى إلى الله ويقف فوق المنبر ويردد حديث رسول الله ﷺ : « من غشنا فليس منا».

وليست حالات الغش فى العملية التعليمية ظاهرة فردية ، إنما هى من مظاهر اللوثة الفكرية التى أصابت الفكر العربى بصفة عامة ، وهى من آثار تزييف الوعى الذى بينا وأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والذى عمل على تزييف الوعى الدينى وتزويره هم السادة الدارسون العائدون من جامعات الغرب بعد حصولهم على درجة الدكتوراه فى علوم الدين التى وضعها المستشرقون على افتراضية خاطئة تقول أن القرآن نتاج الحضارة العربية ، أى من صنع بشر ، وذلك لتخريب الإسلام من داخله وبأيد أهله ، وتحولت الدعوة لدين الله هى دعوة للعلم والعقل الذى هو إله التنوير والعلمانية ،ولاسلطان فوق العقل إلا العقل.

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الشأن أن منطق العلم الذى يتحدثون عنه يقول أن كل ما بنى على الخطأ فهو خطأ ، وأما أهل الدين والفقهاء فهم يقولون أن كل ما بنى على الباطل فهو باطل ، وقد وضع المستشرقون دراساتهم كلها على افتراضية خاطئة وباطلة وكل ما نتج عنها وقام عليها فهو خطأ وباطل ، وعلى سبيل المثال ، فإن مدرس الرياضيات إذا نظر فى ورقة التلميذ أو الطالب من الإبتدائى إلى الجامعة لتصحيح إحدى المسائل أو التمارين ورأى أن أول خطوة فى الحل خطأ ، فإنه لاينظر فى باقى الخطوات حتى يصل إلى النتيجة ، وإنما يشطب على ورقة الإجابة أو يصلب عليها ، ويزين ورقة الدارس بدرجة صفر، وهكذا هو حال السادة الحاصلين على درجة الدكتوراة فى بعض علوم الدين فى الدراسات التى وضعها المستشرقون لتخريب الإسلام من داخله بأيدى أهله.

وكثيراً مانسمع أو نرى من يدعو إلى العلم سواء كان ذلك على الشاشة الصغيرة أو فى المذياع وكذلك نقرأ أيضاً من يدعى العلم ويدعو له ويردد قول الله عز وجل ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] ، والدعوة إلى العلم أمر له أهميته، ولايمكن لأحد أن ينكره ، وأما أن تكون الدعوة إلى العلم قائمة على الجهل والغش والتدليس فهو الجهل بعينه ، فكأنه بذلك يدعو إلى الجهل ، وإن كان من النخبة أو دعاة الدين والمفكرين الإسلاميين ، ولننظر إلى عدة آيات من سورة فاطر والتى انتهت بقول الله عز وجل هذا ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] ، إذ يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ *لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[2]،

وكما هو واضح من هذه اللآيات الكريمة أن الله سبحانه يلفت نظر الإنسان للنظر والتأمل والفحص فى هذه الطبيعة الرائعة الخلابة بما تحمل من تنوع فى الخلق وألوان وما وراء ذلك من علوم المياه وحركتها وتحول حالتها من حال إلى حال وعلوم النبات بتنوعه وألوانها ، ثم طبوغرافية الأرض والچيولوجيا وطبقات الأرض ثم علوم الأجناس البشرية على اختلاف ألوان بشرتها،وكذلك علوم الحيوانات على اختلاف ألوانها وأنواعها ، فقد جمعت علوماً شتى مما يقع عليه بصر الإنسان ، ثم انتهت بالثناء على العلماء الذين لم يقفوا على دراسة الطبيعة وحسب بل سلموا بما وراء الطبيعة من خالق عظيم قادر مقتدر ، واحد

(١) سورة فاطر : ٢٨ (٢) سورة فاطر : ٢٧:٣٠

أحد ، واعترفوا بطلاقة القدرة الإلهية ، والتزموا بحدود العبودية واعترفوا بحقوق الربوبية وما أنكروها ، بل رعوها حق رعايتها وخشوا الرحمن بالغيب، فقد جمعوا ما بين العلوم الدنيوية وخشية الله ، ثم جاءت الآيات بعد ذلك متتالية تتحدث عن أولئك العلماء الموحدين الذين انتهى بهم العلم إلى خشية الله والتزموا بالتوحيد والعمل الصالح ، وارتقوا بفكرهم فلم يقفوا عند علوم الدنيا والطبيعة وإفادتها ، بل ارتقوا إلى ما وراء الطبيعة إلى الوحدانية والتوحيد واستجابوا لنداء الغيب والتزموا بالطاعات وعملوا لما بعد الموت فربحوا الدنيا والآخرة.

وفى هذا يقول المصطفى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « كلما عرفت ربى ازدادت خشية» ويقول أيضاً : « لابارك الله فى يوم لم أزدد فيه علماً يقربنى إلى الله»[1] ، وأما ما يرددون من حديث الرسول المتفق عليه : العلماء ورثة الأنبياء، فلم نسمع أو نقرأ عن نبى كان عنده بعض علوم الدنيا أو أحدها وورثها، إنما كان ما عندهم هو علوم التقوى وصلاح الدنيا وتعميرها بالخير والعمل الصالح، وعلوم الورع والتوحيد وخشية الله والاتصال بالله ، وفى هذا نتذكر تعريفاً وضعه التابعون للعالم فى الإسلام ، فقالوا : العالم فى الإسلام لايقال عنه أنه عالم إلا إذا تلقى العلم من العليم.

وأما عن علماء المسلمين الأوائل أمثال ابن سينا وابن الهيثم وابن النفيس وأبو بكر الرازى وغيرهم من علماء المسلمين ، والذين يتشدقون بهم ويتمسحون بهم ، فليعلموا أنهم كانوا حفظة لكتاب الله ، علماء فى الدين قبل أن يكونوا علماء فى علوم الدنيا ملتزمين بحدود العبودية مراعين لحقوق الربوبية ، ولم يكونوا من الجاهلين أو الغافلين ، ولم يتلقوا علوم الدين على أيدى المستشرقين والملحدين ، بل تلقوها على أيدى مشايخ أصفياء أطهار أنقياء ، تلقوا بدورهم

---

(١) الجامع الصغير

من قبلهم علوم دينهم على أيدى مشايخ مثلهم أتقياء أصفياء اطهار حتى ينتهى نسبهم إلى رسول الله ﷺ.

ولاشك أن مصر فى حاجة إلى من يعود إليها من أبنائها حاملاً الدكتوراه من إحدى جامعات الغرب فى علم الإلكترونيات أو الهندسة الوراثية أو الاتصالات أو ماشابه ذلك من علوم العصر حتى نأخذ بأسباب العلم الحقيقية ولا لأسباب الجاهلية والجهالة ، وأما دين الله فأهله أحق بتعليمه ، فلم يكن الإسلام خصيماً للعلم فى يوم من الأيام ، ولم يدعو الإسلام إلى مملكة السماء، إنما دعا الإسلام إلى تعمير الأرض وإصلاحها وعدم الإفساد فيها ، ودعا الإنسان أن لايقف عند علوم الطبيعة وما تقع عليه حواسه بمدركات الأشياء المحدودة أى العقل ، بل يتخطى حدود الطبيعة ويرتقى إلى ما بعد الطبيعة حتى يسلم بواجب الوجود ويلتزم بمنهاج التوحيد والعمل الصالح ، وهو مجمل الدعوة الإسلامية، وما بُعث رسول الله ﷺ داعيا لمملكة السماء ، إنما قد بُعث لتقويم إعوجاج الإنسان وإصلاحه وإعادته إلى فطرته الأولى التى فطر الله الناس عليها ويحقق ما خلقه الله لأجله فيكون خليفة فى أرض الله أميناً عليها ولايفسد فيها ، ولو ترك الإنسان لعقله وحسب بعيداً من منهاج خالقه الذى هو أعلم به لانحدر إلى ما دون الحيوان ، وهذا ما شاهدناه فى عصرنا ، فالحيوانات منها الأليف ومنها المفترس ، وقد تحول الإنسان فى عصرنا أشد افتراساً وقسوة ، فالحيوان المفترس لايستطيع أن يفترس إلافريسة واحدة فى الوقت الواحد ، أما حيوان الإنسان بعقله فهو يستطيع أن يقتل ويدمر مئات الآلاف والملايين من بنى جنسه فى لحظات مثلما حدث فى مدينة هيروشيما وناجازاكى اليابانية فى الحرب العالمية الثانية إثر القنابل الذرية الأمريكية التى ألقيت عليها والتى أودت بحياة مئات الآلاف من البشر ، وهكذا قد صار الإنسان فى الغرب منذ أن عبدالطبيعة وصار إلهه عقله ولاسلطان فوق العقل إلا العقل.

وحينما نذكر العلم لابد أن نتذكر أن الذين سرقوا مصر ونهبوها وخربوها وعاثوا فيها فساداً ونشروا فيها الفساد وشرفوا السجون ، هم جميعاً من علياء القوم من الساسة والحكام والنخبة وهم جميعاً من أهل العلم والكثيرين منهم من حملة الدكتوراة ، ثم جاء من بعدهم أيضاً أهل الحكمة والتقوى والصلاح والداعين إلى الله ، وهم جميعاً تجمعهم اللوثة العقلية أو الفكرية التى أصابت الفكر العربى ، ولم تقف عند حدود الفكر وحسب ، بل تحولت إلى لوثة دموية، وليس فيما قدمنا إقلال من شأن العلم وأهميته ، وإنما هو تصحيح للمفاهيم، فليس العلم نوراً كما يقولون ، ولم يُعرف ربنا بالعقل ، إنما العلم هو طريق الحياة ، ولا حياة بغير العلم ، إلا أن الحياة يمكن أن تكون خيراً أو شراً وأما النور فهو أمر آخر وله شأن آخر.

***

ثانياً : النـــور

وإذا كنا نبحث عن الهوية العربية المفقودة ، فعلينا أن ننظر فى عوامل الشخصية العربية القائمة والمتأرجحة بين الشرق والغرب والمهتزة بين ماهو حديث وما هو قديم ، وما هو أصيل وما هو دخيل ومستورد على منظومة الفكر الحديث التى نعيش بها والتى هى منظومة نشاز من اللوثة الفكرية ، ولنبحث عن المفاهيم الأساسية للشخصية المفقودة وإعادة صياغة هذه المنظومة وفق ثوابتنا الحضارية .

فمن الأ لاعيب الخبيثة التى دخلت على الفكر العربى هى الخلط بين العلم والنور وجعل العلم نوراً ، وهم فى ثوابتنا الحضارية أمرين مختلفين وقد فصلنا من قبل كلاهما عن الآخر وبينا مفهوم العلم ودوره فى الحياة، ولنبحث هنا عن مفهوم النور فى الفكر العربى الإيمانى التى قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية ، وإذا كنا نرجع للقرآن الكريم فى البحث عن المفاهيم الأساسية لمنظومة الفكر العربى الأصيل ، فإننا نفعل ذلك إيماناً بأن منظومة الفكر الإيمانى السماوى واحدة والتى مرجعها الدين الإبراهيمى ، ورسل الله جميعاً مرجعهم لأبى الأنبياء إبراهيم عليهم السلام ، ومضمون رسالة السماء واحدة وهى دعوة للتوحيد والعمل الصالح ، وقد اكتملت رسالة السماء عند آخر الأنبياء وتمت نعمة الله على عباده برسالة الإسلام ورسوله ﷺ ، فنرجع إلى الكمال والتمام إلى القرآن الكريم والذى سماه الله نوراً كما سمى التوراة والأنجيل من قبل ، والنور هو الحق سبحانه وهو اسم من أسماء الله الحسنى وكتبه جل جلاله نور من نوره ، وباكتمال نوره على عباده سمى رسول الإسلام

محمد ﷺ نوراً إذ يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾[1] ، وكما وصف الحق سبحانه التوراة بأنها هدى ونور ، كذلك وصف الإنجيل :﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾[2] ، وقد جاء كذلك وصف الحق سبحانه للقرآن الكريم بأنه نور :﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3] ، وقد وصف الحق سبحانه نفسه بأنه نور ، وقد ورد ذلك فى عدة آيات ، نذكر منها ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[4] ، وقد وصف الحق سبحانه رسوله الكريم ﷺ بأنه نور ، وقد ورد ذلك فى عدة آيات ، نذكر منها ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾[5] ، فالكتاب فى هذه الآية هو القرآن الكريم ، والنور هو رسول الله ﷺ كما أجمع علماء الأمة ، وقد جمع الحق سبحانه نور الكتاب ونور النبى صلوات الله وسلامه عليه وهم الدعوة إلى الله وفى جمعهم نور الله، وذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾[6] ، ومثلما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾[7] .

وقد وصف الحق سبحانه طريق الإيمان والهدى بالنور : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[8] ، ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ

---

(١) سورة المائدة : ٤٤
(٢) سورة المائدة : ٤٦
(٣) سورة الأعراف : ١٥٧
(٤) سورة النور : ٣٥
(٥) سورة المائدة : ١٥
(٦) سورة التوبة : ٣٢
(٧) سورة الصف : ٨
(٨) سورة البقرة : ٢٥٧

مُّبِينٌ ۞يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ويَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، والنور فى هذه الآية هو رسول الله ﷺ، وقد جاء فى أول سورة إبراهيم: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾[2]،

وقد جعل المولى عز وجل كتاب الله وسنة نبيه ﷺ طريق الإيمان نوراً للمؤمن ينير طريق حياته ويمشى به فى الناس فيبصر الطيب من الخبيث بعد بعثه فى حياة إيمانية فى هذه الحياة الدنيا ويعيش حياة طيبة أمنة مطمئنة، وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]، وفى هذا نذكر أيضاً قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ويَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ويَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4]،

والحق سبحانه وتعالى قد جعل المؤمنين على هدى مبصرين ببصيرة بنور ربهم وأرسل إليهم رسولاً نوراً يحمل نوراً يهدى إلى نور الأنوار، والكافرين والغافلين فى عمى إلى يوم يلقونه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ﴾[5]، ﴿يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ويُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ والَذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6].

---

(١) سورة المائدة ١٥: ١٦
(٢) سورة إبراهيم: ٢٥٧
(٣) سورة الأنعام: ١٢٢
(٤) سورة الحديد: ٢٨
(٥) سورة الرعد: ١٦
(٦) سورة التحريم: ٨

والحقيقة أننا لايمكن أن نبحث وننظر فى مفهوم النور فى منأى عن العلم والعقل والقلب أيضاً ، وقد بينا من قبل أن القرآن الكريم قد تنزل على قلب النبى ﷺ ولم ينزل على عقله ، وكذلك أيضاً يتعامل القرآن مع قلوب المؤمنين ومسلكه فيها غير مسلكه فى قلوب الكافرين والمجرمين الذين نفى عنهم المولى عو وجل السمع والبصر والعقل بل والحياة برمتها ، فقد وصف الذين لايؤمنون بالأموات ، وعلى سبيل المثال فيقول سبحانه وتعالى :﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا ولَّوْا مُدْبِرِينَ * ومَا أَنتَ بِهَادِي العُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[1] .

فالحياة التى يريدها الله للإنسان هى حياة عقل وقلب معاً ، عقل يدرك به الطبيعة والأشياء وهو مدركة الأشياء التى خلقه الله من أجلها ، ولايقف الإنسان عند إدراك الطبيعة وحسب، بل يرتقى لما وراء الطبيعة ويستسلم العقل المادى الذى لايستطيع أن يدرك ما وراء الطبيعة ويعلن عن عجزه ويسلم بأن وراء هذا الخلق خالق قادر مقتدر مطلق القدرة ويستجيب لدعوة الحق وتنفتح اللطيفة الإيمانية غير المادية بقلبه فيستقبل بها النور الذى هو غير مادى ، فقلب المؤمن هو مركز انتقال النور ، وأما الذين يعيشون فى هذه الحياة الدنيا بالعقل وحده، فهم موتى فى قبور أجسامهم ، فالحياة الحقيقية التى يريدها الخالق سبحانه للإنسان هى حياة القلب الذى فيستقبل به الهدى والنور ، وانظر فى هذه الآيات الكريمة إلى مسلك النور فى قلوب المؤمنين ومسلكه فى قلوب المجرمين الذين لايؤمنون إذ يقول عز من قائل : ﴿ **إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾[2] ، ﴿ **ويَقُولُ الَذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ويَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ** ﴾[3] .

---

(١) سورة النمل : ٨٠ : ٨١ (٢) سورة الأنفال : ٢

(٣) سورة الرعد : ٢٧:٢٨

وهكذا هو مسلك القرآن فى قلوب المؤمنين ، تستقبله مرآة قلوب صافية فينعكس بالأنوار على النفس فيزيدها إيماناً وخشوعاً وتسليماً لرب العالمين وتفيض بالخير والعمل الصالح ، فكما تنزل القرآن على قلب المصطفى ﷺ ، فإن أداة استقباله هو القلب المؤمن الذى انجلت مرآته فتستقبل أنواره التى يشع على جوارحه بالبشرى والهدى ، فلاتتحرك اليد إلا فى طاعة الله ، ولاينطق اللسان ولايلفظ من قول إلا حق ، ولايمكن أن يتحرك بالكذب أو الزور ، ولاتتحرك القدم إلا فى طريق الطاعة ، ويستقبل العقل الطائع أنوار القرآن ويشع بأوامره على سائر أعضاء الجسد ، ويبصر المؤمن كل ماحوله من مظاهر الطبيعة الرائعة الخلابة وبديع صنع الله الذى أتقن كل شئ خلقه ، ويعود مطمئناً مسبحاً بحمد ربه ، سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وأما مسلك القرآن فى قلوب الكافرين والغافلين ففى ذلك يقول سبحانه:

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[1] ، والله غنى عن العالمين ، ولاينفعه من يؤمن ولايضيره من يكفر ، وإنما من يؤمن فإنما يؤمن لنفسه ، وفى هذا يقول جل شأنه: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾[2] ، فبرغم من أن القرآن الكريم قد نزل باللغة العربية على قلبه ﷺ فى بيئة عربية وكتب باللغة العربية، ويستطيع أى إنسان يجيد العربية أن يقرأه ويدرسه مثله مثل أُى كتاب فيقف على لغوياته وبليغ قوله ونحوياته وظاهره وتعاليمه وكل ما يتعلق من ظاهر النص ، والشريعة الإسلامية برمتها ، إلا أن هذا كله لايتعدى أحد شقى الدين الإسلامى،ويبقى شقه الآخر مغلقاً ومستعصياً لاينفتح إلا بالإيمان والتذوق الإيمانى لكلمات الله التى تتعامل مع العقل الطائع على اختلاف درجاته،

(١) سورة الشعراء ٢٠٠:٢٠٢ (٢) سورة الإسراء : ١٠٧:١٠٨

كما بينا من قبل ، وتتنزل على القلب بالأنوار والإفاضات الإلهية والفتوحات الربانية فيستضيء القلب بنورها ويشع أنواراً وهدى ، فقد ننزل القرآن على قلب المصطفى ﷺ ، ولقد بينا مسلك القرآن فى قلوب المؤمنين ، ولاسبيل لتدبر الكتاب إلا بالقرب من الله ، ولاسبيل للقرب من الله إلا بالطاعة.

﴿واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾[1] ، فعلم القرآن بيده سبحانه ولم يعلمه لأحد غير رسوله الكريم ﷺ وجعل الطريق الوحيد إليه ولمن يطلبه ويرجوه فى اتباع رسوله وسراجه المنير المبعوث رحمة للعالمين : ﴿الرَّحْمَنُ ۞عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾[2] فلم يعلم الرحمن أحداً من العالمين القرآن غير رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وجعل طاعة رسول الرحمة هى طاعة الله، وقد مكث فى قومة ثلاثة عشر سنين يدعوهم بالرحمة إلى الرحمة ، ولم يكن لديه سيف ، وبرغم مالاقى من قومه هو وأصحابه صلوات الله وسلامه عليه من عنت وأذى واضطهاد ومعصية، رفض أن يدعو عليهم كما فعل الأنبياء من قبله عليهم السلام ، وحينما اشتد عليه الأذى وضاق به ودمعت عيناه الشريفتين رفع يديه إلى السماء ودعا لقومه قائلاً ! اللهم اهدى قومى فإنهم لايعلمون.

وبما أن رسول الله ﷺ قد بُعث للناس كافة ، فكان لابد أن تتعدى دعوته اللغات والألسن كافة ، ونزل القرآن على قلبه الشريف بلغة القلب ولسانه الذى يشترك فيه الناس جميعاً وجاء القرآن بلغة القلوب النابضة بالإيمان ، وفى الحديث القدسى الذى رواه المصطفى ﷺ عن رب العزة : (لم تسعنى أرضى ولاسماواتى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن) ، فالقلب هو محل الإيمان والتقوى والنية أيضاً ، وفى الحديث المتفق عليه يقول صلوات الله وسلامه عليه: « **إن الله لاينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

---

(٤) سورة العلق : ١٩ (٢) سورة الرحمن : ١:٢

فليحذر المؤمن الصورة والهيئة والتشكل والتى يستطيع أن يتشكل بها أى كافر وإن كان إبليس ذاته ، فالإسلام فى مجمله وفى منتهاه توحيد بالقلب وعمل صالح وكما قال المصطفى ﷺ فى الحديث المتفق عليه «**الإسلام ما وقر فى القلب وصدقه العمل**».

وكثيراً مانسمع أو نرى أو نقرأ لأحد خدام الفكر الغربى وهو يدعو للعلم والعلمانية ، ولو أنه استعمل أدواتهما ودعا بمنطقها وحسب لما كان على ذلك اعتراض ، ولكنا نراه يعلن عن جهله ويزيف الوعى ويزوره قائلاً : إن الله يقول هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون وما ذلك إلاقول مبتور من آية فى كتاب الله ، ولو أنه ذكرها كاملة لاستبان معناها ، وقد يكون لايعرفها كاملة ، وإذا كان يعرفها كاملة ، فهو لايعرف معناها ، فمثله مثل الذى يقول : إن الله يقول : ولاتقربوا الصلاة ، أو الذى يقول : إن الله يقول : ويل للمصلين ، فانظر أيها القارئ الكريم وتدبر النص الكامل لهذه الاية : ﴿ **أَمَّنْ هُو قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾[1] ،

وكما هو واضح من النص الكريم أنه سبحانه قد ذكر أحد أطراف المقارنة بمشهده وترك الصنف الآخر وكأنه نكرة أولاوجود له ، فمشهد الذين يعلمون الذين جاء ذكرهم فى الآية هم الذين لم يقفوا عند علوم الطبيعة وحسب ، بل ارتقوا إلى ماوراء الطبيعة وأمنوا بالوحدانية وشهدوا بالأحدية والتزموا بحدود العبودية وأقروا بحقوق الربوبية ، فقاموا الليل قانتين لله سجداً وقياماً ،وأولئك هم أولى الألباب الذين ارتقت عقولهم المادية إلى عقول موحدة طائعة لله ، وهم الذين يتذكرون الله ويذكرون وهم الذين تعنيهم الآية بالذين يعلمون ، أما الذين لايعلمون ، فلم تشر الآية إلى أفعالهم أو أحوالهم ، فلايحق لنا أن نتحدث عنهم ، فانظر كيف يفترون على الله الكذب والمتحدث بالطبع لابد أن يكون

---

(١) سورة الزمر : ٦

من النخبة أو أحد المفكرين الإسلاميين ، أو أحد أباطرة الدين الحاصلين على درجة الدكتوراة من إحدى جامعات الغرب فى بعض علوم الدين القائمة على الدراسات التى وضعها المستشرقون على افتراضية باطلة تقول أن القرآن نتاج الحضارة العربية ، أى من صنع بشر ، وهى دراسات كلها الهدف منها تخريب الإسلام من داخله بأيدى أهله وتحويله إلى مجرد علم وإذابته فى العملية التعليمية ، وانظر إلى أى مدى قد وصل حال اللوثة الفكرية التى شملت الفكر العربى بكل فصائله وتحولت إلى منظومة كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره.

وما قصدنا إلا النظر فى هذه اللوثة الفكرية وتصحيح المفاهيم وإعادة صياغتها ، وليس فيما قدمنا معنى للتقليل من أهمية العلم فى الحياة وضرورته فالعلم طريق الحياة ، ولاحياة بغير العلم ، إلا أن الحياة يمكن أن تكون خيراً أو شراً ، وأما النور فهو الحق والخير ودوره الوحيد هو توظيف الحياة للخير، والإنسان فى حاجة إلى العلم والنور معاً حتى ترتقى الحياة وتستقيم على الخير والحق ، فالنور هو الحق ، والحق فى مفهومنا الحضارى الإيمانى والذى مرجعه الدين الإبراهيمى هو واحد لايتعدد ، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

***

ثالثاً : الفكر

الإنسان كائن مفكر ، وليس فى حاجة إلى من يدعوه للفكر والتفكر ، إنما هو دوماً فى حاجة إلى من يذكره بما هو غافل عنه أو ناسيه ، وإذا نظرنا فى الآيات التى ورد فيها لفظ فكر أو أحد مشتقاته ، فلن نجد آية واحدة تثنى على الفكر على إطلاقه أو تدعو الإنسان إلى الفكر والتفكر ، إنما كل آية قد ورد فيها الفكر ، إنما جاءت لتذكرة الإنسان إلى التفكر فيما هو غافل عنه والاهتداء إلى التوحيد ، وكما بينا من قبل فى منهج الفطرة أن آيات الكتاب جميعاً قد جاءت لخدمة أربع قضايا ، أولها قضية التوحيد أو السبب الأول وواجب الوجود ، وإننا لانستطيع أن نحصر هذه الآيات التى ورد فيها لفظ الفكر ومشتقاته لضيق الموضع وسوف نذكر بعضاً منها على سبيل المثال ، وليس الحصر ، ومن يرد أن يتأكد أو يزيد فليرجع إلى كتاب الله.

فانظر فى هذه الآيات الكريمة من سورة المدثر التى يتحدث فيها المولى عز وجل عن أولئك الذين يتفكرون ويقدرون ولايوحدون ولايشكرون : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً *وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ *كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[1] ، ولننظر فى هذه الآية أيضاً التى تصف الكافرين والغافلين بالعمى وتستنكر فكرهم :﴿ قُل لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ ولا أَعْلَمُ الغَيْبَ ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾[2] ،وانظر أيضاً فى هذه الآية التى فى طياتها الاستدلال على التوحيد والوحدانية والسبب الأول للخلق :

---

(١) سورة المدثر ١١:١٩ (٢) سورة الأنعام : ٥

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾[1] ، ولقد وردت أيضاً مرادفات كلمة فكر مثل النظر والتبصر من أجل خدمة قضية التوحيد أيضاً مثلما جاء فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ ولا نَاصِرٍ ﴾[2] ، وقد وردت كلمة أبصر أيضاً بمعنى تفكر وأدرك ، وجاءت بصائر بمعنى مدارك مثلما جاء فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ومَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ومَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[3]، وقد وردت أيضاً كلمة تدبر بمعنى تفكر وأدرك : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ولَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾[4] ، كما ورد النظر أيضاً بمعنى التفكر والتدبر والتأمل مثلما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ولا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً ﴾[5] ، ويضرب الله الأمثال للمؤمنين لعلهم يتفكرون فيزدادوا إيماناً ، وفى ذلك أيضاً خدمة لقضية التوحيد التى هى أساس الدين كله ، والتى بعث رسول الله ﷺ من أجلها ومن أجل إخراج الإنسان من حيرته وهدايته إلى طريق التوحيد ، مثلما جاء فى قوله عز وجل : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وأَصَابَهُ الكِبَرُ ولَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[6] .

---

(١) سورة الروم : ٨ (٢) سورة طارق ٥ : ١٠
(٣) سورة الأنعام : ١٠٤ (٤) سورة النساء : ٨٢
(٥) سورة النساء ٤٩ : ٥٠ (٦) سورة البقرة : ٢٦٦

ولم تأت آية واحدة فى الكتاب الكريم تثنى على الفكر على إطلاقه وتشيد بفكر الإنسان ، إنما جاء الثناء والإشادة فقط بتفكر الموحدين الذين يعيشون فى فلك التوحيد ويتفكرون ، ثم ينتهى تفكيرهم إلى التوحيد الذى بدأوا منه :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

فالإنسان كائن مفكر ، وخالقه أعلم به ، وليس فى حاجة إلى من يدعوه للفكر ، فقد وصل بفكره وما تمخض عنه من علوم إلى أن وصل إلى القمر، ودار حول الكرة الأرضية وغزا الفضاء ، ووصل بمخترعات العلم الحديث إلى ما يذهب بالعقول ، ومع ذلك فقد قال رواد الفضاء : أين هو الله ، إننا لم نره ، ومن علماء العصر فى أحدث العلوم ، ومنهم من هو فى الشرق وهو مازال يعبد البقرة المقدسة ومنهم من يعبد الأحجار ، وأما فى الغرب فهم ملحدون ومفكرون وأذكياء ومنكرون وجود الله ومنهم من يعبد الشيطان ، فالإنسان دوماً فى حاجة إلى من يذكره ويفكره بما هو غافل عنه أو ناسيه ، وإذا كان القرآن قد أمر الإنسان بممارسة غرائزة ، فقد جاء الأمر مقننا لهذه الغريزة من أجل خيره وخير الأخرين، وعلى سبيل المثال ، فلم يكن الإنسان فى حاجة إلى أن يأمره خالقه بالأكل والشرب ، ولذلك فقد جاء الأمر فى ذلك مقنناً لخيره وخير الآخرين ، مثلما جاء الأمر لبنى إسرائيل :﴿ كُلُوا واشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] ، ومثلما جاء الأمر للناس كافة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[3] ،ومثلما جاء الأمر للمؤمنين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ واشْكُرُوا لِلَّهِ إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[4] ، وكما جاء الأمر أيضاً بالزينة

---

(١) سورة آل عمران : ١١٩٠ : ١٩١ (٢) سورة البقرة : ٦٠

(٣) سورة البقرة : ١٦٨ (٤) سورة البقرة : ١٧٢

والأكل والشرب ، ولم يكن الإنسان فى حاجة للأمر بممارسة شهوة البطن وغرائزه والتزين ، إنما جاء الأمر بالتقييد لخير الإنسان ومن حوله إذ يقول سبحانه﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾[1] ،

وكذلك الفكر أيضاً الذى هو الأداة المحركة للإنسان فى كل أمور حياته ، فلم ترد آية واحدة فى الكتاب تحث الإنسان على الفكر على إطلاقه ، فهو ليس فى حاجة إلى ذلك ، إنما قد جاءت كل الآيات التى ورد فيها ذكر الفكر تحث الإنسان إلى التفكر فيما هو غافل عنه ، وتذكرته بما نسيه مثلما جاء فى قوله عز وجل:﴿وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، ﴿وإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[3] ، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[4] ، ﴿ أُوْلَئِكَ الَذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ وأُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾[5] ، ﴿ والَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ*أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾[6] .

فقد أطلق الله سبحانه عقل الإنسان ولم يقيده وكان قادراً على ذلك، وهو على كل شئ قدير ، ولكنه أطلق له ملكة الفكر يفحص ويبحث ويفكر ويتعلم حتى ارتاد الآفاق وسبح حول الفضاء ، وبحث فى أسرار الكائنات وأخذ يبحث فى كل ما يقع عليه بصره وحواسه ، ويقف على أسراره وتطويع وتزليل كل ما يستطيع أن يُسيره فى الكون لخدمة حياته وراحته ورفاهيته ،وأرسل إليه نوراً ﷺ يحمل نوراً يهديه إلى نور الأنوار برساله تيسر للإنسان حياته كلها للخير ، فلا يظلم ولايطغى ، ويقيم العدل فى أرض الله والحرية والمساواة بين أخوة الإنسانية جمعاء ، بلاطمع ولاجشع ولاعداوة ولابغضاء ، وكانت الرسالة

---

(١) سورة الأعراف : ٣١
(٢) سورة النحل : ٤٤
(٣) سورة يونس : ٩٢
(٤) سورة الروم : ٧
(٥) سورة النحل : ١٠٨
(٦) سورة يونس : ٧

الخالدة التى حملها الرسول ﷺ ، دعوة للخير وتذكير الإنسان بما هو غافل عنه ، وحثه على التفكر فيما هو ناسيه ، وانظر في هذه الآيات الكريمة ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وهُمْ يَلْعَبُونَ﴾(١) ، ﴿ واقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَذِينَ كَفَرُوا يَا ويْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(٢) .

فلا شك أن كل إنسان على يقين من موته، ولقد بُعث رسول الله ﷺ لكى يذكر الإنسان بما بعد الموت ويدعوه للتوحيد والعمل الصالح والذين جوهرهما الأخلاص لرب العالمين، وهى فحوى رسالة الإسلام فى جملتها، لم يدعوه لكى يفكره بالعلم ويذكره، فليس الإنسان فى حاجة إلى ذلك ، ولم يكن هذا دور رسل الله وأنبيائه، إنما كان دورهم جميعاً هو تذكرة الإنسان بما هو غافل عنه وحثه على الفكر والتفكر فيما هو ناسيه ، وحتى أن المولى عز وجل قد وصف رسوله الكريم ﷺ بالمذكر ، وانظر فى بعض هذه الآيات التى ورد فيها الذكر والتذكر والتذكرة والذكرى ، إذ يقول عز من قائل : ﴿ فَذَكِّرْ إنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ *لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ * إلا مَن تَوَلَّى وكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ * إنَّ إلَيْنَا إيَابَهُمْ * ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾(٣) ، وجاءت الآيات كثيرة فى التذكرة والتذكر والذكر بالتوحيد وعمل الصالحات والطاعة لأمر الله والعمل لما بعد الموت ، نكتفى بذكر الآتى منها لضيق الموضع وحتى يتسنى لنا أن نوفى حق الموضوعات الآخرى التى يتناولها هذا الكتاب ، إذ يقول سبحانه : ﴿ كَلا إنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾(٤) ،فلم يحجر الخالق سبحانه على حرية الإنسان ، ولم يقيد فكره ، وترك له حرية الاختيار بين الكفر والإيمان : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾(٥) ، ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن

---

(١) سورة الأنبياء ١ : ٢
(٢) سورة الأنبياء : ٩٧
(٣) سورة الغاشية : ٢١:٢٦
(٤) سورة المدثر : ٥٥
(٥) سورة الأعلى ١٤:١٥

قَبْلُ ولَمْ يَكُ شَيْئاً﴾[1] ، ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] ، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[3] ، ﴿ ومَا يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِيرُ والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ولا المُسِيءُ قَلِيلا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾[4] ، وفى تذكرة المؤمنين وردت آيات كثيرة تذكرهم بأنعم الله عليهم وتحثهم على التذكرة والشكر ، مثلما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي ولا تَكْفُرُونِ﴾[5] .

وهكذا ، كما بينا باختصار شديد ، لم تأت آية واحدة فى كتاب الله تدعو الإنسان وتحثه على الفكر على إطلاقه ، إنما قد وردت الآيات تحمل الإنسان على الفكر والتفكر والذكر والتذكرة وتلفت نظر الإنسان لما هو غافل عنه ولما هو ناسيه ، وقد جاءت آيات الفكر والتذكر جميعاً لخدمة قضايا الدين الأربع التى بينا فى منهج الفطرة ، وهى قضية الخلق وواجب الوجود ، وقضية العلة فى الخلق والتوحيد ، وقضية ما بعد الموت ، وقضية النجاة لما هو بعد الموت . وقد عمل خدام الفكر الغربى لتزييف قضايا الدين وتزويره من أجل إذابة الدين فى العلم والفكر وتحويله إلى علم وفكر مثل سائر العلوم ، حتى فقد الدين حقيقته خلال قرن من الزمان وفقد القرآن قدسيته ، كما بينا قبل ، ووصل حال البلاد والعباد إلى ما وصل إليه حالنا عن طريق المفكرين والنخبة وأهل العلم ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل فى الفصول اللاحقة ، وما هى إلا محاولة متواضعة للنظر فى المنظومة النشاز للوثة الفكرية التى نعيش بها والتى تحولت إلى منظومة حيانية كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره.

---

(١) سورة مريم : ٦٧
(٢) سورة الأعراف : ٧٤
(٣)سورة هود : ٣٤
(٤) سورة غافر : ٥٨
(٥) سورة البقرة : ١٥٢

ومما هو جدير بالفكر والتذكر فى هذا الشأن أيضاً ، وإن كنا قد تناولناه باختصار ، فإنه يطرق ذاكرتي كتاب قد أهداه لى أحد الأصدقاء للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، رحمه الله ، وهو تحت عنوان : التفكير فريضة إسلامية، وذلك منذ سنوات طويلة ، ولقد اندهشت حينما وقع بصرى على عنوان الكتاب، ولكننى لم أعقب ، إلا أننى حينما قرأت الكتاب وجدت أن أستاذنا الكبير قد وضح بين طياته أكثر من مرة أن التفكير نافلة إسلامية ، إلا أننى مازلت فى دهشة من اختيار هذا العنوان لكتابه ، وقد اشتهر بدقته فى التعبير والعمق الفكرى فى تناول أى موضوع ، وثقافته الواسعة وشدة انتمائه للحضارة الإسلامية والعربية، وتصديه للدفاع عن الإسلام والعروبة ومصريته أيضاً.

فالفريضة فى الإسلام تاركها عاصى ، ولم يفرض الله سبحانه أمراً على المؤمنين إلا إذا كان سهلاً وميسوراً ، ويستطيع أى إنسان أن يأتيه ، مهما تفاوتت العقول ، وتباينت درجات الذكاء ، وكل فريضة فى الإسلام محددة وبسيطة وأما نافلتها فهى تطوعاً وغير محددة ، وكما بينا من قبل فى التفكير والفكر والتفكر، فقد ندب الحق سبحانه الإنسان بصفة عامة وحثه على التفكير فيما هو غافل عنه أو ناسيه حتى يهتدى للتوحيد ، كماحث المؤمنين على التفكير فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ،والأنهار والبحار وما أنزل الله من السماء وغيره من الآيات الكونية ليزدادوا إيماناً على إيمانهم ، كما أثنى على المؤمنين الذين يعيشون فى فلك التوحيد فيذكرون الله قبل التفكير ثم يعودون طائعين خاشعين متضرعين لرب العالمين ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار.

فالفكر وذكر الله وقراءة القرآن هو نافلة الشهادتين التى فريضتها مرة واحدة فى العمر وتكرارها فى كل صلاة كأمر من لوازم فريضة الصلاة ، وغالباً ما ترى المؤمنين يتفكرون وينظرون إلى خلق الله ويتأملون ويتفكرون ثم ترى شفايفهم

تهمس بذكر الله ، فمنهم من يرفع بصره إلى السماء برهة وينظر فى صفائها أو غيومها وسحابها أوشمسها أو قمرها ثم يعود مسبحاً منزهاً الله تعالى، وكل بقدر ما أتاه الله عز وجل من قدرات عقلية وعلمية ، فترى أحد المؤمنين يتأمل رغيف الخبز بين يديه ، ويفكر فى المراحل التى قد مربها حتى وصل إلى يده، منذ أن كان حبة قمح قد غرست فى الأرض فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، ثم جاء من يجمع السنابل ، ويدرسها ، ولولا أن أنزل الله المطر أو سيق إلى الأرض عبر النهر والذى هو أصله أيضاً ماء طهوراً قد نزل من المزن بأمر الله وتجمع فى النهر ، ثم أتى من يجمع القمح ويذهب به إلى المطحن ، ثم أتى إلى الخباز بعد أن صار دقيقاً فاقبل على عجنه ثم من خبزه حتى وصل إلى يد من يأكله ، فيحمد الله على نعمائه وآلائه ، ومن المؤمنين أيضاً من أتاه الله عقلاً يتأمل به الأشياء وعلماً يفحص به خواص الأشياء وعملها ، فلايكتفى بذلك بل تراه يبحث فى أِسرارها حتى يقاوم مايهاجم القمح من حشرات أو يزيد من جودته، والكل يدور فى فلك التوحيد مسبحاً حامداً فضل الله فيزداد المؤمنين إيماناً على إيمانهم ، وكل قد قام بنافلة الفكر بقدر ما أتاه الله من عقل وعلم ، فالفكر يعمل فى العقل ، وكل يعمل على شاكلته ، فإذا كان العقل موحداً فكل مايدور فيه من فكر فهو يدور فى فلك التوحيد ، ولايحول هذا فى التفكر فى الأمور الحياتية ومصالح الدنيا ، فقد فُطر عقل الإنسان على الفكر كوظيفة عضوية مثلما أى عضو فى جسد الإنسان له وظيفة يقوم بها إلا أن العقل له وظيفتين ، إحداهما إرادية والأخرى غير إرادية وجاءت آيات الكتاب التى تدعو للفكر والتفكر حتى يسلم إرادياً لخالقه وينتظم فى فلك التوحيد حاملاً معه عقلاً طائعاً يقوم بنافلة التفكر فى فلك التوحيد والطاعة.

❊ ❊ ❊

رابعاً : أهــلُ الذكــر

كثيراً ما نسمع من يردد هذا القول القرآنى المنزل : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون وبذلك فقد صار كل من أهل الذكر ، فكل صاحب مهنة فهو يُقال عنه أنه أهل الذكر ، وكل من يفهم فى بعض أمور الدنيا فهو أيضاً من أهل الذكر ، فمن هم أهل الذكر الذين تحدث عنهم القرآن الكريم ؟! وهذا ما سوف نبحث عنه بين آيات الكتاب الكريم.

فكلمة أهل فى اللغة ، هم الأقارب والعشيرة والزوجة . وأهل الشئ أصحابه. وأهل الدار ونحوها : سكانها . إذن فأهل الذكر هم سكانه وأقاربه وعشيرته ، وهم الذين يعيشون فيه ، ولاينفصلون عنه ، ولما كان الذكر ليس بمكان ، فهم مكانه ، يعيش داخلهم ويعيشون به ، وينتقلون وهو ساكن داخلهم ، فيحل معهم أينما حلوا ، وقد ورد نص هذه الآية مرتين ، إحداهما فى سورة النحل والأخرى فى سورة الأنبياء :﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾[1] .

والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، ونسأل ونتحرى بين آيات الكتاب عن أهل الذكر حتى يجيب القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً**﴾[2] . ويأخذ بأيدينا ويرشدنا إلى الحق قول الله سبحانه : ﴿ **ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾[3] .

والخبير هو من جمع بين العلم والممارسة العملية سواء كان العلم الذى اكتسبه وتعلمه من خلال الكتب ومعلم أو من خلال معلم بالممارسة ، وكما

---

(١) سورة النحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧ (٢) سورة الفرقان : ٥٩
(٣) سورة فاطر : ١٤

بينا من قبل أن الإسلام علم وذوق أى حس وفعل وممارسة كما قال رسول الله ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»، فبرغم ما كتب من كتب عن الإسلام عبر العصور ، إلا أن الكتب لم تستطع أن تحتوى حقيقة الإسلام ، وماحملت الكتب الا أحد شقيه ولاتكتمل حقيقته إلا بتحصيل الشق الآخر ، وهذا لايتأتى إلا بالذوق.

وقد جاء فى الحديث الشريف المتفق عليه : « العلماء ورثة الأنبياء». ولم يكن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم علماء فى علوم الفيزياء والكيمياء والجغرافيا والأحياء وغيره من العلوم الدنياوية ، والتى هى متاحة لأى إنسان سواء كان مؤمناً أو كافراً ، إنما كان لديهم علوم التوحيد والترقى والتقوى والصلاح وخير الدنيا والآخرة والاتصال بالله ، وهذا ما ورثه علماء الإسلام عن رسول الله ﷺ ، فبرغم أن الوحى قد انقطع بانتقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إلا أن الاتصال بالله لاينقطع ، ولذلك عرف التابعون رحمة الله عليهم أجمعين العالم فى الإسلام قائلين : إن العالم فى الإسلام ، لايقال عنه أنه عالم إلا إذا تلقى العلم من العليم، وما هى إلا تذكرة ، فقد ذكرنا هذا من قبل . والطائفة الوحيدة من المؤمنين التى وُجدت فى عصر رسول الله ﷺ هى طائفة أهل الصُفَّة ، وهم جماعة من المسلمين قد جذبتهم الأنوار فهجروا الدنيا وعاشوا فى الأنوار وللأنوار ، ولم يتكففوا الناس ولم يسألوهم إلحافاً ، إنما كان الواحد منهم يذهب فى أول النهار ليحتطب بما يساوى حفنة من تمر يقيم بها أوده ، ويكتفى من الدنيا بذلك ، فقد كان غذاؤهم الأنوار ، وقد كان بينهم أثرياء وباعوا دنياهم لله ورسوله ، وقد سمح لهم رسول الله ﷺ بالنوم فوق سطح المسجد ، وقد نزل فيهم قرآن يوصى رسول الله صلوات الله وسلامه بهم ويوصى المؤمنين بهم :﴿ **واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ**

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[1] ، وكان رسول الله ﷺ شديد الحب لهذه الطائفة المؤمنة والاهتمام بها والحدب عليها ، وقد نزلت فيهم آيات كثيرة توصى بالاهتمام بهم مثلما جاء فى قوله سبحانه :﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ومَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[2] ، فهم طائفة مؤمنة قد جذبتهم الأنوار فعاشوا فى الأنوار والتفقه فى الدين وشملتهم الفيوضات الإلهية وفتوحات الذكر وكانت هذه الطائفة التى نفرت من بين المؤمنين للتفقه فى الدين وقد رباها النبى ﷺ على تلقى القلوب والتلقين والأنوار من قلب النبى الشريف إلى قلوبهم الطاهرة دون واسطة اللسان أو القرطاس أو السبورة، إنما هى لغة قلبية ناطقة بلغة القلوب التى لاتعرفها إلا القلوب المؤمنة التى ارتقت فى مدارج الإيمان ، وكان أولئك من بين المؤمنين الذين ورثوا علوم النبوة ، وهم العلماء وأهل الذكر وقد ربوا من جاء من بعدهم ممن اختارهم الله ومنَّ عليهم وتفضل واجتباهم من بين المؤمنين لكى يتربوا ويتعلموا ويحملوا إرث النبوة الذى ينتقل عبر الأجيال من علماء جيل إلى من بعدهم ، وهى علوم نورانية لايمكن أن تحتويها الكتب ، وهى فتوحات ربانية ، وليست خاصة بعصر دون غيره ، وليست قاصرة على جيل ، ففيوضات الحق وفتوحاته لاتنتهى ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[3] ، ﴿ ولَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[4] ، ﴿ ونُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾[5] ،

---

(١) سورة الكهف : ٢٨ (٢) سورة البقـــرة: ٢٧٢:٢٧٣

(٣) سورة النـــور : ٣٥ (٤) سورة إبراهيم : ١١ (٥) سورة القصص : ٥

فهذا هو العلم النور فى ثوابتنا الإيمانية والحضارية ، وليس كل العلم نوراً كما أطلق أهل التزوير والتزييف ، والأئمة والذين منَّ الله عليهم والذين ورد ذكرهم فى هذه الآيات والذين جعلهم الله الوارثين ، فماذا ورثوا ، فهم بالقطع قد ورثوا علوم النبوة كما أخبر النبى ﷺ ، وهذه العلوم قد جعلها الله حكراً على علماء التقوى من أمته والخشية من الله والذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يطرقوا أبواب السلاطين ، ولم ينازعوا أحداً على إرث الدنيا وزينتها ، وعاشوا فى الأنوار وبالأنوار فى خدمة دين الله وخدمة المسلمين ، وتلك العلوم محجوبة عن الملحدين والغافلين وإن حصلوا على أعلى الدرجات العلمية فيما هو مكتوب ، ومعذرة لأهل المنقول إن كنا لم نرجع إلى أى تفسير لهذه الآيات ، فإنا لانستطيع أن نعطل العقول ، ولاتفسير للقرآن خير من تفسير القرآن للقرآن ، مع أحترامنا وتوقيرنا لكل إخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، فهم رجال ونحن رجال فليس لديهم حلولاً لمشاكل عصرنا ، أو قضاء أو حكماً لقضايانا ، ولو كان لديهم العلاج والحكم لما تفاقمت قضايانا ولما وصل حال المسلمين فى العالم إلى ما وصل إليه فنحن أحق بقضايا عصرنا والبحث عن حلول لمشاكلنا.

وأهل الصُفّة أولئك هم الذين نزل فيهم قول الحق سبحانه :﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[1] ، فهم أهل الذكر الذين عاشوا فى الذكر وبالذكر وهم النذر وهم أعلى علماء الإسلام وهم النذروهم ورثة الأنبياء الذين لم يقف علمهم عند حدود الشريعة ولم يكن أهل الصُفة أولئك من فقراء المسلمين الذين تركوا أموالهم وراءهم وتركوا ديارهم وهاجروا إلى الله ورسوله وأواهم سطح مسجد الرسول بالمدينة ، بل كان منهم من كان له بيتاً فى المدينة وعاش فى الحقيقة ، وكان من بينهم كبار صحابه رسول اللهﷺ ، فقد كان على راسهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعبدالله بن أم مكتوم وسلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى وغيرهم

(١) سورة التوبه : ١٢٢

رضى الله عنهم أجمعين ، وعند انتقال النبى صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى كان قد وصل تعدادهم حوالى تسعمائة وخمسين وهم الذين ورثوا علوم النبوة.

واتصلت أنوار النبوة واستمرت بأهل التصوف والحقيقة عبر العصور وكانوا المصابيح التى أنارت طريق الحضارة الإسلامية ،وهم الذين تصدوا لهجمة الفلسفة اليونانية والغزو الفكرى [1] الذى تعرض له الإسلام فى العصر العباسى جراء ترجمة الفلسفة اليونانية إلى الفارسية وفتح بلاد فارس واختلاط الفرس الذين أسلموا والمسلمين العرب والذين لم يكن لديهم فكرة عن الفلسفة ، فقام علماء التصوف والحقيقة بالتصدى لهذه الهجمة الفكرية والفلسفية وقاموا بوضع علم التوحيد وعلم الكلام ، وهى علوم تبحث فى العقيدة والاستدلال العقلى على وجود الله ، وسموا علم الكلام بهذا الاسم لتميزه على علم الفلسفة الوضعى الأثينى والذى هو نتاج الفكر الإنسانى ، وعلم الكلام هذا هو ما تلاعب به المستشرقون فى عصرنا وسموه علم الفلسفة الإسلامية ، وكلمة الفلسفة هى دلالة على علم معين من نتاج الفكر الإنسانى ، وهو أرقى العلوم التى تمخض عنها الفكر الإنسانى وأقدمها وقد نتج عنه أغلب العلوم الإنسانية والطبيعية التى عرفها الإنسان والتى أخذت تتطور عبر العصور ، إلا أن العلوم الإسلامية برمتها ليست من نتاج عقل الإنسان ، إنما بدأت من حيث انتهت الفلسفة الوضعية والتى عنت بالبحث فى الأشياء والكيفية وما وراءها من أسباب وأخذت تنتقل من سبب إلى ما بعد منه وما سببه حتى وصلت إلى منتهى الأسباب الطبيعية وتوقفت ومن الفلاسفة من قال أن ما وراء الطبيعة هو الطبيعة ذاتها ومنهم من قال أن السبب الأول وراء الطبيعة هو مادة أولية أطلقوا عليها اسم الهيولى والتى عملت فيها الطبيعة وشكلت منها هذا الخلق البديع المتقن ، حتى الذين سلموا منهم بوجود خالق واحد مقتدر مثل أرسطو ذلك الفيلسوف اليونانى العظيم قد عطل الخالق

(١) انظر كتاب : حقائق الإسلام واباطيل خصومه ، للأستاذ عباس محمود العقاد.

وقال أنه قد فرغ من الخلق وتركه وانتهت مسئوليته ، ولاشئ بعد الموت ، ومنهم من أخضع الخلق لنظرية الاحتمالات الحديثة .

وأما العلوم الإسلامية برمتها ، فقد بدأت من حيث انتهت الفلسفة الوضعية، فقد بدأت من السبب الأول وواجب الوجود ، الموجود سبحانه الخالق البارئ المصور البديع القادر المقتدر القائم على شئون خلقه الذى خلق الموت والحياة وأرسل رسلاً وأنبياء ليعرفوا الإنسان بخالقه وأوحى إليهم بمناهج عبادته ومناهج الحياة التى يتبعها الإنسان مع كل رسالة أتى بها رسول من رسله عبر تاريخ الإنسانية إلى أن اكتملت الرسالة السماوية وتمت نعمة الله على عباده بخاتم النبيين محمد رسول الإسلام ﷺ ، والفكر الإسلامى كله قائم على هذه الحقائق التى لاتؤمن بها الفلسفة الوضعية على اختلاف مدارسها وعلى هذا قامت العلوم الإسلامية التى وضعها مشايخ أهل التصوف والحقيقة فى مواجهة الفلسفة الوضعية والغزو الفكرى الذى تعرض له الإسلام فى العصر العباسى ، وكانت هذه العلوم ليست نتاج الفكر الإنسانى ، إنما هى نتاج التوحيد والطاعة والتقرب إلى الله والاتصال بالله والاقرار بالعبودية لرب العالمين ورعاية حقوق الربوبية بموروث علوم النبوة التى ورثها العلماء عن النبى ﷺ ، فهى نتاج فتوحات ربانية وفيوضات إلهية ، وليست من فكر بشر ، ولم تقم على فكر فلسفى ، ولم يكن للمسلمين العرب علم بالفلسفة ، فوضعوا هذه العلوم القائمة على التوحيد التى وقفت أمام الفلسفة اليونانية وعجزتها ، وبقى الإسلام شامخاً ينشر أنوار التوحيد والهداية والخير للعالمين فى شتى ربوع المعمورة.

وفى الدراسات الإستشراقية التى وضعها المستشرقون حديثا لتخريب الإسلام من داخله والتى قامت على افتراضية باطلة تقول أن القرآن هو نتاج الحضارة العربية أى من صنع بشر ، قد اطلقوا على هذ العلوم الإسلامية اسم الفلسفة الإسلامية، وقد اصبح شرطاً أساسياً لبلوغ الدارس لقب عالم فى الإسلام أن يذهب إلى إحدى جامعات الغرب ويحصل على درجة الدكتوراة فى الفلسفة الإسلاميـــة

وبجانبها أحد العلوم الإسلامية الأخرى حتى يحظى بلقب عالم ، ويعود إلينا مبشراً بالدين الوضعى الذى وضعه المستشرقون لتخريب الإسلام من داخله بأيدى أهله مثلما عاد إلينا مذ سنوات قليلة الدكتور مصطفى أبو زيد مدرس الفلسفة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ من جامعة السوربون حاملاً الدكتوراه فى الفلسفة الإسلامية وتفسير حديث رسول الله ﷺ ، وقد افتضح أمره حينما صرح بأن القرآن هو نتاج الحضارة العربية أى من صنع بشر كما درس فى مناهج الاستشراق القائمة على ذلك ، وله أقوال كثيرة طعناً فى الدين سوف نعرض لها فيما بعد ، وكأن القلم يضحك بين إصبعى حينما أذكر أنه قد حصل على الدكتوراه فى تفسير حديث رسول الله ﷺ فى الدراسات الباطلة القائمة على افتراضية باطلة ، وهؤلاء هم النخبة وعلماء المسلمين ، فانظر إلى أى مدى قد وصلت لوثة الفكر العربى ، وكيف لهؤلاء أن يعلموا الإسلام لطلاب المسلمين فى الجامعات وينشروا بينهم ما يعانون من لوثة عقلية أو فكرية ، وجهل مركب. وهم من الأسباب الرئيسية لانتشار لوثة الفكر العربى ، فاللوثة مرض سريع العدوى والانتشار ، وما أسرع انتشاره حينما يصيب رءوس المجتمع وأساتذته إذ ينشرونه بين طلاب العلم.

والخلاصة ، أن أهل الذكر هم أهل العلم النقى الذى هو نور والذى توارثه علماء الأمة عن رسول الله ﷺ ، وجمعوا بين العلم والخبرة العملية أى الذوق والتذوق والممارسة ، وكان نواتهم أولئك الطائفة الوحيدة من المؤمنين فى عهد رسول الله ﷺ ،وليس أهل الذكر هم دارسو الكتب والتى يستطيع أى إنسان أن يدرسها حتى وإن كان كافراً ، فبرغم ما كتب عن الإسلام عبر العصور إلا أن الكتب لم تستطع أن تحتوى حقيقة الدين واكتماله ، وهم الطائفة التى وجدت فى عصر رسول الله ﷺ ، ولم يكن المسلمون قد تفرقوا وتمذهبوا وصاروا شيعاً بعد ، كل حزب بما لديهم فرحون ، والتى نشأت كلها على نزعات سياسية[1]، إثر الفتنة الكبرى باستشهاد ثالث الخلفاء الراشدين المهديين عثمان

(١) انظر كتاب : ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين .

رضى الله عنهم أجمعين ، وماتلا ذلك من أحداث جسام ، تفرقت على إثرها الأمة الإسلامية ، وكان من أوائل هذه الفرق الرافضة والمرجئة ، وما نتج عن ذلك من الفرق التى نشأت من الخوارج وماعُرف بفرق الشيعة ، ثم اخذت تظهر ما عرف بأهل السنة التى أخذت تتمذهب وتتشكل مع القرن الثانى الهجرى والتى أخذت تتجمع فى القرن الثالث الهجرى عند الإمام ابو الحسن الأشعرى بفرقة أهل السنة والجماعة والتى تمذهبت بأربعة مذاهب.

وبقى أهل الذكر منتشرون فى شتى الفرق الإسلامية ، ولم يتفرقوا ولم يتشيعوا وثبتوا على القول الثابت فى الحياة الدنيا ، يتمسكون بثوابت الدين وأصوله التى ورثوها عن مشايخهم التى تربوا على أيديهم ينتمون إلى الله ورسوله وأمة الإسلام ، لاإله إلا الله محمد رسول الله : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[1] ، وهم على اعتقاد راسخ أن كل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو مسلم وله حقوق أخوة الإسلام ، وقد عاشوا بين المسلمين فى كل مكان وفى كل فرقة خداماً لدين الله ، ولم ينازعوا أحداً على الدنيا ، ولم يدخلوا فى صراعات دنيوية أو سياسية رخيصة ، ولم يكونوا خداماً للسلاطين ولم يطرقوا ابوابهم ، وفى هذا يحضرنى قول مأثور للتابعين: إذا رأيتم العالم يطرق باب السلطان فلا تأخذوا منه ولاتأخذوا من السلطان ، وأما إذا رأيتم السطان يطرق باب العالم ، فخذوا منه وخذوا من السلطان.

وأراد الله سبحانه لعباده الذين اصطفى وخاصته أن لايكون لهم ظهوراً فى حياتهم الدنيا ولابعد مماتهم ، ولم يكن لهم نصيباً من الشهرة ، ولم يسع أحدهم للظهور ، واكتفوا أن يعيشوا عباداً لله وخداماً لدينه وللمسلمين ، وكان لهم دوراً نورانياً وتربوياً محدداً قاموا به على خير وجه ، وكل منهم قد ربى عدداً محدداً من المريدين ، كل بما قسمه الله له ، وربما يكون أحد مريديه قد قسم الله له أن يكون إماماً كبيراً للمسلمين من أئمة الشرع ومن المعلمين الذين

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٩

ينشرون علوم الإسلام فيكون له الظهور فى حياته والشهرة والأتباع حتى بعد مماته ، وربما يكون أيضاً صاحب مذهب ، وليس معنى ذلك أن ذلك المريد الذى حظى من الشهرة فى حياته وبعد مماته هو من أهل الدنيا والعاملين لها ، إنما هو أمر ضرورى أن يكون له ظهور بين الناس حتى يعلمهم شرائع دينهم ، ولايقدح ذلك فى ورعه وتقواه ومقامه الإيمانى الرفيع ودرجته العلمية.

وانظر فى ذلك مثلاً الإمام الشافعى رحمة الله عليه وشهرته ومسجده المشهور بالقاهرة بضخامته وروعته ، وبالقرب منه وفى الجبانة وبين المقابر، ضريح صغير لاتزيد مساحته عن أربعة أمتار فى أربع وقد ترك دائماً للإهمال وعدم العناية به وقد وضع فوقه لوحة قد علاها تراب أيضاً ، قد كتب عليها ما يفيد أن صاحب هذا المقام هو الإمام وكيع محفظ الإمام الشافعى القرآن ، وقد علقت أيضاً لوحة عليها أبيات شعر للإمام الشافعى تشهد بغير ذلك كتبها الإمام رحمه الله فى صاحب هذا المقام المهمل إذ يقول :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وعلمنى أن العلـــم نـــــور ... ونور الله لايهدى لعـــاص

فمن كلمة أرشدنى التى جاءت فى هذه الأبيات نستشف أن الإمام وكيع رحمه الله ، لم يكن محفظ القرآن للإمام الشافعى وحسب ، بل كان مرشده ومعلمه وأستاذه الذى علمه العلم النور الذى لايتأتى إلا بالطاعات وترك المعاصى، وهل كل العلوم لايمكن تعلمها إلا بترك المعاصي ، إنما هى علوم التقوى والأنوار : ﴿واتَّقُوا اللَّهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[1] ، وسبحانه هو القائل:﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[2] ، وهكذا لم تستطع الكتب أن تحتوى النور وحقيقة الإسلام التى لاتتأتى إلا بالتذوق والممارسة وبالطاعات واجتناب المعاصي والتقرب إلى الله بالنوافل والأعمال الصالحة ، فسبحانه أنواره ساطعة ودائمة ومتصلة وكلماته لاتتغير : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ

(١) سورة البقرة : ٢٨٢ (٢) سورة النور : ٣٥

قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ولَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾[1] ، والكلمات منتظمات حروف تحمل معان تدركها العقول ، وكلمات الله لاتخلو عن ذلك إلا أنها تزيد على ذلك للعقول الطائعة أى القلوب المؤمنة ، فهى إرسالات نورانية لها أثارها ووقعها على قلوب المؤمنين ومهما تناولتها الأقلام بالوصف والتفصيل لايمكن الوصول إلى كنهها إلا بالتذوق وبشمول أنواره عباده :﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[2] .

ويبقى السؤال الذى يطرح نفسه ! هل يوجد أهل الذكر فى عصرنا ؟ ولابد أن تكون الإجابة بنعم . إذ يقول النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة». فلا يخلو مجتمع إسلامى من أهل الذكر والتقوى والورع الذين هم على اتصال بالله سبحانه والذين يعيشون فى الحقيقة وبالحقيقة ، ولكن هل كل أدعياء التصوف والحقيقة الذين نراهم فى عصرنا هم حقاً من أهل الذكر ، فلو كان الأمر كذلك ، لما صار أمر البلاد والعباد ، إلى ما صار إليه فقد وصل تعداد أدعياء التصوف فى مصر وحدها إلى مايربو على السبعة ملايين نسمة ، ولو صح من بين هؤلاء واحد بين كل ألف لكان فى ذلك خيراً كثيراً ، فقد كثرت الطرق الصوفية ودخلت عليها البدع والجهل والخرافات والترهات والشعبذة ، وقد استطاع أعداء الإسلام ، أن يخترقوها ويقيموا طرقاً صوفية لتخريب الإسلام من داخله مثلما أنشأ الإنجليز الطريقة القاديانية بالهند ومنها انتشرت إلى كثير من البلدان الإسلامية ، وما خفى كان أدهى وأمر.

وعلى كل، فتبقى حقيقة لاجدال فيها أن الإسلام لايعرف الفلسفة ، وقد بدأت العلوم الإسلامية كلها بالتوحيد وانتهت بالتوحيد ، وقد بحث المسلمون الأوائل فى الطبيعة ولم يقفوا حيارى ولم يشغلوا بالبحث عما وراء الطبيعة أوما يسمى بـ (الميتافيزيقا) كما هو المصطلح الغربى ، وأهل الذكر فى الإسلام هم موحدون راقيون عاملون بالذكر تلقوا علوم الدين والتوحيد على أياد طاهرة من نفوس طاهرة فى أماكن طاهرة فى سلسلة طاهرة إلى أن ينتهى نسبهم إلى رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة الكهف : ١٠٩ (٢) سورة النور : ٤٠

أين هو الإسلام ؟!

ونحن فى عصر قد تحول الإسلام فيه إلى متاهة ، ولم يقف إفتراق المسلمين عند ثلاثة وسبعين فرقة كما تنبأ رسول الله ﷺ ، والتى انقرض أغلبها ، إلا أنه قد تولدت من هذه الفرق التى بقيت فرقاً كثيرة يصعب حصرها ، ولم يقف التفرق فى عصرنا مقصوراً على التفرق من الداخل وحسب كما حدث من قبل إثر مقتل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان رضى الله عنه ، بل أصبح أعداء الإسلام أيضاً ينشئون ويؤسسون فرقاً إسلامية ، وكأنهم قد أقاموا مزرعة لتفريخ الفرق الإسلامية ، وكل فرقة تدعى أنها الفرقة الناجية من النار وأنها على الحق المبين، وأنَّى لنا بالشهرستانى[1] ، والذى حصر الفرق الإسلامية فى عصره فى القرن السادس الهجرى ، وكانت ثلاثة وسبعين فرقة ، وقد وضع كتاباً فى ذلك حصر فيه تلك الفرق وتحدث عن كل فرقة ، وقد استغرق تأليفه خمسة وعشرين سنة، وإذا ظهر مثله فلن يستطيع حصر الفرق الإسلامية وإن استغرق عمره بأكمله ، فكلما انتهى من الحصر فى يوم من الأيام سوف يفاجأ بظهور فرق جديدة فى اليوم التالى ، ويحق إذن لكل مسلم فى عصر المتاهة الإسلامية والضياع أن يتساءل : أين هو الإسلام ؟ وقبل أن نبحث عن إجابة لهذا السؤال من خلال منهج الفظرة الذى قدمنا ، فإنه يحضرنى لمحة طيبة عن الإسلام قدمها أحد المفكرين والمؤورخين الذين تربينا على كتبهم وفكرهم ،وفيها اتصال بالماضى برؤية عصرية ، ولم يقفوا على المنقول ويعطلوا العقول ، إذ يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتاب فجر الإسلام[2]:

---

(١) انظر كتاب الملل والنحل للشهر ستانى.

(٢) كتاب فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين . الباب الثانى ، الفصل الأول.

« لفظ الإسلام ومعناه ، إذا تتبعنا مادة (س ل م) ونشوء كلمة الإسلام رأينا أن معنى السلام المسالمة ، وضد المسالمة الحرب والخصام ، جاء فى القرآن : ﴿ وعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وإذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾[1] ، والجاهلية ليست ضد العلم ، ولكن من الجهل الذى هو السَّفَه والغضب والأنفة والحمية والمفاخرة بالأنساب والعصبية والقبلية .

وفى معنى الآية الكريمة قد كما جاء فى الطبرى (أن عباد الله الذين يمشون على الأرض بالحلم ، لايجهلون على من جهل عليهم).

وقد ورد فى القرآن الكريم استعمال أسلم المشتق من السلام بمعنى الخضوع والانقياد لما كان الخضوع أدعى إلى السَّلام ،وفى هذا المعنى جاءت الآية الكريمة : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُم وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[2] ، ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وجْهِيَ لِلَّهِ﴾[3] ، وقد أطلقها القرآن بهذا المعنى أحياناً على المؤمنين والكافرين جميعاً لأنهم خاضعون لله ، ومنقادون لله بحكم خلقتهم ، رضوا أوكرهوا ، تسرى عليهم قوانين العالم ، ولايستطيعون الخروج عليها : ﴿ ولَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[4] ، فكل من فى السماوات والأرض مسلم بهذا المعنى ، أى خاضع لأمر الله ، مطيع لما وضع فى العالم من قوانين. ثم قصدت فى الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعاً ، فكان المسلم هو الذى رضى بإطاعة الله ، فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالإرادة وبهذا المعنى يطلق كلمة « مسلم» على كل من خضع لله وأطاع أىَّ نبى من الأنبياء، فأتباع موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام مسلمون .﴿ ووَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلا وأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[5] ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ

---

(١) سورة الفرقـــان : ٦٣ (٢) سورة الزمر : ٥٤

(٣) سورة آل عمران : ٢٠ (٤) سورة آل عمران ٨٣ (٥) سورة البقرة : ١٣٢

﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]، ثم خصت فى الاستعمال الدين الذى أتى به نبى الله محمد رسول الله ﷺ، وبهذا المعنى ورد قول الله تعالى: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[2].

ونكتفى بهذا القدر من اللُمحة عن الإسلام من كتاب المرحوم الأستاذ احمد أمين، ونضيف أن السلام الذى هو من مادة (س ل م) والتى جاء منها الإسلام هو إسم من أسماء الله الحسنى، وقد تفضل المولى على عباده الذين اسلموا طوعاً وسماهم مسلمين، وجعل تحيتهم السلام عليكم والتى فرضت بنص القرآن: ﴿وإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾[3]، وفى هذا أيضاً يقول النبى ﷺ: « لما خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام قال: اذهب فسلّم على اولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع مايُحيُّونك فهى تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: (السلام عليك ورحمة الله، فزادوه رحمة الله [4]، ويقول صلوات الله وسلامه عليه أيضاً « **لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولاتؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم**».[5]

ولقد بين رسول الله ﷺ للناس ما أنزل إليه من ربه وعلم المسلمين شئون دينهم، وكيف تكون تحية الفرد للفرد، وكيف تكون تحية الفرد للجماعة، ورد التحية من الفرد للفرد، ورد التحية من الجماعة للفرد، فإذا ألقى المؤمن السلام على أخيه ومد إليه يده، فعلى أخيه أن يقوم له ويصافحه، ويزيد على سلامه بالرحمة والبركات من الله عملاً بالفريضة القرآنية ﴿وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ منها﴾[6]، وحتى تتحقق المثلية فى الرد لابد أن يقوم لأخيه الذى

---

(١) سورة آل عمران : ٥٢
(٢) سورة المائدة : ٣
(٣) سورة الأنعـام : ٥٤
(٤) متفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٥) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه
(٦) سورة النساء : ٨٦

هو واقفاً أمامه يمد له يده ، وأما إذا دخل على جماعة وهم جلوس ،ولاينوى أن يصافحهم باليد ، فلايقوم له أحد مهما كان قدره أو مركزه الاجتماعى ، فقد نهى النبى صلوات الله وسلامه عليه عن ذلك حتى لايفعل المسلمون كما تفعل الأعاجم ، ومع ذلك فترى أناساً يدَّعون تمسكهم بالسنة ، ويمد لأحدهم أخوه يده ، فلايقوم له ويدعى تمسكه بالسنة وهم فى الحقيقة لايعرفون سُنة ولافرض، إنما يعيشون فى الدور وحسب ، فالسنة أدب جم والإسلام أخلاق رفيعة ،وليس من السهل الوصول إليها.

وبينما حافظ المسلمون طوال اربعة عشر قرناً على تحية الإسلام التى فرضت بنص القرآن عند اللقاء والوداع ، نرى اقواماً قد استنكروا عن جهل بقيمتها ومعناها ، اخترعوا تحية جديدة ليظهروا ويبينوا أنهم من أهل التقوى والصلاح، فإذا كنت فى زيارة أحد تراه عند الوداع يمد إليك يده وهو يقول : لا إله إلا الله ، فضطر أن تقول : محمد رسول الله ، وكذلك إذا تحدث إليك فى الهاتف وأراد أن ينهى المكالمة ، وهكذا حتى تحية الإسلام التى هى بداية التعارف واللقاء بين المسلمين ، ومفتاح كل تعامل قد أخذت فى التشويه والتبديل . وقد أثرنا أن تكون تحية الإسلام مدخلاً للإجابة عن ذلك السؤال الذى هو واجب على كل مسلم أن يطرحه ويبحث عن إجابته فى عصر تحول فيه الإسلام إلى متاهة وضياع ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ، فالسلام عليكم.

وسوف نتبع فى بحثنا عن إجابة لهذا السؤال الحيوى والأهم أربع مقدمات:

المقدمة الأولى : الإسلام دين الفطـــرة.

المقدمة الثانية : الإسلام دين للناس كافـة.

المقدمة الثالثة : لاكهانـة فى الإســـلام.

المقدمة الرابعة : المعصوم والمتبوع واحد ﷺ.

مهما تنازع القوم واختلفوا وتشرذموا وتقاتلوا ،وادعت كل فرقة أنها على الحق المبين وأنها الفرقة الناجية من النار ، وأنها هى الفرقة الوحيدة التى على ما كان عليه رسول الله ﷺ ، فلن يستطيع أحد أن ينكر أن النبى وأصحابه كانوا على الإسلام أى على الفطرة ، وهى غاية البعثة الشريفة كما بينا من قبل لتقويم إعوجاج الإنسان وإعادته لفطرته التى فطر الله الناس عليها ، والفطرة كما أجمع العلماء وكما فصلنا هى سلامة الطوية ونقاء السريرة ، فلاطمع ولاجشع ولاحقد ولاحسد ولاكراهية ولاعداوة ولابغضاء ، وفى مجملها نزع الغل من القلوب أو الصدور ، وهو ماكان عليه النبى وأصحابه صلوات الله وسلامه عليه ورضى الله عن أصحابه الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه وثبتوا على العهد بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، ولقد ذكرنا من قبل الآيات التى نزلت فى ثلاثة من الخلفاء الراشدين المهديين أو الأربعة رضى الله عنهم وبشرهم رسول الله ﷺ بالجنة :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[1] ، وفى هذا الشأن قد جاء أيضاً : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾[2] ،

ونزع الغل من الصدور لابد أن يكون فى الحياة الدنيا ، فالأخرة دار جزاء على ماتم من أعمال فى الحياة الدنيا ، وليس فيها نزع للغل أو إصلاح أو هدى، وما الجنة بالنسبة للمؤمن فى الآخرة إلا دار إنتقال من حياة إلى حياة أخرى ومن جنة الطاعة والرضا فى الحياة الدنيا إلى جنة الجزاء والفوز العظيم فى الآخرة، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾[3] ، ويرشدنا إلى ذلك

(١) سورة الحجر : ٤٥:٤٨ (٢) سورة الأعراف : ٤٣

(٣) سورة التوبة : ١٠٠

الفوز العظيم هذه الآيات من سورة الحشر التى نزلت فى الأنصار :﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، فعلى كل مسلم أن يدعو الله فى سجوده أن ينزع الله الغل من قلبه ، وأن يجاهد فى سبيل الله نفسه حتى يغلبها وينتصر عليها .

وأما عن المقدمة الثانية أن الإسلام دين للناس كافة ، فهذا أمر لاخلاف عليه، وقد تناولناه من قبل ، وبذلك كان على الإسلام أن يتعدى اللغات ، وهو أمر لابد من وضعه فى الاعتبار عند النظر فى أى قضية إسلامية ، فما البال والقضية: أين هو الإسلام ؟! ونحن فى عصر قد انتشر فيه الإسلام فى شتى أرجاء المعمورة، وقد صار المسلمون العرب أو الناطقين بالعربية لاتزيد نسبتهم من إجمالى تعداد المسلمين فى العالم الناطقين بمختلف اللغات والذين هم أيضاً من مختلف الجنسيات والألوان ويعيشون فى بيئات ومجتمعات شتى وهم الغالبية المسلمة إذ لا يزيد المسلمون العرب عن سبعة عشر فى المائة (١٧٪)، ومع ذلك فمازال المسلمون العرب يحبسوت الإسلام فى لغتهم وهيئتهم وعاداتهم وزيهم ، وبذلك يحاربون الإسلام دون أن يدروا ويخدمون أهداف أعداء الإسلام الذين يريدون أن يصوروه ويظهروه للعالم أن الإسلام دين العرب ، والعرب متعصبون لدينهم ، وبذلك لم يقع على الإسلام من ظلم فى تاريخه مثلما أوقعه به أصحاب النزعات السياسية والفرق التى خرجت من المسلمين العرب ، والتى أحيت فى عصرنا الصراعات السياسية فى الإسلام بصورة يندى لها جبين الإسلام ، ويحق له أن يتبرأ منهم.

---

(١) سورة الحشر : ٩، ١٠

ولما كان الإسلام ديناً للناس كافة فقد جاء بتعاليم بسيطة للإنسانية وسهلة وميسورة لكل إنسان على اختلاف الجنسيات والألوان والألسن فدعوة الإسلام كلها تنحصر فى أمرين ، لا ثالث لهما ، وهما التوحيد والعمل الصالح واللذان جوهرهما الإخلاص لرب العالمين ، ولاقيمة للتوحيد بدون الإخلاص والعمل الصالح ، ولامعنى للعمل الصالح بدون الإخلاص والتوحيد ، فذلكم كل لايتجزأ كما جاء فى سورة البينة ، أى الحجة والدلالة :﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ**﴾[1] ، والزكاة فى مفهومهما الشامل هى تزكية النفس : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[2] ، وقد أخبرنا القرآن الكريم أن الجزاء والأجر ورضا الله مرتبط كله بالعمل الصالح : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾[3] ، ولم يحجر الإسلام على حرية العقل والفكر والعلم ، بل أطلق كل هذا حتى وإن ارتقى المسلمون بالعلم وركبوا طبقاً عن طبق ووصلوا إلى القمر فليس فى الإسلام ما يمنع ذلك، إنما هدى الإنسان إلى أمرين فيهما صلاحه وصلاح من حوله من الإنس والطير والحيوان والبيئة والبشر جميعاً ، وهما التوحيد والعمل الصالح، ولم يقيده بغير ذلك ، وترك له حرية العمل ، يعمل كيفما يشاء ويستعمر أرض الله ، أى يعمرها ويتغلب على الطبيعة ويرودها لراحته ورفاهيته بالعمل الصالح، فلايظلم، ولايُظلم ، وما هى إلا دعوة لرقى الإنسان وسموه ، وليس الإسلام بأقوال وطقوس وعبادات ، فلم تأت آية واحدة فى القرآن تخبر أن القول عليه أجر إلا إذا صاحبه العمل : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِّمِنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وعَمِلَ صَالِحًا وقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ**﴾[4] ، ولم تأت آية واحدة

---

(١) سورة البينة : ٥ (٢) سورة الشمس : ٩:١٠

(٣) سورة البينة : ٧:٨ (٤) فصلت : ٣٣

فى الكتاب المبين تخبر أن هيئة المسلم ومظهره عليها أجر أولهما أى قيمة إيمانية ،ولقد حسم رسول الله ﷺ هذا الأمر فى قوله : « إن الله لاينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ، فالقلب هو مركز التوحيد والأخلاص وينضح بالعمل الصالح ، فمظهر المؤمن وهيئته هو أخلاقه وسلوكه وعمله ، وليس العمل الصالح محدد بأعمال بعينها ، إنما أى عمل يقوم به المؤمن فى حياته ويخلص فيه ابتغاء مرضات الله ، فهو عمل صالح ، وحتى العلم أو العلوم الدينية برمتها واللغة العربية والبلاغة وغيره ، فكل ذلك ليس عليه أجر إلا إذا تمخض عنه عملاً صالحاً ، وقد وردت آيات كثيرة فى ذلك نذكر منها : ﴿ **وأَمَّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى**﴾[1] ، ﴿ **ومَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى**﴾[2] ، ﴿ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيرِ حِسَابٍ**﴾[3] ، وحتى أنه قد وردت عدة آيات فى الكتاب تطمئن أتباع الديانات الأخرى الذين يؤمنون بالله واليوم الأخر وعملوا صالحاً وتذهب عنهم الخوف، ونذكر فى ذلك قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَى والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[4] ، فالإسلام كله قائم على أمرين ، لاثالث لهما ، ألا وهما التوحيد والعمل الصالح ، وتندرج تحت كلمة التوحيد كل العبادات ، وكأن العبادات هذه فى مجملها هى وسائل لتهذيب النفس حتى تستقيم على الأخلاق الكريمة والعمل الصالح وتتحقق دعوة المصطفى ﷺ الذى بُعث من أجل تقويم اعوجاج الفطرة الإنسانية وإعادة الإنسان إلى فطرته التى فطر الله الناس عليها ، فالله غنى عن العالمين ،وهو ليس فى حاجة لمن يعبده ، فكل ما فى الكون فهو مسخر لعبادته.

---

(١) سورة الكهف : ٨٨ (٢) سورة طـه : ٧٥

(٣) سورة غافـر : ٤٠ (٤) سورة البقرة : ٦٢

وأما عن المقدمة الثالثة فى بحثنا هذا وعن إجابة على السؤال الذى لابد أن يشغل الكثيرين من المسلمين فى كل أنحاء العالم : أين هو الإسلام ؟! وقد كانت لا كهانة فى الإسلام . فقد حفظ الله الذكر وحفظ دينه من التبديل والتحريف عبر العصور بمنع الكهانة فيه وجعل المسلمين كلهم متساويين يسعى بذمتهم أدناهم ، كما جاء فى وثيقة المدينة التى وضعها رسول الله ﷺ لأهل يثرب التى تحولت إلى المدينة المنورة بتشريفه لها ، والتى استهلها بمبدأ المساواة بين المسلمين وهو المبدأ القرآنى الذى بينته آيات الكتاب والتى بينت أن المفاضلة بين الناس جميعاً هى تقوى الله ، والتى لايعلمها أحد إلاالله سبحانه ، وليس فى الإسلام ما يسمى برجل الدين أو رجال الدين والكهنوت ، ولا واسطة بين العبد وربه ، إنما هو الطريق إليه سبحانه هو فى اتباع رسوله ﷺ كما بينت آيات الكتاب ، وكما ذكرنا من قبل : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1] ، فالله واحد لا إله إلا هو والطريق إليه واحد ، وقد أرسل رسولاً واحداً بكتاب واحد بمنهاج واحد بطريق واحد ، لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولما كانت دعوة الإسلام بسيطة وميسورة على كل مسلم مهما كان لونه أو جنسه أو لغته ، فقد جعل كل مسلم مكلفاً بالالتزام بتعاليم دينه وإقامة شعائره كاملة فى أى مكان يتواجد به دون الحاجة إلى كاهن ، وكل مسؤول عن عمله بقدر ما علم : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلا وسْعَهَا** ﴾[2] ، وكل إنسان مسؤول أمام الله عن عمله ، وسوف يقف بمفرده يوم القيامة أمام الله ، فيحاسبه على عمله بمفرده كيوم ولدته أمه : ﴿ **وعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾[3] ، ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾[4] ، ﴿ **وكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي**

---

(١) سورة آل عمران : ٣١ (٢) سورة البقرة : ٢٨٦
(٣) سورة الكهف : ٤٨ (٤) سورة الطور : ٢١

عُنُقِهِ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾[1] ، ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ومَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[2] ، والقرآن كله ينطق بأن الله غنى عن العالمين ، وليس فى حاجة إلى من يعبده أو يمن عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ واللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * ومَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[3] ،

وفى الإسلام معلمون وعلماء دورهم محدد بحفظ كتاب الله وتعليمه للناس وتبيين آياته وتعليمهم طريق رسول الله ﷺ ومنهاجه وكيفية تطبيق كتاب الله فى الحياة العملية وهو ما يسمونه بالسنة وهى الطريق أو الطريقة أو الوسيلة، وهم ليسوا بكهان ، ولايدعى أحد منهم أن له تميز عند الله إلابالعمل الصالح، والمسلمون يحترمونهم ويجلونهم كمعلمين يعلمونهم أموردينهم ،وليسوا بكهان يلجئون إليهم لكى يتوسطوا بينهم وبين الخالق سبحانه ، ودورهم تعليم علوم الشريعة والتى تشمل العقيدة والأخلاق والمعاملات والعبادات وهى كلها علوم مكتوبة ، وكل ماهو مكتوب وماحوته الكتب فهو علم متاح لكل من يجيد اللغة العربية أن يتعلمه ويعلمه ويحصل فيه على الدرجات العلمية، وليس بذى شرط أن يكون مسلماً مثلما فعل المستشرقون وكما ذكرنا من قبل أن العلم فى الإسلام علمان ، علم مكتسب وهو كل علم تحتويه الكتب، وعلم موهوب وهو علم مرتبط بتقوى الله والقرب من الله وهو علم النور الذى لايتأتى إلا بالذوق وبهذا قد حصن الله دينه من الكهانة والكهان : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾[4] ، ونور الله ليس خاصاً بعصر من العصور ، أو بقوم مؤمنين فى الزمن الأول قريب العهد من النبوة ، إنما نور الله ساطع ودائم ويختص الله من يشاء من عباده ويَمنُّ على من يشاء : ﴿ ولَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ

---

(١) سورة الإسراء : ١٤:١٥ (٢) سورة الإسراء : ١٥
(٣) سورة فاطر : ١٥ :١٧ (٤) سورة النور : ٣٥

عِبَادِهِ﴾[1] ، ﴿ ونُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾[2] ، ولقد منَّ الله على أهل الذكر الذين ذكرنا من قبل من أنواره وفضله وفتح عليهم القرآن ، فليس كتاب الله بكتاب عربى يتكون من حروف وكلمات وصوتيات وعبارات وتراكيب مثله مثل أى كتاب يمكن لكل من يجيد العربية أن يقف على أسراره ويطلع على حقيقته ، إنما علمه وأنواره مرتبطة بمنزله سبحانه لاينفك عنه ، ولايمكن لأحد أن يُعلمه غيره : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ﴾[3] ، ﴿ ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ومَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مَنَ الظَّالِمِينَ * وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[4] ، ولقد نزلت هذه الآيات فى أهل الذكر توصى رسول الله ﷺ بهم ، أولئك الذين جذبتهم الأنوار وعاشوا بالذكر فى الذكر للذكر لخدمة دين الله ، وتوارث أبناؤهم فى الذكر أسرار الكتاب عبر العصور ، وكانوا المصابيح التى أضاءت طريق الحضارة الإسلامية عبر تاريخه، ودين الله هوكله منٌّ وتفضل من المولى عز وجل على المؤمنين : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[5] ،ولابد من تفضل صاحب الفضل والمن سبحانه ، ولابد من الاتصال بالرحمان لتعلم القرآن.

فقد جاء الإسلام ليجيب عن أسئلة الطفل التى تحيره وتشغله فى فطرته ، والتى إن مات عليها فلا حساب عليه ، ويصحبه فى مختلف مراحل عمره وفى مشوار حياته كلها محافظاً على فطرته إلى أن ينتهى به الأجل وهو فى الفطرة ،

---

(١) سورة إبراهيم : ١١ (٢) سورة القصص : ٥

(٣) سورة الرحمن : ١، ٢ (٤) سورة الأنعام : ٥٢: ٥٣ (٥) آل عمران : ١٦٤

وليس للفطرة جزاء إلا الجنة : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِاللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1] ، ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِن الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ومَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيهِ مَن يَشَاءُ ويَهْدِي إِلَيهِ مَن يُنِيبُ ﴾[2] ،

وقد تكون المقدمات التى طرحنا فى طريق البحث عن إجابة على سؤال الساعة، أين هو الإسلام قد تداخلت فلابأس ، فهى تبحث عن نتيجة واحدة ، ولامانع من أن تلتقى فى الطريق وتتداخل ، وأما عن المقدمة الرابعة ، وهى أن المعصوم ، والمتبوع واحد ﷺ ، فهذا ما ينطق به القرآن الكريم والتى لم ترد فيه آية واحدة تشير أن أحداً معصوم غير النبى ﷺ : ﴿ ومَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إلا وحْيٌ يُوحَى ﴾[2] ، وقد جاءت آيات كثيرة تأمر المؤمنين باتباعه وحده ، ولم تأت آية واحدة بالكتاب تبين أى الفرق الإسلامية التى كانت نشأتها نزعات سياسية أحق بالاتباع ، وإن كانت كل فرقة قد فسرت بعض آيات الكتاب على هواها ، ووضعت أحاديث نسبتها إلى الرسول ﷺ ،و هذا أمر عادى بالنسبة لأهل الدنيا الذين تستروا وراء الدين وتسربلوا فى عباءة التقوى والصلاح ، وعلى كل فلا نحب أن نطرح قضايا الفرق والفرقة ، وسوف نختصر القول إلى أبعد الحدود.

فلايستطيع أحد أن يدعى أن الإمام على رضى الله عنه كان من أهل الشيعة أو من أهل السُنة ، وهو الذى حدث حوله النزاع ، وهما أكبر الفرق الإسلامية، إنما كان على رضى الله عنه من أتباع رسول الله ﷺ ومن أصحابه السابقين المهاجرين

---

(١) سورة الروم ٣٠: ٣٢ (٢) سورة الشورى : ١٣

(٣) سورة النجم : ٣ : ٤

وهو فتى الإسلام الذى أسلم وعمره عشرة أعوام وتربى فى بيت النبوة ، وقد ثبت على العهد بعد انتقال رسول الله ﷺ ، ولم يحدث فى الإسلام أمراً ليس منه وعاش على ما كان عليه النبى وأصحابه ، وقد نزع الله الغل من قلبه مثلما نزع من أصحابه أبوبكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ونزل فيهم قرآن يُتلى إلى يوم القيامة ويبشرهم بالجنة كما بين النبى ﷺ وكما قدمنا فى الآيات من سورة الحجر ، وحاشا لله أن ينزع الغل من قلب عبد من عباده ثم يعود الغل إلى قلبه أو يكون للشيطان سلطان عليه بعد أن استخلصه الله ، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ الذين بقوا على العهد ولم تغرهم الحياة الدنيا ولم تتنازعهم الأهواء على قلب رجل واحد وإذا كان الرسول ﷺقد قال « الأئمة من قريش» فى الحديث المتفق عليه ، فقد كان الإمام من قريش ، وقد عاش الإمام فى ولاية الصديق وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، والكل لايدعوه الا بالإمام وكلما عُرض على أحدهم قضية واحتار فيها قال : أتونى بابى الحسن ، وقد أشتهر فى التاريخ الإسلامى قول : قضية ومالها إلا أبا الحسن .

واشتهر على رضى الله عنه عبر التاريخ الإسلامى بالإمام ،فإذا ذكر لفظ الإمام دون ذكر الاسم ، فالمقصود على كرم الله وجهه ، فقد اراد الله فصل الإمامه عن الخلافه والجمع بينهما أيضاً ، وقد ضرب هؤلاء القمم بعد رسول الله ﷺ المثل العليا للمسلمين ، وعلى سبيل المثال فى عصرنا ، فهب أن المسلمين فى أى دولة قد صاروا أغلبية وأرادوا أن يقيموا دولة إسلامية ، فمن أين يأتوا بخليفة لهم من قريش ؟! والحاكم لابد أن يكون من القوم ، إن كانوا أحراراً ، وقد تشاور المهاجرون والأنصار فيما بينهم واتبعوا المبدأ الأساسى فى الحكم واختاروا ماشاءوا وما أرتضوا ، ونظام الحكم والدولة فى الإسلام يختلف عن أى نظام للحكم فى أى دولة قد عرفتها البشرية ، وهذا ما سوف نتناوله فى فصل لاحق ، والله المستعان .

ولم يختر المهاجرون والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة الإمام ، إنما اختاروا خليفة رسول الله ﷺ والحاكم ، ولهم الحق فى ذلك ، وأما الإمام فالله وحده يختاره ، ويُمنُّ على من يشاء من عباده ، ولم يكن الإمام رضى الله عنه بالإمام المعصوم ، ولم يدعى ذلك ، ولم يدعو إلى شيعته ، إنما كان تابعاً لرسول الله ﷺ ينهج نهجه ، ويتبع طريقه ويعيش على ما كان يعيش عليه النبى وأصحابه على الفطرة التى كانوا عليها وكثيراً ما كان الإمام يرفع يديه إلى السماء ويردد دعائه الماثور قائلاً : « اللهم آتنى إيمان العوام» أى أهل الفطرة الذين يعيشون فى إخلاص مع الله ، ولايسعون لتحقيق مصالح من وراء الدين.

ومن عبقرية الأستاذ العقاد رحمه الله العبقريات ، وقد سمى ترجمة سيدنا على رضى الله عنه : عبقرية الإمام . ومن الضلال المبين النظر إلى الإسلام على أنه دولة ، وقد تنازع الخلفاء الراشدون المهديون الحكم بعد وفاة النبى ﷺ، فالدين أربعة أقسام : العقيدة والأخلاق والمعاملات والعبادات ، فبالله عليك فى أى قسم نضع تلك الأحداث السياسية والتاريخية ، ولم يُبعث النبى ﷺ لإقامة دولة عربية فى شبه الجزيرة العربية ، فقد مكث حوالى ثلاثة عشر عاماً فى مكة يدعو لدين الله ، ولم يكن له دولة ولاسيف ،ولولا قومه أخرجوه منها لما خرج ، ولما اقام دولة فى يثرب لنشر دين الله وحمايته ، فقد بُعث رسول اللهﷺ لتقويم إعوجاج الإنسان وإعادته لفطرته الأولى التى فطر الله الناس عليها، وإذا كان لم يستطع أن يقوم اعوجاج أصحابه الكبار ، فمن ذا الذى يُقوّم من بعده ؟! فلم يكن اصحاب رسول الله ﷺ الكبار والخلفاء الراشدون المهديون رضى الله عنهم مثل سائر الناس إنما كانوا أطهاراً ابراراً وثبتوا على العهد بعد وفاة النبى صلوات الله وسلامه عليه.

وعاشوا بالدين وللدين ولم تغرهم الحياة الدنيا ولم يركنوا إليها وأنه ليحضرنى ابيات شعر فى هذا قد ذكرها الراحل الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى مقدمة عبقرية الصديق إذ يقول الشاعر العربى:

لا تلحُ ذا بـأس وذا همـــة ... على ذنوب العُصبة الغُلَّـبِ

فليس مقياسُك مقياسهـم ... ولاهمُ مثلك فـى المـأرب

انظر إلى ما خلفوا بعدهم ... من المعالى ثم لـم واعتب

من ركبَ الهائل من أمـره ... فعذره فى ذلك الـــمركب

فلم تكن الفتنة الكبرى التى وقعت بين المسلمين بعد استشهاد الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه إلا صراعاً بين الحق والباطل ، ولم تكن مطلقاً صراعاً بين الحق والحق ، فالحق واحد لايتعدد ، وماذا بعد الحق إلا الضلال. وقد جاء بعد استشهاد الإمام رضى الله عنه الإمام الحسن رضى الله عنه خامساً للخلفاء الراشدين ، ولكنه لم يمكث فى الحكم أكثر من ستة اشهر وركل الحكم ومملكة الدنيا وتركها للمتصارعين والمتكالبين عليها حقناً لدماء المسلمين ، وضرب المثل للمسلمين كيف يكون الحاكم فى دولة الإسلام ،وإلى أى مدى يخشى ربه ، ولاتغره الدنيا وزينتها ولايركن إليها ، فقد عاش أولئك الأطهار الأبرار أئمة للهدى ودين الحق .

وبرغم تلك الفتنة التى مزقت وحدة المسلمين ، والتى مازلنا نعانى منها حتى يومنا هذا ، إلا أن الإسلام بقى على حقيقته بأهل الفطرة الذين يعيشون فى إخلاص مع الله ، ولايسعون لتحقيق مصالح من وراء الدين ، وينشرون دين الله أينما حلوا فى كل مكان فى العالم ، حتى انتشر فى كل ربوع المعمورة بأهل الفطرة الذين سافروا إلى مختلف البلدان والدول يعاملون الناس أينما حلوا بأخلاق الفطرة الحميدة تأسياً برسول الله ﷺ فيحبهم الناس ، ويدخلون فى دين الله على قناعة لما عليه المسلمين من أخلاق كريمة ورحمة وتسامح ورأفة بكل ما خلق الله ، فمن أحب الخالق ، أحب خلقه.

---

(١) انظر كتاب رجال ونساء أسلموا الناشر : المكتب المصرى الحديث.

ولنستكمل النظر فى منظومة الفكر التى نعيش بها ، والتى أصبحت منظومة كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره ، ولنبحث عن أسباب اللوثة الفكرية التى أصابت الفكر العربى برمته ، وليست الفصائل الدينية وحسب ، وذلك فى فصول لاحقة ،ولامجاملة لأحد أو لفصيل من الناس مهما كان ، ويقول المعصوم الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه : « لايخرج الحق عن السواد الأعظم»[1] ، والسواد الأعظم هم أهل الفطرة الذين يعيشون بأخلاق كريمة وفى إخلاص مع الله ، ولايسعون لتحقيق مصالح من وراء الدين ، وليس لأهل الفطرة فرقة ، إنما هم أمة الإسلام.

***

(١) رواه مسلم .

الفصل الثالث

فى ليـــل القاهـــرة

إذا كان قد تم جلاء القوات الإنجليزية عن مصر منذ حوالى ستين سنة ، فإن هذا لايعنى انتهاء أثار الاحتلال الذى خضعت له البلاد طوال ما يزيد عن سبعين عاماً ، فلم يكن الاحتلال الإنجليزى لمصر ، هو احتلال عسكرى وحسب من أجل الموقع الاسترتيجى وقناة السويس والقطن المصرى طويل التيلة لتشغيل مصانع (لانكشير) بانجلترا ، كما تعلمنا فى المدارس ، فهذه كلها أهداف لايمكن إنكارها ،ولكن ماوراء احتلال مصر كان له أهدافاً أكبر من ذلك وأبعد ، فقد كان الهدف من احتلال البلدان العربية برمتها سواء كان ذلك عن طريق الإنجليز أو الفرنسيين أو الإيطاليين فى ليبيا من أجل تحقيق أهداف استراتيجية عامة لأوروبا من أجل القضاء على الحضارة الإسلامية ومحو الشخصية العربية والقضاء عليها ، وإذابتها فى الشخصية الأوروبية ، وكان التركيز على مصر بالذات لما تتمتع به مصر عبر التاريخ بدور حضارى وفعال فى المنطقة العربية وفى الشرق كله ، فمصر هى قلب العروبة وهى عقلها أيضاً ، وإنه ليحضرنى كلمة مشهورة « لمستر كرومر» المعتمد البريطانى السامى فى مصر قالها فى بداية القرن العشرين: سوف نخرج من مصر ، وسوف نُحكم بسواعد مصرية وعقول انجليزية.

فالإنجليز كانوا يعلمون جيداً أنهم حتماً سيخرجون من مصر ، مثلما كان يعلم أى محتل فى التاريخ لأى بلد أنه حتماً خارجاً منها لذلك كان يعمل الإنجليز لما بعد خروجهم من مصر ، إلا أن المندوب السامى البريطانى قد خاب فى كلمته التى قدمنا ، وهاهم الإنجليز قد خرجوا من مصر ، ولم نُحكم بسواعد مصرية وعقول انجليزية ، إنما قد حكمت بسواعد مصرية وعقول ملتاثة أى مصابة بلوثة فكرية ومازالت هذه اللوثة الفكرية تحكم الفكر المصرى برغم مرور حوالى ستين عاماً على جلاء المحتل عن أراضيها وهى أخذة فى التزايد.

وقبل أن نبحث فى تاريخ الغزو الفكرى الذى تعرض له الشرق العربى والمغرب على حد سواء ، نرى أنه من الوجوب تسليط الضوء على بعض الظواهر العامة لهذه اللوثة الفكرية التى أصابت المجتمع برمته ، وما انتهت إليه ، ونستعرض أيضاً بعض مشاهد هذه اللوثة لواقعها الاجتماعى وظواهرها ، ففى خلال رحلتى فى البحث عن الحقيقة ، لم أقتصر على البحث بين طيات الكتب ومتاهاتها وحسب، إنما كان الإهتمام الأكبر هو دراسة الواقع الاجتماعى الذى نعيشه والذى يصرخ باللوثة الفكرية واهتزاز الشخصية ،وإذا كنت أعطى إهتماماً أكبر للوثة الدينية التى نعيشها ، فذلك لسببين : أن الدين فى مجتمعنا هو مصدر الأخلاق والقيم الإنسانية والإجتماعية ،و حينما نذكر كلمة دين فإننا لانعنى الإسلام وحسب إنما نعنى الدين الإبراهيمى أو الملة الإبراهيمية التى انبثقت منها الأديان السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام التى ترجع جميعها إلى أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، كما أن الدين هو عصب الحضارة الإسلامية والعربية .

ولقد ذكرنا من قبل كيف انحدرت أخلاقيات المجتمع إلى درجة أن الذين سرقوا مصر ونهبوها ،وهربوا أموال شعبها إلى خارج البلاد ، ونشروا فيها الفقر والبطالة والجهل والأمراض ، وعاثوا فيها فساداً ،ونشروا الفساد ، كلهم من أهل العلم والكثيرين منهم من حملة الدكتوراة ، وما ذلك إلا شاهداً على مدى اللوثة الفكرية التى أصابت المجتمع بكل فصائله.

ومن الظواهر الإجتماعية التى تقفز إلى الذاكرة ، ويتحرك بها القلم ظاهرة الأفراح الحديثة ، وفى التقاء الناس وتجمعهم ، سواء كان ذلك فى الحفلات أو الأفراح أو المآتم حقل خصب للوقوف على الشخصية الإجتماعية والمستوى الفكرى والحضارى للمجتمع ، فقد انتشرت ظاهرة الأفراح فى النوادى وفى الشوارع أيضاً للذين لايستطيعون حجز قاعة الأفراح فى أحد النوادى لارتفاع

أسعارها ولضيق ذات اليد ، ولكن الكل يجمعهم مظهر واحد وطقوس واحدة تشهد على مستو فكرى واحد ، إذ يبدأ الفرح باسماء الله الحسنى التى تحولت إلى أغنية تذاع فى جهاز الـ (D.J) الذى يكبر الصوت مائة ألف درجة ، حتى يعلن أصحاب الفرح أنهم من أهل التقوى والصلاح ، والقرآن الكريم يقول: واغضض من صوتك . وكأنهم بذلك يسخرون ويستهزءون بكلام الله ، وما أن تنتهى أغنية أسماء الله الحسنى ، حتى تبدأ طقوس الفرح التى تأخذ الشكل الغربى من إذاعة الأغانى والألحان الغربية ، وقد استغنوا عن الراقصة ، وليس لأن الرقص حرام، وإنما لكى يتسنى لكل أن يصعد (البست) ويهز الوسط ،ويشعر أنه خواجة ، ومن طقوس الفرح الحديث ايضاً أن يرقص العريس مع عروسه على إحدى الأغانى الأوروبية سواء كانت أغنية فرنسية أو إيطالية أو غيره ،وفى أخر الليل ينتهى الحفل بأغنية أسماء الله الحسنى كما بدأوا ليعلنوا أن أصحاب الفرح من أهل التقوى والصلاح.

ومما هو جدير بالذكر ، أن بلدان الغرب التى تصنع جهاز الـ (D.J) وتصدره إلينا قد منعوا وجرموا استعماله فى بلدانهم ، فقد صدروا إلينا زبالتهم ، وفرحنا بها، وكل من يستعمل زبالة الغرب يظن أنه قد صار خواجة ، ومازالنا بعد جلاء الإنجليز عن مصر بأكثر من ستين سنة نعيش وبداخلنا عقدة الخواجة ونتحرك بها ، فالذى يشهد مثل هذه الأفراح وتجمع الناس لايمكن له أن يصف الشخصية الاجتماعية لهذا الجمع ،ولايمكن أن يصفهم أنهم مجتمع شرقى أو مجتمع غربى، إنما هم مجتمع فاقد الهوية ، وإنه ليحضرنى بهذه المناسبة قول لأحد النخبة والمفكرين، وهو أحد تلامذة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين رحمه الله ، فقد قال

الدكتور أحمد عبدالرحمن فى ثلاثينيات القرن الماضى [1] : يجب علينا أن نأخذ كل شئ عن أوروبا حتى وإن كان نجاسة أفعالهم أو زبالتهم أو عصارة أمعائهم .

وهكذا قد أخذت النخبة والمفكرون ينشرون الفكر التنويرى والتحديث خلال قرن الظلام ، أى القرن العشرين ، وظللنا نأخذ كل شئ عن أوروبا حتى وإن كان زبالتهم أو نجاسة أفعالهم أو عصارة أمعائهم كما دعا ونشر السادة النخبة والمثقفون والمفكرون حتى تقيأنا عصارة أمعائنا ، وتاهت الشخصية المصرية والعربية والإسلامية ، أو إن شئت فقل قد تحولت إلى شخصية راقصة ومهزوزة، و ليست هزة الشخصية التى نحن عليها اليوم هى وليدة العصر ، إنما هى نتاج تحولات قد تمت عبر مايزيد عن قرن من الزمان ، كانت البلاد خلالها تخضع لاحتلال قد سيطر على كل مناح الحياة فيها ووجه الفكر والثقافة والإعلام والتعليم لاحتلال العقل المصرى ، ولكنه لم يستطع ، إلا أن ذلك قد أصابنا بلوثة فكرية أوبكثير من الخُيال.

ومما هو جدير بالذكر ، قبل أن نغادر هذا الموضع ، أننى حضرت فرحين ، من هذه الأفراح وكان أحدهما لأناس ينتمون لإحدى الجماعات الإسلامية ، بينما الآخر كان رواده من المشجعين للجماعات الإسلامية ، ويحبون أن يظهروا بمظهر المتمسك بدينه ، فقد تحول الدين إلى منافس لكرة القدم ، وتحول إلى أندية لاتختلف كثيراً عن الأندية الكروية وكما أن لكل نادى كروى مشجعين ، فقد صار لكل جماعة إسلامية مشجعين أو «ألتراس» دينى ولامانع من استعانة أحد الـ (ألتراس الدينى بالألترس الكروى) فقد تحول الدين إلى مسرحية كبيرة أسمها مسرحية التقوى والصلاح وما وصلنا إليه اليوم من لوثة فكرية صارخة هو نتاج تعاقب الأجيال التى عاشت فى لوثة فكرية تتوارثها الأجيال ، وتزداد مع كل جيل جديد ، وقد أخذت أثارها تظهر بمظاهر مختلفة على كل فصيل من فصائل

---

(١) انظر كتاب : أركسة العلمانيين للمستشار سالم البهنساوى . الناشر : المكتب المصرى الحديث.

المجتمع ، ولم تقف عند حد اللوثة الفكرية أو الدينية عند الفصائل الدينية ، بل تعدت ذلك، و وصلت إلى لوثة دموية.

والاعتراف بالمرض هو أول طريق العلاج ، ولابدلنا أن نعرض لبعض مظاهر اللوثة الفكرية العامة التى سيطرت على كل أمور حياتنا قبل أن نبحث عن أسباب هذه اللوثة وتاريخ الغزو الفكرى الذى تعرضت له الأمة العربية والشرق كله وطبيعته ، وهذه بعض من مشاهد اللوثة الفكرية فى عموميتها وشموليتها الاجتماعية والتى لم تقف عند مستوى ثقافى أو علمى أو حتى دينى معين ، بل قد ظهر فيها المرض فى حالة وبائية أصابت غالبية العقول على اختلاف مستوياتها الفكرية واتجاهاتها.

❊❊❊

عَلمنةُ الصلاة واللوثُة الفكرية

لفت نظرى منذ أكثر من ربع قرن ، أنه قد ظهرت طريقة جديدة فى الصلاة ، لم يكن لنا بها سابق عهد ، وهى غش القرآن من المصحف اثناء الصلاة سواء كان الذى يصلى بهذه الطريقة يمسك بالمصحف وينظر فيه ، أو يضع المصحف أمامه ، وكانت المرة الأولى التى أشاهد فيها هذه البدعة فى المسجد الحرام فى شهر رمضان فى صلاة التهجد أو القيام ، لا أتذكر بالضبط ، فقد كان الإمام فى المسجد الحرام يضع مصحفاً كبيراً على هيكل أمامه ويقرأ منه أثناء الصلاة ، ولم يدر بخلدى وقتها أنها بدعة ، فكيف يدور فى ذهن أى مؤمن أن البدعة يمكن أن تدخل المسجد الحرام ؟! وقد أفتى العلماء وقتها أنه يجوز قراءة القرآن من المصحف اثناء صلاة التهجد فقط.

ومرت الأيام والسنون ، حتى رأيت من يصل الفريضة وهو ينظر فى المصحف، وعندئذ بدأت انشغل بهذه القضية وابحث فيها وأتجه إلى الله وأسأله أن يهدينى إلى الحق ، وكان قد ظهر وانتشر بين الناس فى المساجد مصحف ضخماً رسم على غلافه ترس بداخله صاروخ وقد كتب عليه مصحف التهجد ، ونظرت فى تذييله أى فى الصفحات الأخيرة لعل أجد الحجة من السنة المطهرة التى استندوا عليها فى صناعة هذا المصحف وجواز قراءة القرآن من المصحف أثناء الصلاة ، ولكنى لم أجد شيئاً من ذلك ،وكل ما جاء فى التذييل أنهم أرادوا أن يدخلوا التكنولوجيا الحديثة على الصلاة ، أى باختصار عَلمنة الصلاة.

وظلت تلك البدعة تسرى بين الناس وفى المساجد دون حجة أو سند من السنة المطهرة حوالى عشرة أعوام حتى تمخض تجار الدين وعلماء السوء وتنطعوا وفصلوا حججاً واهية لتلك البدعة واستمرت هذه الظواهر تشغلنى وظلت

أبحث واتفكر فيها حتى جاءنى اليقين والحمد لله رب العالمين أن هذه البدعة لاعلاقة لها بالسنة المطهرة ،وأنها قضية سياسية لاعلاقة لها بالدين والهدف منها هو القضاء على حفظ كتاب الله فى صدور المسلمين عبر السنين ومع تتابع الأجيال، والتطور التكنولوجى المطرد والمستمر .

وقد جاءنى اليقين بإدراك حقيقة لاجدال فيها ولايختلف عليها إثنان من المسلمين فى العالم : لاصلاة فى الإسلام بدون اتباع رسول الله ﷺ سواء كانت فريضة أو نافلة ، فكلمة صلاة فى الإسلام تعنى الوقوف بين يدى الله ، ولاوقوف بين يدى الله إلا باتباع النبى ﷺ ،وأننا نقف فى النافلة بين يدى الله كما نقف فى الفريضة ولانقف فى النافلة بين يدى الشيطان حتى نخرج عن اتباع السنة المطهرة بحذافيرها ، وقد تبلور هذا اليقين فى سورة سؤال أرسلت به إلى فضيلة الإمام الأكبر الراحل الشيخ محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر رحمه الله وكذلك أرسلت بذات السؤال إلى فضلية مفتى الجمهورية فى ذلك الوقت الشيخ نصر فريد واصل وهو : هل سنة رسول الله ﷺ فى النوافل أن يمسك المصلى بالمصحف وينظر إليه أو يضع المصحف أمامه وينظر فيه وهو يصلى أوبضع سماعات على أذنيه ويردد القرآن وراء المسجل أو أن سنة رسول الله ﷺ فى النوافل يفعلها كل على هواه وكما يتراءى له ؟! واعتبرت أن الأمر قد انتهى ، فهو أمر لايحتاج إلى فتاوى وأراء إنما هو تقرير لحقيقة لاجدال فيها، وكان ذلك فى عام ٢٠٠١ م ، وكانت تلك البدع أو الموضات الصلاتية قد أخذت تنتشر فى صلاة القيام (التراويح) وقد ذكرت فى رسائلى إليهما أن الأمر لن يقف عند صلاة التهجد والقيام وحسب ، وإنما سوف تسرى تلك البدعة وتنتشر حتى تعم كل الصلاة بما فيها الفريضة ، وهو استقراء مستقبلى من واقع قائم ، ولكن أحداً لم يرد ولم يبال ، وكأن أمر الصلاة لاقيمة له فى الإسلام ، أو كأن ذلك ليس بقضية حتى يُلتفت إليها .

وأخذت البدعة والموضات الصلاتية تنتشر بين الناس وفى المساجد وكأن الأزهر الشريف لايسمع ، ولايرى ، ولايتكلم ، وكنت قد طرحت هذه القضية من فوق أحد المنابر فى خطبة الجمعة بحى حلوان قبل ذلك بحوالى عامين، وطلب منى بعض الناس من كبار السن والذين رفضت قلوبهم تلك البدعة وأدركوا خطورتها ، فطلبوا منى أن أكتب عدة مقالات فى هذه القضية لنشرها بإحدى الصحف المستقلة ،ولكنى بعد أن انتهيت من كتابتها ، خشيت أن يحدث نشرها فتنة بين الناس ،ولا أخفى أيضاً أن هذه الصحيفة كان بينها وبين أحد أقطاب الدين السياسى فى مصر أو المسؤولين السياسيين الدينيين ضغائن وصراعات فخشيت أن تتخذ القضية لعبة سياسية أو أن أتخذ لعبة دينية، فأقلعت عن هذا بعد أن انتهيت من كتابه ثلاثة مقالات جعلت منهم نسختين قدمت إحداهما لمكتب فضيلة الإمام الأكبر الشيخ طنطاوى رحمه الله ونسخة لفضيلة مفتى الجمهورية الشيخ أحمد الطيب وقتها ، واكتفيت بذلك فهى مسئوليتهم أمام الله.

ولم تقف صلاة التكنولوجيا الحديثة عند مصحف التهجد وحسب ، بل أخذ الأمر يتطور بسرعة هائلة كسرعة التطور التكنولوجى ، فقد تم اختراع جهاز للصلاة أطلقوا عليه الإمام الإلكترنى ، وهو عبارة عن سماعتين يضعها المصلى على أذنيه ويردد القرآن وراء المسجل الإلكترونى وقد أعلنوا عنه فى الصحف، وأجازته دار الأفتاء كما أعلن عن ذلك أيضاً فى الصحف الحكومية ،ولم يقف الأمر عند مصحف التهجد وحسب ، بل جعلوا مصحفاً للتهجد والقيام معاً ، كما توالت الفتاوى بجواز قراءة القرآن من المصحف فى الفريضة أيضاً ، وأخذ تجار الدين وعلماء السوء يتبارون فى فضيلة تلك البدع والموضات الصلاتية، وقد تم التعتيم على هذه القضية وإظهار فتاو علماء السوء وتجار الدين الذين أجازوا تلك البدع ، ولم تلتفت الصحف إلى قول العلماء الذين رفضوها ،ولم تنشر الصحافة قولاً لرافضى هذه البدعة من العلماء ، فالصحافة ملتزمة فقط

بنشر كل فتوى أو كلمة بإجازة تلك الموضات الصلاتية التى لاعلاقة لها بالسنة المطهرة .

فوضعت كتابا (*) فى هذه القضية جمعت فيه كل ما يقال من فتاو وآراء ورددت عليه من الكتاب والسنة المطهرة والمنطق الإيمانى ، كما بينت بالحجة والأسانيد أين وُلدت هذه البدع والموضات الصلاتية ومن وراءها وما هو الهدف من ادخالها على الصلاة ، وكان لابد من الحصول على موافقة مجمع البحوث الإسلامية وبالفعل حصل الكتاب على موافقة مجمع العلماء الموقر ، وقد تم نشر الطبعة الأولى فى عام ٢٠٠٧ ، وتم نشر الطبعة الثانية عام ٢٠٠٩م ، التى أضفت إليها ماجد فى هذه القضية.

والحقيقة أننى منذ أن طرحت هذه القضية ، وقد تجاوز هذا الآن الخمسة عشر عاماً وأنا أدرك أنها قضية سياسية عالمية ، وليست محلية ، فلم يكن لنا فى هذا الوقت سياسة محلية ، ولم يكن لدينا ساسة يلعبون سياسة من أجل وطنهم ودينهم والعروبة إنما كانوا مجرد أراجوزات تحركهم السياسة العالمية التى وضعها أعداء الإسلام والعروبة ، وما زادتنى الأيام والسنون والأحداث إلا يقيناً وثباتاً ، وحينما ذهبت إلى مجمع البحوث الإسلامية للحصول على موافقة لنشر الكتاب أحسست أن مجمع العلماء الموقر مكبلاً بالقيود ولايستطيع أن يعلن كلمته فى هذه القضية ، وحتى الآن لم تصدر من الأزهر الشريف فتوى رسمية فى هذه القضية، وكل ما صدر هى فتاوى من تحت الترابيزة.

أعجب الفتـــاوى :

لم يتوقف تخريب صلاة رسول الله ﷺ والقضاء عليها عند حد ، ولم تقف الفتاوى بجواز قراءة القرآن من المصحف عند التهجد والقيام أو النافلة بصفة عامة ، وكذلك الصلاة خلف الإمام الإلكترونى ، فقد صدرت الفتاوى هذا

(*) انظر كتابنا : الصلاة بين السنة والتبديل ـ الناشر / المكتب المصرى الحديث .

العام ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٢ م بجواز قراءة القرآن من المصحف فى كل الصلوات سواء كانت فريضة أو نافلة ، فهكذا قد جاءت فتوى مفتى الديار المصرية السابق الدكتور على جمعة فى مجلة الأزهرر عدد شهر رمضان ، كما صدرت فتوى له أيضاً بجريدة الأهرام فى شهر رمضان بنفس المعنى ، وكذلك قد صدرت فتوى لفضيلة المفتى الحالى الدكتور شوقى علام يجيز الغش فى الصلاة سواء كان غشاً بصرياً أو سمعياً فى الفريضة أو النافلة والغش واحد وإن تعددت صوره ، كما جاء ذلك فى جريدة المصرى اليوم فى شهر رمضان ، وقد قرأت له فتوى أيضاً فى مجلة الأزهر ،ولكنى لم أهتم بهذه الفتاو والرد عليها ، فلم أجد فيها ما يستحق الرد أوالوقوف عنده أو الإلتفات إليه ، فكله كلام مكرر وهزيل من الكلام الذى حصرناه ورددنا عليه فى كتابنا حول هذه القضية ، وإنا صراحة لنعجب لهذه الحالة التى وصل إليها مفتيو الديار المصرية التى أسسها فضيلة الإمام المجدد الشيخ محمد عبده رحمه الله والذى كان أول مفتياً للديار المصرية ،ونرثى لحالها وحال المسلمين .

ومعذرة ، فلاكهانة فى الإسلام . كما قال المعصوم المتبوع الأوحد ﷺ . وقد عاشت الصلاة والعبادات مغلقة على رسول الله ﷺ تقام كما كان يقيمها النبى ولايحق لأحد أن يحدث فيها أمراً ويستحب أو يستحسن مهماكان طوال أربعة عشر قرناً ،وقد صارت فى عصرنا نهباً للأراء والأهواء والفتاوى العرجاء.

وأعجب فتوى قد صدرت فى هذه القضية ولم نرد عليها فى كتابنا نظراً لأننى لم أكن قد اطلعت عليها بعد هى فتوى فى كتاب (*) لفضيلة مفتى الديار المصرية الأستاذ الدكتور على جمعه ،وسوف نعرض فقط لأعجب ما ورد فيها ، وأما

(*) انظر كتاب البيان القويم لتصحيح بعض المفاهيم ـ مجموعة فتاوى لدحض الشبهات وجمع الشتات ـ فضيلة الستاذ الدكتور على جمعة مفتى الديار المصرية ـ دار السندس للتراث الإسلامى : ٤٣ شارع الدواخلى أمام جامعة الأزهر بالحسين . ص ١٠٧.

باقى ما ورد فيها فلايستحق الرد ، فهى مجرد أراء مكررة فى كل الفتاوى التى قد صدرت فى هذه القضية والتى رددنا عليها فى كتابنا ، إذ يقول مفتى الديار المصرية فى فتواه العجيبة : « بل إن الشافعية قد زادوا بأن الصلاة لاتبطل حتى وإن قرأ مكتوباً غير القرآن ، وبعد عدة سطور تمويهية يستطرد فضيلته فينقل عن الإمام النووى ! ولو نظر فى مكتوب غير القرآن وردد ما فيه فى نفسه لم تبطل صلاته وإن طال ، لكن يكره ، نص عليه الشافعى فى الإملاء وأطبق عليه فى الإملاء وأطبق عليه الأصحاب».

ومعنى ما جاء فى فتوى مفتى الديار المصرية العجيبة أنه يجوز للمصل أن يضع كتاباً أمامه غير القرآن أوصحيفة أو مجلة أو أى مكتوب ويقرأ منه أثناء الصلاة ، ومن حقنا أن نتساءل : هل الشافعية الذين نقل عنهم هذا الهراء هم قوم معصومون من الخطأ مع الفرض أن ما نقل عنهم هو صحيح ولم تعبث به أيدى التزوير والدس عبر العصور ، ثم ألم يضل قوم فى عصرنا من الشافعية والحنابلة، ومن شتى المذاهب الإسلامية ، والذين نصبوا من أنفسهم كهاناً فى دين الله وأوصياء على المسلمين ، فليس كل ماورد عن السلف هو صحيحاً وواجب الاتباع ، ولقد ضربنا المثل على ذلك فى كتابنا المذكور عن الصلاة بأن الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ قد ارتدوا عن الإسلام وقد حاربهم الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله ﷺ بمجرد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فالمعصوم واحد وهو المتبوع وحده ، وكل كلام يرد عليه إلا كلام حضرته ﷺ، فلا نلغى عقولنا الموحدة ونتبع كل منقول ، فليس الإسلام دين عقل ونقل كما يقولون ، فالعقل لدى الكافر والملحد والمؤمن على حد سواء ، والنقل ميسر للكل ، إنما الإسلام دين بصيرة ونقل ، والبصيرة خاصية لمن أخلص دينه لله وهو مؤمن .

ويبدو أن فضيلة مفتى الديار المصرية متأثراً بدراسته فى جامعة السوربون القائمة على أن القرآن هو نتاج الحضارة العربية ، أى من صنع بشر ، وبما أنه قد

ثبت جواز القراءة منه أثناء الصلاة ، إذن فإنه يجوز قراءة أى مكتوب فى الصلاة من صنع بشر سواء كان صحيفة أو مجلة أو كتاباً كما يقول الاستنتاج العقلانى التنويرى العلمانى .

ومما هو جدير بالذكر أن الفتوى التى قد صدرت عن فضيلته فى مجلة الأزهر فى شهر رمضان حول أخطر قضية فى تاريخ الإسلام وهى قضية غش القرآن أثناء الصلاة ، وقد شملت هذه الفتوى حوالى صفحتين ونصف من المجلة مع كبر حجمها ، والتى شملت الأراء الساذجة والجاهلة عبر العصور ، لم يذكر فيها فتواه العقلانية التنويرية العلمانية ، والتى ذكرنا .

صلاة التهنيج :

ومما يدعو للدهشة والعجب أن الذين نشروا تلك البدع والموضات الصلاتية فى المساجد وبين الناس هم الذين يدَّعون تمسكهم الشديد بالسنة ويدعون للتمسك بها ، وإذا سألت أحدهم سؤالنا ذلك الذى كررنا كيثراً والذى أقامنا عليه كتابنا حول هذه القضية : هل سنة الرسول فى النوافل أن يمسك المصلى بالمصحف وهو يصل وينظر فيه أو يضع المصحف على هيكل أمامه وينظر فيه أو يضع سماعات على أذنيه ويردد القرآن وراء المسجل ؟! فلن تجد من أى من أولئك الذين يدَّعون تمسكهم بالسنة إلا كما وجدنا ، فترى الشيخ المتمسك بالسنة يرغى ويزبد ويهيص ويظيط ويزوغ ويلف ويدور حتى تمل ويظن أنه بذلك قد أفحمك أو أقنعك ، ثم تسأل نفسك ماذا قال آنفاً ؟! فلن تجد أنه قد قال شيئاً سوى أنه قد عمل ظيطه ، فهذا السؤال الذى طرحناه كثيراً، ليس له سوى إجابة واحدة وهى السنة أن تفعل كذا ، وماعدا ذلك فهو تزويغ ولف ودوران ، فانظر إلى أى مدى قد أصبح الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره منهاج حياة ، حتى شمل هذا الصلاة أيضاً .

ومما يدعو للعجب والدهشة أيضاً أن مسجد النور بالعباسية وهو مشهور بأنه مسجد السلفية المتمسكين بالسنة ، قد ابتكروا بدعة جديدة فى الصلاة ، ولانعتقد أنها فى مسجد آخر غير مسجد النور ، إذ يقف الإمام فى صلاة القيام (التراويح) والتهجد فى شهر رمضان ويقرأ من شاشة (مونوتور) موضوعة أمامه يظهر عليها القرآن الذى يقرأه فى كل ركعة ، وهذه الشاشة تعمل بجهاز (كومبيوتر) ، وهو مثله مثل أى جهاز (كومبيوتر) عرضة لأن (يهنج) فى أى لحظة، فهل وجدوا فى السنة صلاة للتهنيج حتى يواجهوا تلك المشكلة ، وخلاصة القول أن لا صلاة إلا باتباع رسول الله ﷺ ، والله سبحانه لايدخل عليه اللف والدوران.

وما هى إلا مشاهد للوثة الفكرية التى أصابت الفكر العربى وشملت كل فصائل المجتمع ، ولم تقف عند مناحى الحياة وحسب ، بل وصلت إلى العبادات ، ولم تقف اللوثة الفكرية لدى أدعياء الدين والذين نصبوا من أنفسهم أوصياء على دين الله ودعاة وهداة عند حد ، بل تعدت الفكر وتحولت إلى لوثة دموية ، وإلى مشاهد أخرى من اللوثة الفكرية التى شملت الفكر العربى بشموليته وبكل فصائله.

***

اللوثُة والنخبةُ والمثقفون

بعد ما حدث فى ٢٥ يناير ٢٠١١ ، امتلأت الفضائيات بالبرامج التليفزيونية التى يظهر فيها أحد المفكرين أو الصحفيين أو ما يسمى بالنخبة ، وكل يتحدث عن نفسه ويحكى ويقول ويستعرض دوره فى الأحداث وكأنه مفجر ثورة ٢٥ يناير أو صاحب الفكر الثورى وراءها أو أحد الأعضاء البارزين فى مجلس قيادة ثورة ٢٥ يناير ، وبينما كنت أشاهد أحد البرامج كان المحاور وبطل الحلقة أحد الروائيين الكبار أو أحد النخبة والسياسيين البارزين الذين يشار إليهم بالبنان وقد أخذ يحكى عن نفسه ودوره البارز فى أحداث الثورة وفكره الثورى ، ولما سألته مقدمة البرنامج عن هُويته أو ميوله السياسية أجاب بكل فخر وثقة بالنفس قائلاً : أنا يسارى مسلم.

واندهشت لهذه العبارة ،وإن كنت قد سمعتها عبر السنين كثيراً من قبل ، ولكنى صراحة لم أسمعها من أحد النخبة فى أحد أجهزة الإعلام ، فاليسار أو الشيوعية لاتؤمن بالأديان ولاتؤمن بالغيب وترفض كل ما هو وراء العقل ، وتعتبر الدين أفيون الشعوب وتحاربه بلا هواده ، وتعتبر أن طريق التقدم الوحيد هو القضاء على الدين ، والإسلام كله قائم على الإيمان بالغيب ، فهل هذا المفكر الثائر وأحد النخبة المرموقين هومسلم أى أنه مؤمن بالغيب ولايؤمن بالغيب ؟!!

والحقيقة أننى لم أجد لذلك معنى سوى أنه علامة أو دلالة من دلالات اللوثة الفكرية التى اصابت الفكر العربى ، فقد أصبح ما يسمى بالمثقف لايجوز أن يقال عنه أنه مثقف ولايتصف بذلك إلا إذا كان ينتمى لأحد مدارس الفكر أو السياسة الغربية ، وفى نفس الوقت فهو يريد أن يظهر أنه مازال متمسكاً بدينه ،

فيبدو كالذى يمسك العصا من المنتصف ويرقص ، ويحق لنا أن نستعمل كلمة الراقصين بدلاً من كلمة النخبة.

وما أن سمعت هذه العبارة ، أى يسارى مسلم حتى عبرت ذاكرتى ما سمعته من المثقفين عبر السنين وخلال الندوات واللقاءات التى حضرتها خلال مرحلة البحث عن الحقيقة ومابعدها أيضاً من كل فئات المثقفين بكل توجهاتهم ، سواء كانوا علمانيين على اختلاف ميولهم الفكرية أو مستقلين حتى وإن كانوا دينيين وهو مايسمى بالمصطلح الغربى « راديكاليين» ، وإنه ليعبر ذاكرتى موقف وكلمة عاشت فى الذاكرة أيضاً لأحد الإخوة الشيوعيين الذى التقيت به فى منتصف الثمانينيات من القرن الماضى ، وبينما كنت أتحدث إليه قال بفخر ليعبر عن قربه من الله بنص العبارة : أنا أى حاجة باطلبها من ربنا بيحققها لى ، أهو النهارده كنت ماشى نفسى فى زجاجة خمر فقابلنى (فلان) صاحبى ، وقبل أن يسلم على نظر إلى وقال : إنت نفسك فى زجاجة خمر ، خليك هنا أوعى تتحرك ، ثم عاد إلى شايل زجاجتين خمر أعطانى واحدة منهم .. ثم فتح حقيبته وأخرج منها زجاجة الخمر ، وعاد يؤكد عبارته التى قالها ومدى قربه من الله.

ومثل هذا الرجل لايحق لأحد أن يقذفه بالكفر أو الإلحاد ، فهو مؤمن بالله ويؤمن بأن أى فعل أو كينونة فى هذه الحياة هو من فعل الله ، ولكنه جاهل بدينه الذى يدعى ، كما أنه جاهل باليسار أو الشيوعية التى يفتخر بالإنتماء إليها وأنَّى له أن يتعلم صحيح الإسلام ، ويعلم أن الله لايأمر بالفحشاء والمنكر وأن الشيطان الذى يسير فى طريقه هو الذى ساق إليه زجاجة الخمر وهذا الموقف أيضاً يذكرنى بقول أحد الأخوة منهم ايضاً بينما كنت أجلس بجواره فى سيارته التى كان يقودها ، وقد أخذ يدردش عبر الطريق ويستعرض ثقافته الغربية الرفيعة، فأخبرنى أن علماء النفس قد توصلوا إلى أن الصلاة فى الإسلام بالممارسة وعبر السنين تصبح إدماناً كالخمر ، ومرت السنون وعلمت أنه قد

مات بتأثير الخمر على كبده ، ولم نسمع أن أى مسلم كان لإدمان الصلاة أثر سيء على صحته ولم يكن ذلك فكر فردى ، إنما هو فكر النخبة المثقفة التى رأت فى الشيوعية وفكرها التقدمى هو السبيل الوحيد للرقى والتقدم.

والحقيقة أننى كنت دائماً أحب أن أستمع إليهم وأتعرف على فكرهم الناضج وثقافتهم الرفيعة ،ولا أحب أن أدخل معهم فى حوار لما لمسته منهم أنهم لايجيدون الحوار ، ولايقبلون أن يستمعوا للرأى الآخر ، إلا أننى أضطررت ذات ليلة للمواجهة وتسفيه أحلامهم على الملأ ، ولم أجد أمامى من حل سوى ما أقدمت عليه.

فقد دُعيت ذات ليلة فى عام ١٩٩١ م إلى ندوة ثقافية ، وقد حضرها أناس من مختلف التيارات الفكرية والثقافية ، وكان قطب الندوة أحد اقطاب اليسار ، وكانت هذه الندوة فى أحد الشقق بالبيوت القديمة التى تشتهر باتساع حجراتها وارتفاع سقفها ، فقد اتسعت إحدى حجراتها وهى التى اقيمت بها الندوة إلى ثمانية عشر شخصاً ، وكان بها ثلاث كنبات بلدى قد خصصت إحداهن لقطب الندوة وعدة كراسى ، ومن لم يجد مكاناً يجلس عليه قد افترش الأرض، وحينما بدأت الندوة وقف قطب اليسار فوق كنبته وأخذ يتحدث عن ماركس ولينين وغيرهم من أقطاب الاشتراكية العلمية ثم عرج على ماوسى تونج والحركة الاشتراكية فى الصين ، وكان الجو صيفاً شديد الحرارة ، وكان الرجل من صعيد مصر ، فأخذ يتصبب عرقاً ، فما كان منه إلا أن أخذ يتجرد من ملابسه قطعة تلو الأخرى ، حتى لم تبق إلا قطعة واحدة ، وكلما ازداد انتصات الناس إليه ، كلما علا بصوته وظن أنه يخطب فى الجماهير فى ميدان عام ، وبعد أن تحدث عن الماركسية والثورة البلشفية ، عرج على الإسلام ، وكان مدخله إلى ذلك أن قال: أبو ذر الغفارى أول اشتراكى فى الإسلام ، وكنت قد سمعت هذا الجهل كثيراً فانتظرت مابعده ، فعرج على الثقافة وأخذ يدعو الناس للقراءة

وأهميتها كعادة المثقفين ،وهذا أمر لاغبار عليه ، ولكنه أخذ يزيد فى حديثه عن الإسلام ، فقال: أن كلمة اقرأ هى أول كلمة نزلت فى القرآن وهى دعوة للقراءة على إطلاقها ، ثم زاد الطين بلة حينما وصل الجهل إلى المنتهى عندما قال : كل ما يقرأ فهو قرآن ، وعندئذ لم استطع الصمت ، فقاطعته وسط احتجاجات هائلة من أعضاء اليسار ، ولكنى أصررت على أن لايتحدث عن الإسلام وأن يتحدث فقط فيما يجيد الحديث عنه حتى انتهى عن الحديث تماماً وقد ظل فى حالة (بورليتاريا) متجرداً من ثيابه إلى أن انتهى عن الكلام وجلس ، وانتهت الندوة.

ومع ذلك فقد أحسست بشئ ما يجمعنى بالرجل ، فقد كان شديد الحب لمصر وكتب فيها أشعاراً وقصائداً ، وألف مسرحيات شعرية حول واقعها المرير وماضيها العريق ، وكان يكتب فى أحد المجلات وهو لايختلف فى فكره عن فكر النخبة ، وإن كان يحب مصر كحب الدب لصاحبه فبرغم أن الدُب قد قتل صاحبه ، إلا أنه لايستطيع أحد أن ينكر أنه كان يحبه ، والحقيقة أنه لم يطرق سمعى بكلمة جديدة، فكل ما قاله كان كلاماً متداولاً على ألسنة النخبة والمثقفين وأهل السياسة ، وكنت قد سمعت ماقاله من هراء حول الإسلام أول مرة فى عام ١٩٦٥ فى عصر الرقصة الاشتراكية ولم يكن لدى علم وقتها للرد وتصحيح المفاهيم ، والخلاصة أنى أحسست أن الرجل ملتاث أى مصاب بلوثة فكرية ، ولم أرض أن أمشى وأتركه وفى نفسه أثراً مما حدث فانتظرت حتى انفض الجمع ، وكان يبيت فى مكان الندوة نظراً لأنه يأتى من سفر ، فاستأذنت أن أجلس بجواره فأذن لى ، فهمست له أن يكون الحوار بيننا مكتوباً نتناوبه فى كل ندوة فوافق ، وكان قد بقى إثنان من أصدقائه بينهما صاحب المكان ، أو الشقة فأخبرهم فرحبوا بما أتفقنا عليه ،واستمرت على علاقة طيبة به يربطنا حب مصر.

وفى الموعد المحدد للندوة التالية كنت قد أعددت مكتوباً تناولت فيه الرد على كل ما دار فى تلك الندوة مثل القول المنتشر بين الناس أن أباذر الغفارى هو أول إشتراكى فى الإسلام ، وكلمة أقرأ والقرآن وهذا ما سوف نتناوله فى موضع آخر ، فلا أحب أن أذكر أو استشهد فى ليل القاهرة بآيات الكتاب أو أحاديث شريفة غير قول الله عز وجل : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾(*).

***

(*) سورة البقرة : ٢٥٧

نظرة فى تاريخ اللوثة الفكرية

وإذا كنا قد تحدثنا فيما سبق عن اللوثة الدينية والتى لم تقف عند حدود الفكر وحسب ، بل تعدته وتعدت كل المعايير والموازين وتحولت إلى لوثة دموية، وقد تحدثنا أيضاً عن اللوثة الإجتماعية ، وقد اشرنا كذلك إلى لوثة اليسار المصرى و الاشتراكيين فليس معنى ذلك أننا من أنصار الليبرالية والديمقراطيين أو الذين يدَّعون ذلك والذين سرقوا مصر ونهبوها وهربوا أموال شعبها للخارج وعاثوا فيها فساداً ونشروا فيها الفساد والجهل والمرض والفقر والتخلف بكل معانيه طوال ثلاثة عقود فى ظل حكم الحزب الرأسمالى الديمقراطى ، وسوف يأتى الحديث عن اللوثة الديمقراطية المصرية فى موضع آخر.

وعلى كل فاليسار والاشتراكية بصفة عامة والليبرالية أو التعددية الحزبية وما يسمى بالديمقراطية ليسوابنتاج الفكر المصرى أو العربى ،وليس لهم مرجعية تاريخية أو حضارية فى تاريخ العروبة والإسلام ، إنما هما جناحا العلمانية التى تمخض عنه الفكر الأوروبى فى حركة التنوير ، وكلاهما لايؤمن إلابما يدركه العقل والذى اتخذوا منه إلهاً ، ولاسلطان فوق العقل إلا العقل ، ولكى نقف على أسباب اللوثة الفكرية التى يعانى منها الفكر العربى فى عصرنا بكل فصائله وتوجهاته ونخبته وساسته ومفكريه ومثقفية ، فلنرجع إلى قرنين من الزمان أو يزيد قليلاً وننظر فى طبيعة وملامح الغزو الفكرى التى تعرضت له منطقتنا العربية بأشكاله المختلفة ، ولننظر بإيجاز فى حركة التنوير التى قامت فى أوروبا وما تمخضت عنها من العلمانية التى أخذت شكلها الحديث فى العولمة أو الفكر العالمى الجديد ، وكذلك أيضاً حركة الاستشراق التى تعرض لها الإسلام ، وكذلك أيضاً حركة المقاومة الفكرية الإسلامية الأصيلة الواعية بذاتها والتى

عرفت بحركة لإحياء والتجديد التى بدأها الشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده رحمهما الله ، والتى أجهضتها وقضت عليها حركة خدام الفكر الغربى والذين أطلقوا على أنفسهم التنويريين ،وعملوا على تخريب الشخصية العربية وإذابتها فى الشخصية الغربية بمعاونة وتوجيه ورعايه المحتل والقصر، ونجحوا فى تحويل الشخصية العربية إلى شخصية راقصة ومهزوزة ، رقصت على الحدود بين الشرق والغرب ، فلا طالت شرقاً ولاغرباً ، وقبل أن نبحث فى أثر الفكر الغربى على الشخصية العربية وما نتج عنه ، علينا أولاً أن نعرض لشئ عن أسباب حركة التنوير التى حدثت فى أوروبا وطبيعتها وأهم ملامحها وتطورها .

***

أولاً : حركة التنوير فى أوروبا (*)

لم يكن التحول للعصر الحديث ـ فى أوروبا ـ من جاهلية العصور الوسطى سهلاً ، بل كان صراعاً ومعارك وانقسمات ، واتهامات بالكفر والزندقة وأحكاماً بالقتل والتعذيب والحرمان ، وتعددت الفرق والمذاهب تبحث عن الخلاص إذ لم تعد قضايا عصرهم الحديث تفى بحلها موروثات فكرية ورثها الأوروبى عن السلف وكانت مواجهة التقليد حتماً مقضياً ولزم التخلى عن التقديس الأعمى والإجلال الخانع لكتب وأسفار مأثورة عن قديسين عاشوا فى الماضى، ولماضيهم وعصرهم ربما أفادت ولكنها باتت عقيماً ، ولقد مر هذا التحول بعدة مراحل.

١ـ حركة النهضة والتنوير:

لقد بدأ العصر الحديث أو الحقبة الحضارية الجديدة بحركة الإصلاح والنهضة والتنوير وذلك مع مطلع القرن السادس عشر ، وبدت بشائرهم فى تحطيم سطوة وسلطان الكنيسة . وحينما نقول الكنيسة لانعنى الدين فى ذاته بل القائمين عليه وكما نعنى بالفصل محاولات الفصل بين الكنيسة والدولة ليكون مال قيصر لقيصر وما لله لله . وعانت حركة التحول من القديم للحديث انهيار قيم بالية وغرس قيم جديدة . وتغيرت صورة العالم فى عقل الإنسان كما تغير منهجه فى التعامل مع الطبيعة وتفسيرها . وقد عاش الإنسان الأوروبى فى حيرة استمرت معه عبر القرون ، ومازال فى معاناة أمام تلك المفارقة الخطيرة أن كيف يوفق بين العلم الواقعى وعلوم الطبيعة وما تقدمه من معطيات وبين الحاجة إلى السلوى التى تدفع بمن يعانى فى شدة إلى التطلع إلى السماء واسترجاع مابشرت به الأديان.

(*) عن كتاب : تشكيل العقل الحديث، للكاتب الأمريكى كرين برينتون . ترجمة شوقى جلال والمقصود بالعقل الحديث : الغربى أى الأوروبى والأمريكى. مكتبة الأسرة ٢٠٠٤ . الأعمال العلمية .

وقد أطلق على الحركة التى بدأ بها العصر الحديث بالحركة الإنسانية ، والتى بدأت بحركة الإصلاح البروتستانتى والنهضة والتى استهدفت إحداها الحرية الدينية ، بينما استهدفت الأخرى الحرية الفنية ، وعملتا معاً من أجل الحرية الأخلاقية التى استهدفت تحرير العامة رجالاً ونساءً من القيود التى تكاتفت التقاليد والخرافة على فرضها عليهم خلال العصور الوسطى ، وهذا ما استقر على تسميته ، أى الحرية الدينية والحرية السياسية ،وصارت الحرية الأخلاقية أو الديمقراطية.

وقد اتسم عصر النهضة والذى هو بداية الحركة الإنسانية أو حركة التنوير بمحاولة العودة إلى ما هو وثنى أولا دينى ، إن لم يكن زندقة وإلحاداً ففنون عصر النهضة تربط الفنون بالحرية البوهيمية التى لاتقيم وزناً للأعراف والتقاليد فإذا كانت العصور الوسطى بين الدين والتحريم فعصر النهضة يساوى بين الوثنية وحرية الاستعراض.

طبيعة الحركة الإنسانية:

لم تكن الحركة الإنسانية فى طبيعتها إلا حركة تمرد واعية بذاتها تماماً ضد اسلوب للحياة ألفته فاسداً ، شديد التعقيد ، بالياً ، كريهاً زائغاً ، وقد بدأت كما بينا من قبل بعصر النهضة ، والذى لم يكن فوضوياً أصيلاً شأنه فى ذلك شأن عصر الإصلاح البروتستاننى الذى تلاه .

فقد اتسم كلاهما بالتمرد ضد سلطة واحدة ومجموعة واحدة من المثل العليا والعادات والمؤسسات ابتغاء مجموعة أخرى . فقد ظهرت الحركة الإنسانية للتحرر من قواعد النزعة المدرسية وتحرير الفرد ليشق طريقه على هواه، فلا يكون مجرد ببغاء يردد أرسطو ورجال اللاهوت وأباء الكنيسة وفلاسفة

الإغريق . فقد أزاح الإنسانيون جانباً أباء الكنيسة وأرسطو ورجال اللاهوت. وقد كان بينهم ذات الإذعان للسلطة ونفى عادة التجريد ، بل والتفكير المبنى على الاستنتاج العزوف عن إجراء التجارب ، ومن ثم فإنهم ليسوا الحقيقيين للبحث الحديث الحر ، وإنما هم مدرسيون تجاوزوا أسلافهم غروراً ودنيوية.

وقد سُميت تلك المدرسة بالمدرسة الإنسانية ذات النزعة الطلقة التى تحولت إلى النزعة العقلانية العلمية التى عرفت بحركة التنوير ، كما سوف نرى ، وإن كان فى المقابل قد ظهر أمامها مدرسة الإنسانيين الكلاسكيين اصحاب النزعة المقيدة الذين التفوا حول الكنيسة فى دعواهم التطور والتجديد والذى لم يخرج عن معتقدات العصور الوسطى ، ولم تحظ بالتأييد مثلما كان لأصحاب المدرسة الإنسانية ذات النزعة الطلقة والتى تحولت إلى العقلانية العلمية والتى عرفت بحركة التنوير مع القرن السابع عشر ، وقد استمرت فى تطروها حتى يومنا هذا. وقد اتسمت منذ بدايتها أن اصحابها كانوا فى تجريب دائم، لايفتئون يحاولون شيئاً جديداً ، وقد أمتلأت نفوسهم ازداراء لأبائهم فى العصور الوسطى ، ولم يكن ذلك بسبب ماظنوه خوف العصور الوسطى من الحياة ـ حياة الشهوات . فقد كانت النهضة هى أساس الحركة الإنسانية التى سادت وتحولت إلى حركة علمية .

وقد كانت النهضة هى الطراز الجديد للحياة بين مايستهولهم الجديد، وقد شحذت الفكر لكى يكون المرء عابداً صريحاً لمتع الحياة.

إذن فينقسم العصر الحديث إلى حقبتين ، الحقبة الإنسانية فى خلال القرن السادس عشر والسابع عشر ، وحقبة التنوير أومرحلة ما بعد ذلك . والكلمة الرئيسية الجامعة التى كانت موضوع نقد واسع ودراسات هى كلمة الفضيلة ومعناها إنسان أو رجل غير أن الإنسانيين على نحو ماتؤكده كلمة الفضيلة ومعناها إنسان أو رجل ، غير أنهم يضيفون إليها دلالات كثيرة جداً . فالفضيلة شأنها شأن

الفروسية العليا والتى تنحدر منها ، فهى تعبر عن مثل أعلى للطبقة الأرستقراطية التى يمكن أن يرتقى إليها شخص موهوب أدنى منبتاً . وغالباً ماتعنى الفضيلة فى الممارسة العملية فعل شئ ما أفضل من الآخرين. والمهارات التى تجلها هى مهارات البطل الذى يحطم الرقم القياسى. فقد كان الإنسانيون اصحاب النزعة الطلقة المفعمة بالحياة يمثلون الطراز الجديد فى القرن السادس عشر ـ فقد شحذوا الفكر لكى يكون عابداً صريحاً لمتع الحياة. وباختصار شديد فقد كان عصر النهضة هو عصر البطل ، فالبطل فناناً، وراقصاً،والبطل مكافحاً من أجل الثروة ، وليس بذى شأن طريق جمعها ـ والبطل متشككاً ،والبطل عالماً، والبطل مفسداً أيضاً . وإذا كنت دون البطل مرتبة فهذا عين الفشل . وعلى سبيل المثال فإن دون جوان ومغامراته النسائية التى تجاوزت ١٠٠٣ فى أسبانيا وحدها يعتبر حسب التقاليد الرومانسية أحد محطمى الأرقام القياسية،و على كل فإن الحركة الإنسانية فى القرون الأولى من العصر الحديث ليست من النوع الذى يمكن إيجازه وإجماله فى عدة صفحات. ولكن هكذا قد حاولنا ،ولعلنا بذلك نكون قد أبرزنا أهم ملامحها.

الاتجاهات السياسية للحركة الإنسانية:

هذان القرنان أى السادس عشر والسابع عشر يوصفان عادة فى التاريخ السياسى بـ (حقبة النظرة الطلقة أوالاستبدادية) وقد نشأت الدولة الحديثة تاريخياً وجزئياً على الأقل وفاء إلى التوحيد القياسى وضمان الفعالية ،وابتغاء كبح الميل البشرى إلى الشرور والكسل والانحراف . ولم تتغير نظرية الحكم فى هذه الحقبة عن نظرية العصور الوسطى التى تقضى بأن للحاكم أن يحكم تاسيساً على الحق طالما التزم فى حكمه بحدود الله ومشيئته . وقد كان التساؤل الذى شحذ الفكر فمن الذى يقضى بأن الملك يحكم وفقاً لحدود الله أم لا؟ وقد ظل هذا التساؤل قائماً حتى جاء جون لوك ، ومن سار على هديه عندما

أكدوا أن العلاقة الحقيقية بين الرعية وبين الملك هى علاقة الوكالة . فالملك ليس الأب لرعيته إنما وكيلهم ، إنه قائم ليهيئ لهم حكماً طيباً ، وإذا ما اخفق فى ذلك فإن لهم الحق فى خلعه مثلما يخلع المرء وكيلاً له ويسحب ثقته منه بعد أن يثبت أنه غير أهل لذلك ، ولم يعد الموكل مقتنعاً به. وفى المقابل فقد ظهرت حجج أخرى تأييداً لنظرية الحكومة الملكية المطلقة التى على رأسها أمير مستبد ،والعبارة الأثيرة هنا هى العبارة القائلة : « مايروق الأمير له قوة القانون» ، وبالرغم من أن أكثر الرواد الأوائل من الحركة الإنسانية فى القرن السادس عشر كانوا من أصحاب الفكر المطلق ، حتى حين كانوا باحثين ومفكرين ومعتدلين . إلا أن أكثر المهتمين بالحركة الإنسانية فى القرن السابع عشر كانوا من أصحاب الفكر المقيد الملتزم بالقواعد والنظم . وربما يكون قد سقط مما قدمنا دلالة كلمة إنسانى ومفهومها لدى تلك الحركة ، وهى تعنى ببساطة شديدة كلمة مبهمة غير محددة قد تتسع لتشمل كل شئ ، بما فى ذلك ماهو إلهى وما هو حيوانى.

٢ـ عصر التنوير والحركة العقلانية :

تعتبر الحقبة التاريخية فى العصر الحديث من بداية القرن السادس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر والتى عرفت فى التاريخ السياسى بالحركة الإنسانية ، وماصاحبها من فكر وتحرر بعض الشئ من قبضة الباباوات ورجال الكنيسة من الهيمنة والتحكم فى الفكر الإنسانى ، والتحكم فى مقاليد الأمور ، فقد كان ذلك تمهيداً لعصر التنوير ،والذى تميز بالحركة العقلانية . والتى يمكن تعريفها بأنها مجموعة من الأفكار تقضى بالاعتقاد أن الكون يعمل على نحو ما يعمل العقل حين يفكر بصورة منطقية وموضوعية وهى تؤكد على قدرة العقل الإنسانى على فهم جانب على الأقل من تدبير الكون . والمفكر العقلانى يميل إلى الموقف القائل بأن المعقول هو الطبيعى ، ولاوجود لشئ خارق للطبيعة،

وأقصى مايعترف به المجهول الذى قد يصبح يوماً مامعلوماً ، ولامكان فى مخططه الفكرى لقوى خارقة ، ولامحل فى عقله للإستسلام لعقيدة ما ولاشئ أبغض إلى العقلانى من ذلك المزاج الفكرى الذى تعبر عنه عبارة أؤمن به لأنه مستحيل وهكذا تنزع العقلانية إلى إسقاط كل ماهو خارق للطبيعة ، أو غيبى عن الكون ، وأبقت فقط على الطبيعى الذى يؤمن العقلانى أنه قابل للفهم فى النهاية ، وإن سبيلنا لفهمه فى الغالب الأهم الوسائل التى يعرفها أكثرنا بما يسمى مناهج البحث العلمى . وكل من يذهب من العلماء إلى أن المعارف الصحيحة هى فقط تلك التى نصل إليها عن طريق المنهج العلمى إما أن يكون بالضرورة عقلانياً أو شكاكاً . والعلم والعقلانية ، وإن كان قد تداخلا وارتبطا فيما بينهما عبر التاريخ ليس شيئاً واحداً على الإطلاق.

٣ـ العلم والنزعة العقلانية:

سواء أخذ العلم بمعنى نسق المعارف العلمية المتراكمة أو بمعنى أسلوب ومعالجة المشكلات (أى المنهج العلمى) فلا علاقة فى الحالتين بالميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة ، وذلك لأنه من حيث هو علم ، لايقدم لنا مذهباً فى الكونيات أو الوجود ذاته أو فى الغائية . إن العلم من حيث هو علم لايحاول الإجابة ، بل ولاحتى التساؤل عن القضايا الكبرى المتعلقة بمصير الإنسان وسبل الله إزاء الإنسان ، أو الصواب والخير والشر. ولكن ما يسأل العالم نفسه هذه الأسئلة الكبرى ، ويحاول الإجابة عليها فإنه يكف بهذا السلوك كعالم ، إنه يفعل شيئاً إضافياً ، أوشيئاً آخر مخالفاً لطبيعة عمله كعالم .

وأما النزعة العقلية فهى تعتبر بالصورة التى تمت بها فى الغرب نسقاً ميتافيريقياً كاملاً بل أكثر من هذا أنها كانت لقليل من الناس بمثابة البديل للدين. ونظراً لأن النزعة العقلية أخذت بوجهها هذا صورة مذهب شبه دينى ، فقد كان من الأفضل وصفها بأسماء محددة مثل المادية والوضعية.

الأفكار الأساسية للحركة الإنسانية :

رفض الفيلسوف الإنجليزى « هوبز» النظريات المشابهه لحق الملوك المقدس ، وذلك لأن المفكر العقلانى كان ينكر ما هو مقدس أو إلهى بالمعنى التقليدى . ومع ذلك فقد يؤمن بنسق من العلاقات السياسية الحقة التى يمكن اكتشافها عن طريق تأمل بعض القضايا الخاصة بسلوك الإنسان ـ ومثال ذلك القضية القائلة بأن البشر ينشدون أولاً الأمن والقضية القائلة بأن البشر فى الطبيعة يفتقدون الأمن ويلزم ذلك فى رأى « هوبز» أن الناس ستتقارب وتجتمع معاً وتصوغ عقد من شأنه أن يخلق سلطة مطلقة مثلها كمثل أى سلطة إلهية والفارق الوحيد أنها من خلق الناس .

الأثر الفكرى للحركة الإنسانية :

ينقسم الأثر الفكرى الذى خلقته الحركة الإنسانية فى الفكر الأوروبى إلى قسمين ، فكر ناتج عن الحركة الطلقة ، وفكر نتاج الحركة العقلانية وسوف نعرض لكل باختصار شديد ، وما يهمنا فى بحثنا هذا هو أسباب اللوثة الفكرية التى أصابت الفكر العربى بانتقال الفكر التنويرى والغزو الفكرى للحضارة العربية والإسلامية والذى اشتد أواره فى القرن العشرين الذى شهد احتلال البلدان العربية وسيطرة المحتل على مناحى الحياة برمتها ، ولابد لنا أولاً أن نتعرف على الأثر الفكرى داخل المجتمع الأوروبى :

١ـ الأثر الفكرى لأصحاب النزعة الطلقة:

ومن أشهر رواد تلك الحقبة مكيافيللى ، ففى كتابه (الأمير)والذى صدر بعد وفاته بخمس سنوات فى سنة ١٥٣٢ ، وفيه لايحاول التأكيد على ماسيفعله الأمير الفاضل أو الأفضل ، ولايقدم تبريراً للطاعة ،ولاحتى أن يعرض محاسن ومساوئ السياسة وما هو خطأ وما هو صواب .. وهو مايعطى صورة شاملة لنهج مكيافيللى وعقله ، وهذا ما جاء به من بعض الأقوال المشهورة:

* لقد ابتدع الخيال الكثير من الجمهوريات والإمارات التى لم يرها أحد ولم يكن لها وجوداً حقيقياً ، وذلك لأن أسلوب حياتنا مخالف تماماً لما ينبغى أن يكون وما حدث فعلاً سيعرف سبيله إلى السقوط وليس البقاء.

* إن المرء الذى يجاهد نفسه بكل السبل ليكون فاضلاً يلقى بنفسه إلى التهلكة لامحالة وسط حشد غفير من الأراذل.

* إن بعض العادات التى تبدو فاضلة تعنى دمار من يلتزم بها ، والبعض الآخر الذى يبدو رذائل فيه رفاهية الأمير.

* إن البشر عامة جاحدون متقلبون ، مخادعون.

تعليق : وإذا تحدثنا وفق الأسلوب العلمى فقد يستحيل إصدار مثل هذا التعميم على البشر بيد أن أكثرنا يصدر أحكاماً فى غمرة الشك من هذا الطراز حين نتحدث إجمالاً.

* ولم تشتهر كلمة من كلماته مثل كلمة : الغاية تبرر الوسيلة.

٢ـ الأثر الفكرى لأصحاب النزعة العقلانية :

ومن أشهر رواد تلك الحركة الإنسانية من أصحاب النزعة العقلية وأبرز علمائها فرنسيس بيكون وما قدمه من إنجازات علمية وكتابه الرائع تقدم التعليم الذى صدر سنة ١٦٠٥ وهو تصنيفاً طموحاً وبرنامجاً للدراسات العلمية التى عقد عليها بيكون الأمل على أن تهئ للناس سلطاناً جديداً على بيئتهم . وهو ضد الاستدلال القياسى ،ويدعو إلى شواهد الإدراك الحسى ، والاعتماد على الوقائع ، واتخاذ الاستقراء منهجاً . ومن كتابه البناء الرائع :

* الطبيعة أدق مرات ومرات من الحواس والفهم . حتى أن تلك التأملات والتفكيرات ذات المظهر الخادع التى تستغرق الناس بعيدة تماماً عن الغرض لسبب واحد أنه لايوجد من يدرك وقائعها .

* إن القياس المنطقى لايطبق على المبادئ الأولية للعلوم ويطبق عبثاً على البديهيات الوسيطة ولايبارى الطبيعة دقة. ويقود إلى القضية شكلاً ويفلت عنه الموضوع.

* ويتألف القياس المنطقى من قضايا ، وتتألف القضايا من كلمات ، والكلمات رموز الأفكار . فإذا تشوشت الأفكار ذاتها (وهى أصل الموضوع) وتعجلنا تجريدها من الوقائع سيفقد البناء الفوقى اليقين الراسخ . لكل هذا نضع أملنا الوحيد فى الاستقراء كمنهج أصيل.

* إن أفكارنا عارية عن الصواب سواء كانت منطقية أم طبيعية فالجوهر والكيف والماهيه والفعل والانفعال ليست افكاراً صحيحة ناهيك عن الثقل والضوء والكثافة والندرة والرطب والجاف والتولد والفساد والجاذبية والنفور والعنصر والمادة والصورة وماشابه ذلك ، فجميعها أفكار خيالية وغير محددة المعنى بدقة.

* إن الجوهر يصدر على الأعراض اى الدائم عن الزائل.

رينية ديكارت :

فيلسوف فرنسى من أعلام عصر الإصلاح والتنوير وهو مفكر موسوعى ، ورجل علامة ، ومتعدد الاهتمامات العلمية والثقافية ومن أقواله:

* لاوجود لشئ فى الواقع على نحوما تمثله لنا حواسنا ونظراً لأن البعض يخطئ فى الاستدلال ويقع فى مغالطة حتى بالنسبة لأبسط الأمور الهندسية، فقد نبذت كل الاستدلالات التى اتخذتها براهين اقتناعاً منى بأننى عرضة للخطأ شأنى شأن الآخرين.

* إن ذات الأفكار لصور الأشياء التى تقع فى محيط خبرتنا ونحن أيقاظ قد تدخل محيط خبرتنا ونحن نيام . وكلها فى هذه الحالة عارية عن الصدق.

وبناء على ذلك ذهب بى الظن إلى أن كل الموضعات (صور الأشياء) التى وجدت سبيلها إلى عقلى نصيبها من الصدق لايزيد عن نصيب تخيلات أحلامى . وما بلغت هذا الحد حتى لاحظت فجأة أننى تراودنى رغبة فى الاعتقاد بزيف كل شئ ، لابد وبحكم الضرورة المطلقة أن أكون شيئاً ما ، أنا الذى أفكر على هذا النحو.

* وهكذا أدركت هذه الحقيقة (أنا أفكر إذن أنا موجود) صادقة يقينية وواضحة وضوحاً لاسبيل إلى الشك فيها مهما بالغ أصحاب نزعة الشك فى تطرقهم للنيل منها . وخلصت من هذا إلى أن بإمكانى بلاتردد ، التسليم باعتبارها المبدأ الأول للفلسفة التى كنت أجّدُ فى البحث عنها . (كتابه : مقال فى المنهج عام ١٦٧٧).

* واتخذ ديكارت من مقولته الشهيرة (أنا أفكر إذن أنا موجود) نقطة إنطلاق لبناء نسق فلسفى مضى به صاعداً إلى الله ، وكان الله عنده متعالياً غير مشخص.

* ورأى ديكارت أن الحيوانات ليست سوى آلات تستجيب إلى منبهات البيئة من خلال شئ قريب الشبه جداً بما نحن نسميه الآن الأفعال الشرطية المنعكسة . غير أن البشر ليسوا بهذا المعنى .

* إن حيوان الناس تديرها أرواحهم ،وهى الأرواح التى تشارك بقدر فى عقلانية قوانين الكون والرياضيات والله . وقد حاول فلاسفة كثيرون منذ ديكارت فصاعداً معالجة ثنائية الروح والجسد ، والعقل والمادة والتفكير والإدراك.

بين الروح والجسد :

رأى كثيرون من المؤرخين والفلاسفة أنه من المفيد المقابلة بين النزعة العقلانية وبين مايسمونه بالتجريبية ، ومثل هذا التصنيف يسلم عملاً وفعلاً مصطلحات ونظرة الثنائية الديكارتية . فالعقلانيون هم أولئك الذين يؤكدون

على الجانب الذهنى أو العقلى أو الفكرى فى هذا التناقض بين الروح والجسد. والتجريبيون هم الذين يؤكدون على المادى والحسى فى هذا التناقض إذ أن الحس يتكون من جهاز عصبى ومخ . ولقد أجمعوا على أن العلم استمد معناه ودلالاته لأنه معقول ، لأنه من نوع النمط الأساسى الذى نرى خير مثال له فى مظاهر التقدم الرياضية والعلمية التى شهدهما هذان القرنان السادس عشر والسابع عشر . والنزعة العقلانية والنزعة التجريبية ظل يجمعهما شئ واحد خلال القرنين الأولين من العصر الحديث إذ يؤكدان أن للعالم معنى مفهوماً وهو معنى رياضى فى الأساس .

إسحاق نيوتن:

وهو أحد ابرز علماء حركة التقدم خلال القرن السابع عشر ، ولم يكن إنساناً مجرداً خارج نطاق عمله كعالم طبيعة ، بل كان فى الحقيقة مشهوراً أكثر فى مجالات تتعلق بالغوص فى آداب الكتاب المقدس وبعيدة تماماً عن الحداثة والتنوير . وقد نشر كتاب نيوتن المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية عام ١٦٨٧ . وكان أصدق تعبير من واقع عصر التنوير ماعبر عنه هذا الفيلسوف العظيم بأن الكون يعمل بدقة كآلة كبيرة أطلق عليها الآلة النيوتونية العالمية» ولقد استطاع أن يصل إلى الكمال بحساب التفاضل والتكامل ، وإن قانونه الرياضى الهام عن العلاقة بين الكواكب وقوانين الجاذبية هى انجازات بدت لمعاصريه كافية تماماً لتفسير كل ظواهر الطبيعة ، أو أن توضح على الأقل كيف يمكن فهم كل هذه الظواهر بما فى ذلك سلوك الإنسان .

٤ـ عقيدة المستنيرين:

كانت الطبيعة بالنسبة لعصر التنوير مفهوماً أنيساً محبباً تماماً ، بينما بدت الطبيعة فى نظر المسيحى شيئاً مثيراً للشكوك والريب . ولقد أصبحت الطبيعة فى نظر إنسان عصر التنوير هى العالم الخارجى الذى نعيش فيه عالم موجود

حقاً . وكل ما هو قائم الآن فى عالم الطبيعة البشرية كما هى منظمة فى مجتمع، كل هذا قد بدا فى نظر المتحمسين للتنوير فى القرن الثامن عشر أمراً غير طبيعى. فمظاهر التمايز الطبقى ، وآداب السلوك الاجتماعى ،وامتيازات رجال الدين والنبلاء ،والتباين الصارخ بين اكواخ الفقراء وقصور الأثرياء وكل هذا كان موجوداً بالفعل ولكنها امور غير طبيعية . لقد كان هذا الداعية ينظر إلى ما هو طبيعى بمعنى الحسن أو السوى . وإلى ما هو غيرطبيعى بمعنى السئ أوالشاذ .

ففى عبارة موجزة نقول إن التحول فى موقف الإنسان الغربى من الكون وكل ما فيه هو التحول من نعيم المسيحية الغيبى فى السماء بعد الموت إلى النعيم العقلانى الطبيعى على هذه الأرض الآن أو على الأقل فى القريب العاجل وهى عقيدة التقدم . والمسيحية التقليدية التى ثارت عليها الغرب لم تكن لديها نظرية عن التقدم فى الطبيعة على هذه الأرض ، ولم تكن لديها نظرية عن التقدم فى الطبيعة على هذه الأرض ، أو لم تكن يقيناً بالوضوح الذى أخذنه هذه النظرية فى عصر التنوير وكان التفسير المفضل عند المثقفين فى القرن الثامن عشر هو أن التقدم مرجعه إلى انتشار العقل ، وذيوع التنوير باطراد مما يسر للبشر التحكم فى بيئتهم على الأفضل .وظل الأمر على هذا الحال حتى القرن التالى أى التاسع عشر عندما بدأ تطبيق الاراء الداروينية عن التطور العضوى على العلوم الإجتماعية.

ومهما كانت نظرية التقدم مدينة لنمو المعارف التراكمية وزيادة قدرة البشر على انتاج الثروات المادية من بيئتهم الطبيعية إلا أنها من وجهة النظر الغربية نظرية أخلاق وميتافيزيقيا حقيقية فإن التقدم سيقود الناس خلال جيل أو جيلين إلى تتم السعادة ويغمر البشر وينتفى الشر فالعقل هو الذى سيهدى الناس إلى الطبيعة . ويفيد المرء بهذا الفهم لصوغ سلوكه وفقاً للطبيعة ، ومن ثم يتحاشى كل المحاولات العقيمة التى قامت فى الإفكار الخاطئة للمسيحية التقليدية وحلفائها السياسيين من أجل السير ضد الطبيعة.

ثانياً : مفهوم التنوير والمعطيات والصعود

وبعد أن عرضنا بإيجاز شديد لحركة التنوير فى أوروبا بمراحلها التاريخية منذ مطلع القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ، يحق لنا أن نبحث عن مفهوم واضح وشامل وبسيط لمفهوم التنوير الذى نتج عن هذه الحركة وننظر فى معطياتها وصعودها المستمر حتى يومنا هذا ، ونرى أن مجمع اللغة العربية قد وضع تعريفاً لهذه الحركة يشمل مفهومها ويشير أيضاً باختصار شديد إلى أسبابها ، نرى فيه الكفاية وتذكرة باحترام إذ يقول المجمع الموقر فى تعريفه لمصطلح ـ « تنوير» : إنه حركة فلسفية ، فى القرن الثامن عشر ، تعتد بالعقل، والاستقلال بالرأى . وتؤمن بأثر الأخلاق ، وتقوم على فكرة التقدم والتحرر عن السلطة والتقاليد التى كانت متحكمة وسائدة قبل هذا العصر « الثامن عشر الميلادى» وهى السلطة الدينية الكهنوتية الكنسية، وتقاليدها التى جمدت واقع الحياة ونظريات العلوم ، فقامت حركة التنوير لتعلن رفضها لهيمنة الفكر الكنسى، وعقلانية رافضة الكهنوت ، وتحرر من صور المسيحية التى كانت سائدة يومئذ فقد قامت هذه الحركة لمواجهة تحالف الكنيسة والاقطاع ، وقد أعلنت هذه الحركة رفضها لسلطان الدين ، ورفعت شعارها القائل :

«لاسلطان على العقل إلاالعقل».

صعود ومعطيات :

شهد القرن الثامن عشر الميلادى صعود الفكر التنويرى وتوالى أعلام التنوير، مثل فوليتر وروسو وجوته وكانت ومونتسكيو ، وقد كان فولتير أبرز فلاسفة ومفكرى هذا العصر ، فقد دعا إلى تمجيد العقل بديلاً عن الدين

وقدسيته وأنكر عالم الغيب ، والبعث والجزاء الأخروى، وشن حملة شعواء ضد الدين والكنيسة ، وقال : إن النفس إلا حياة الجسم ، وإنها تفنى بفنائه ، وليس هناك وحى مقدس سوى الطبيعة نفسها ـ وكتب كثيراً فى نقد الدين الذى اتخذه رجال الدين وسيلة لإرباك الناس ، واستخدمه الملوك لسلب أموالهم ، وجعل مقاييس الفضيلة فى مدى ما تحققه من الخير الإجتماعى ، قاطعاً العلاقة بينها وبين طاعة الله ، والثواب والعقاب بعد الموت.

وفكر « فولتير» هذا يمثل خلاصة فكر حركة التنوير فى أوروبا ، وقد تذبذب فكره إزاء الإيمان بوجود إله ، وإذا كان لابد من الاعتراف بوجوده ، فينبغى الاعتراف به من باب الضرورة لضبط سلوك « العامة» فالدين مجرد منفعة عامة، ومن أقواله : إذا كان لديك قرية واحدة تحكمها ، فينبغى أن يكون لها دين ، وإذا لم يكن الإله موجوداً ، فيجب علينا أن نبتدعه . ومن أقواله المشهورة التى انتشرت فى العالم : قد اختلف معك فى الرأى ولكنى أدفع حياتى ثمناً لكى تقول رأيك.

ولم يتوقف صعود حركة التنوير على القرن الثامن عشر وحسب ، بل استمرت فى الصعود إلى الهاوية ، ومازالت فى استمرارية الصعود حتى يومنا هذا . فبرغم فشلها عبر القرون فى تحقيق السعادة المنشودة للإنسان الأوروبى التى بشرت بأنها سوف تتحقق خلال جيل أو جيلين وكان ذلك فى القرن السابع عشر ، أنها سوف تقيم الفردوس المفقود فوق الأرض ، وسوف ينعم كل من يعيش عليها بالسعادة ، لم يتحقق شئ من ذلك ، بل تمخض عن الذى انقطعت علاقته بالسماء الحركة الاستعمارية الأوروبية التى أخذت فى احتلال البلدان الضعيفة وتقتيل شعوبها وإذ لالهم واستعبادهم ، ونهب ثرواتهم الطبيعية وخاصة بلدان إفريقيا التى أقاموا نهضتهم الصناعية على نهب ثرواتها المعدنية، وحولوا القرن العشرين إلى قرن الظلام فى تاريخ البشرية بما نتج بين

دول التنوير الغربى من حربين عالميتين راح ضحيتهما أكثر من سبعين مليون نسمة ، ولم ينتهوا عن التنوير المزعوم ، بل استمروا فى تحويل العالم إلى غابة كبيرة يأكل قويها الضعيف ، ومازال ظلام التنوير الغربى منتشراً فى كل ربوع كرة الظلام ، بعد أن انقطعت علاقة إنسان التنوير بالسماء.

وإذا أردنا أن نستخلص ونجمل معطيات التنوير الغربى الذى لايخضع فيه الإنسان إلالعقله الذى يستطيع أن يحاكم الأشياء بذاتها فنجد أن ماحمل كتاب الدكتور مراد وهبه « مدخل إلى التنوير» وهو واحد من أكثر أنصار الفكر التنويرى الغربى ، والداعين للتنوير ومعطياته ومقولاته وفكره فى عالمنا المعاصر ، فنجد أن ماجاء بكتابه ما يكفى ، فقد لخص المقولات « العشر» لهذا التنوير فقال:

١ـ إن الإنسان حيوان طبيعى إجتماعى ، فهو جزء من الطبيعة ، وهى تزوده ، فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الله ـ فليس خليفة الله ، خلقه وكرمه بأن نفخ فيه من روحه ، وفضله على سائر المخلوقات.وسعادة هذا الإنسان دنيوية محضة، يجدها فى العاطفة والشهوة وحدهما.

٢ـ وحصر الاهتمامات الإنسانية بقضايا العالم الراهنة ، والطبيعية المحسوسة لا العالم الآخر وما وراء الطبيعة.

٣ـ الوقوف فى الدين عند الدين الطبيعى الذى هو إقرار بشرى من صنع العقل لاالدين السماوى المتجاوز للطبيعية ، واعتبار الشعور الدينى مزيجاً من الخوف الخرافى والرغبة فى تغيير ظروف مؤلمة.

٤ـ تحرير العقل من سلطان الدين ، بحيث لايكون للعقل سلطان إلا العقل .

٥ـ إحلال العلم محل الميتافيزيقا .. وعدم تجاوز الملاحظة والتجربة إلى ما وراءهما من سبل المعرفة « النقلية» والوجدانية.

٦ـ اعتبار الفكر وظيفة الدماغ ـ فالدماغ تفرز الفكر ، وليس هناك نفس فى الإنسان.

٧ـ إثارة الشكوك حول مشروعية المطلق ، فالإنسان هومقياس المطلق .

٨ـ استنباط الأخلاق من الطبيعة .. وحصر علاقتها بالسعادة واللذة ، لا بالفضيلة والاحتياجات الروحية مع جعل الأولوية للإحساسات الفيريقية على المفاهيم الأخلاقية والعقلية ، فالأخلاق من صنعنا ومن ثمرات خبراتنا وهى مستندة إلى الفيزيقية .

٩ـ احلال « الاجتماعية» محل « الدينية» سبيلاً لتحقيق السعادة الدنيوية بالعاطفة والشهوة ، فالطبيعة هى التى أوجدت الإنسان والمجتمع المسؤول عن سعادته.

١٠ـ رد القوانين إلى أصول فيزيقية وتاريخية ، وتحرير التاريخ من السنن الإلهية، وتفسيره بمفاهيم طبيعية أو مفاهيم خلقية نابعة من الطبيعة الإنسانية.

ولنا مقولة واحدة حول هذه المعطيات أو المقولات التنويرية العشر ، وهى خاصة بمقولة مفتتح التنوير والتى عرفت الإنسان بأنه حيوان طبيعى وسعادته دنيوية محضة يجدها فى العاطفة والشهوة وحدهما . فمن التنوير نستقى الحكمة فنبستطيع أن نقول بحكمة وجسارة وحسم : كن حيواناً تعش سعيداً.

***

تعريف مصرى للإنسان

وقبل أن نعرض للأثر الفكرى لحركة التنوير فى الفكر العربى ، وخاصة خلال قرن الظلام ، القرن العشرين ، والذى أخذ الإنسان العربى يتخبط فى دياجيره ، ومازال كذلك ، والحركات الفكرية الأصيلة التى قامت تتصدى لهذا الغزو الفكرى الظلامى الغربى والتى أُجهضت نرى أنه لزاماً علينا أن نبحث أولاً عن تعريف للإنسن نابعاً من الوجدان العربى الضارب بجذوره الحضارية فى أعماق التاريخ والذى احتوى الحضارات القديمة ، سواء كانت مصر القديمة أو بابل وأشور وسبأ أو الحضارة الفينيقية التى قامت على أرض الشام، حتى يحق لنا أن نتناول أو ننظر فى أى قضية إنسانية أو إجتماعية بمنطق العلم الذى يتحدثون عنه ، فالعلم لايتناول أى شئ بالبحث أو الدراسة إلا إذا كان لديه تعريف واضح أو مفهوم لهذا الشئ ، وعلى سبيل المثال ، فالعلم لايتناول دراسة الماء وخواصها وسلوكها ، إلاتحت تعريف الماء : أنه ذلك السائل الذى لا لون له ولا طعم ولارائحة ، وأضع القلم وأبحث فى وجدانى عن تعريف للإنسان، وكأنى أنصت إلى حوار يدور داخلى بين أجدادى قدماء المصريين وأجدادى النصارى الذين حملوا رسالة المحبة وهم يعانقون أجدادى المسلمين العرب الذين أتوا إلى مصر فاتحين ليخلصوا قبط مصر من اضطهاد وبطش و وحشية مسيحى أوروبا ، حاملين رسالة الرحمة ، فيتحرك لسانى قائلاً : الإنسان هو مخلوق المحبة والرحمة.

وما المحبة والرحمة إلا وجهين لعملة واحدة هى الإنسان ، فلا محبة من غير رحمة ، ولارحمة بغير محبة ، فقد اكتمل الوجه الآخر الحضارى لمصر واكتمل الإنسان بوجهه الآخر بالإسلام ، وسرعان ما يطرق الذاكرة قول سيدى الشيخ الكبير محى الدين بن عربى رحمه الله :

لقد كُنت قبل اليومَ أُنكرُ صاحبى

إذا لم يكن ديــنُه لدينى دانى

فقد صار قلبى قابلاً كلَ صورة

فَمرعى لغزلانٍ وديرٍ لرهبـان

وبيت لأوثانٍ وكعبة طـائفٍ

وألواحَ توراةٍ ومصحف قرآن

أدينُ بدين الحبِ أنَّى تَوجهتْ

رَكائبُهُ فالحبُ دينى وإيمانى

ونستكمل بحثنا عن الإسلام ولوثة الفكر العربى فى الجزء الثانى من كتابنا هذا بمشيئة الله ، والله المستعان.

* * *

خاتمـــة

ونحن فى مرحلة فارقة من تاريخنا وحاسمة ، وإما أن نكون أو لانكون، والتغيير يفرض حتميته ، فالتغيير فعل ، والفعل لابد أن يسبقه فكر ، وإذا تم فعل التغيير بمنظومة الفكر التى أدت إلى الفساد والخراب فلن يكون تغييراً ، إنما هو وهم التغيير ،إذن فلابد من النظر فى المنظومة الفكرية التى نعيش بها، والتى تحولت إلى منظومة حياتية كريهة من الكذب والغش والتزويغ واللف والدوران وتزييف الوعى وتزويره ، وأول خطوة تبدأ فى علاج أى مرض هى وعى المريض بمرضه واعترافه بما يعانى ، ثم يبحث عن الطبيب المتخصص الذى يذهب إليه ، ومانعانيه من أمراض فكرية وإجتماعية لاعلاج لها إلا بأيدينا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(*) .

فلامناص إذن من مواجهة الحقائق مهما كانت مرارتها ، ومواجهة النفس بأخطائها وعيوبها ثم تقويمها ، وما قدمنا إلا خطوة متواضعة فى طريق النظر فى المنظومة الفكرية التى نعيش بها والتى أخذت تغزو الفكر العربى منذ بداية القرن العشرين وأخذت تنتشر معها اللوثة الفكرية التى أخذت بنا إلى الانحدار حتى وصلنا إلى شفاجرف هار ، وأخذنا نقلد ، ونأخذ عن الغرب كل ما أتى به حتى وإن كان زبالتهم أو نجاسة أفعالهم أو عصارة أمعائهم حتى تقيأنا عصارة أمعائنا، فليس كل ما أتى به الغرب هو صحيحاً ويناسبنا وواجب الأخذ به ، وليس كل ما أتى به الغرب مرفوضاً ، إنما نأخذ عن الغرب والشرق وكل ما أتى به الفكر الإنسانى ومالايتعارض مع ثوابتنا الحضارية ولايؤثر على هويتنا، فللغرب تاريخه الذى تمخض عنه فكره المعاصر والذى انتهى به إلى التنوير العقلانى،

(*) سورة الرعد : ١١

ولاسلطان على العقل إلا العقل ، وقد انتهى به التنوير والعقل والعقلانية إلى تحويل العالم إلى قرية صغيرة أو الأصح غابة لحيوان الإنسان الذى يأكل قويه الضعيف ، ومازال الغرب ـ أوروبا وأمريكا ـ فى عصر الحرية والديمقراطية على الطريقة الأمريكية وحقوق الإنسان يتحايلون بالعولمة الحديثة أو الفكر العالمى الجديد على نهب ثروات أفريقيا بينما يموت أطفالها بالملايين فى كل عام ضحايا الجوع والمرض.

ولاشك أننا فى حاجة إلى حركة للتنوير الحق النابع من ذاتيتنا ينير مسيرتنا الحضارية بالإحياء والتجديد وليس بالهدم والتبديد ، فمفهوم التنوير فى ثوابتنا الحضارية هو مشتق من النور ، والنور هو الحق والحق واحد لايتعدد ، وماذا بعد الحق الا الضلال ، ولا سلطان فوق العقل إلا سلطان الله ، ولايمكن لنا إنكار الغيب وشريعة السماء وما أتى به الدين الإبراهيمى من تعاليم ومنظومة قيم وأخلاقيات سماوية فحواها المحبة والرحمة والتى عشنا عليها خلال حضارتنا الإسلامية والعربية بينما كانت أوروبا تتخبط فى دياجير ظلام عصورها الوسطى، والتى انتقلت إلى اوروبا فأخذوا جانبها المادى وقضوا على جانب الروح وأقاموا مدنية عرجاء تقوم على قدم المادة وحسب وأهملوا جانب الروح، فلا يحق وصف مايعيشه الغرب اليوم بالحضارة ، فالحضارة إرتقاء بالمادة والروح معاً ، أى بالجسد والروح ، والقضاء على اللوثة الفكرية التى أصابت الفكر العربى خلال القرن العشرين والتى أخذت تزداد مع السنين حتى وصلت إلى حالة من الخُبال فى عصرنا ، ولم تنته عند ذلك ، بل تحولت مع البعض إلى لوثة دموية ، لن يكون بمعالجة أعراضها وظواهرها وحسب، إنما لابد من البحث عن جذورها والقضاء عليها ، فقد نقل ما أطلقوا على أنفسهم اسم التنويريين خلال القرن العشرين أفكار التنوير الغربى ،وقضوا على الفكر العربى الأصيل ، وحاربوا كل ما هو أصيل فى حياتنا ، وهذا ما سوف نعرض له بشئ من التفصيل فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، ولايغيب عنا ان حركة

التنوير فى أوروبا قد مرت بعدة مراحل كما بيننا من قبل ، والذى يستوردها ويسير خلالها لابد أن يمر بتلك المراحل التى مرت بها ، وهذا ماحدث بالفعل لدينا ، فمازال ما يسمى بالنخبة والمفكرين والمثقفين يقفون بعد انقضاء أكثر من قرن من الزمان عند المرحلة الأولى من حركة التنوير ، أى عند القرن السادس عشر ، فقد وقفوا بالتحديد عند المرحلة الأولى من عصر النهضة ، أى حقبة النزعة الطلقة ، كما وضعهم المحتل وتركهم ، وحاولوا أن يتحركوا إلى ما بعد ذلك ، كما هى المراحل الذى مر بها الغرب فى مراحل التنوير ، فحاولوا جاهدين أن ينتقلوا إلى المرحلة التالية من عصر النهضة ، وهى مرحلة النزعة العقلانية ، ولكنهم أصيبوا باللوثة الفكرية ، فالمحرك الذاتى التاريخى التى تحركت بها أوروبا ، والذى انتقلوا به عبر رحلة التنوير من مرحلة إلى أخرى هو خاص بالذاتية الأوروبية وليس متاحاً لكل المجتمعات ،وخاصة المجتمعات أصحاب الحضارات التى تراكمت فى وجدان أبنائها معرفة وقيم ومُثل عليا وماض عريق وفخر بالأجداد لايمكن التخلص منه أو القضاء عليه.

وقد بينا بمنطق العلم الذى يتحدث به النخبة والمفكرون وأهل العلم والمثقفون كيف أن الأسس التى قامت عليها منظومة الفكر الحديثة مثل العقل والعلم والنور وغيره هى خطأ ، وكما يقول منطق العلم : فإن كل ما بنى على الخطأ فهو خطأ ، ولم تقف منظومة الخطأ على أهل الحداثة والتنوير وحسب، بل شملت أيضاً القائمين على شئون الدين وعلماء المسلمين وما يسمى بالمفكرين الإسلاميين ، والذين يتظاهرون بمظهر التمسك بالسنة ، وقدمنا كيف أنهم اخترعوا صلاة تناسب عصر التكنولوجيا، وكأنهم اكتشفوا أن إله عصرنا غير إله العصور القديمة فجعلوا صلاة تنويرية علمية تناسبه ، وقد كثر كهان الإسلام وأخذوا يخبطون فى بعض ، كل طائفة من أجل مصالحها ، وكأنهم بذلك ينفرون المسلمين من دينهم ويجرونهم لعصور إسلامية وسطى تدعو لهجر الدين كما حدث فى أوروبا ،ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفهرس

إهـــــداء	٥
مقدمـــــة	٧
الفصل الأول : فتوحات قاهريةٌ	١٣
* منهج الفطرة	١٧
* القرآن الكريم ومنهج الفطرة	٢١
أولاً : قضية الخلق السبب الأول وواجب الوجود	٢٢
ثانياً : العلة فى الخلق.	٢٣
ثالثاً : قضية ما بعد الموت	٢٤
رابعاً : قضية طريق النجاة.	٢٦
* الإعجاز الدعوى فى الإسلام.	٢٧
أولاً : بساطة دعوة الإسلام.	٣٢
ثانيـــاً : الإسلام دعوة للناس كافة	٣٣
ثالثـــاً : الإسلام وعلاميته منذ بزوغ فجره	٣٤
رابعـــاً : سُنـــةُ العُـــرف.	٣٨
خامساً : السُنةُ المطهرة	٤٠
سادساً : المسؤولية فى الإسلام	٤٥
سابعاً : فريضة الفرائض الغائبة	٤٧
ثامناً : الطريق إلى الجنة	٤٩
١ـ التواضع	٥٠
٢ـ الرحمة	٥١
تاسعاً : الدين الإسلامى ومصادره	٥٢
عاشراً : الفرقة الناجيـــــة	٦٢
الفصل الثانى : موازين ومعايير قاهرية	٧١
أولاً : العقل ومرادفاته	٧٧
١ـ العقل	٧٧

٢ـ اللب ٨٠
٣ـ النهى ٨٢
٤ـ القلب ٨٧
٥ ـ الفؤاد ٩٠
البصر والبصيرة ٩٣
العلمُ والنورُ والفكرُ وأهلُ الذكر ٩٨
أولاً : العلم والعلماء ٩٩
ثانياً : النور ١٠٩
ثالثاً : الفكر ١١٧
رابعاً : أهل الذكر ١٢٥
أين هو الإسلام ؟! ١٣٥
أربع مقدمات ١٣٨
الفصل الثالث : فى ليل القاهرة ١٥١
علمنة الصلاة واللوثة الفكرية ١٥٨
أعجب الفتاوى ١٦١
صلاة التهنيج ١٦٤
اللوثةُ والنخبة والمثقفون ١٦٦
نظرة فى تاريخ اللوثة الفكرية ١٧١
أولاً : حركة التنوير فى أوروبا ١٧٣
١ـ حركة النهضة والتنوير ١٧٣
طبيعة الحركة الإنسانية ١٧٤
الاتجاهات السياسية للحركة الإنسانية ١٧٦
٢ـ عصر التنوير والحركة العقلانية ١٧٧
٣ـ العلم والنزعة العقلانية ١٧٨
الأفكار الأساسية للحركة الإنسانية ١٧٩
الأثر الفكرى للحركة الإنسانية ١٧٩

١ـ الأثر الفكرى لأصحاب النزعة الطلقة ١٧٩
٢ ـ الأثر الفكرى لأصحاب النزعة العقلانية ١٨٠
بين الروح والجسد ١٨٢
٤ـ عقيدة المستنيرين ١٨٣
ثانياً : مفهوم التنوير والمعطيات والصعود ١٨٥
المقولات العشر للتنوير ١٨٧
تعريف مصرى للإنسان ١٨٩
خاتمـــــة ١٩١
فهـــــرس ١٩٤

* * *

صدر للمؤلف

١ـ **الصلاة بين السُنةَّ والتبديل** الناشر : المكتب المصرى الحديث.
الطبعة الأولى عام ٢٠٠٧
الطبعة الثانية عام ٢٠٠٩

٢ـ **طلبة ومظاهرات - اعترافات طالب**
من تاريخ الحركة الطلابية الناشر : المكتب المصرى الحديث
عام ٢٠١٢